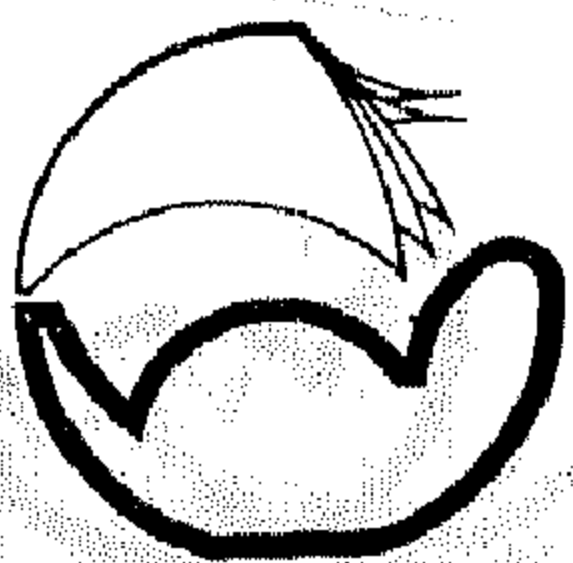
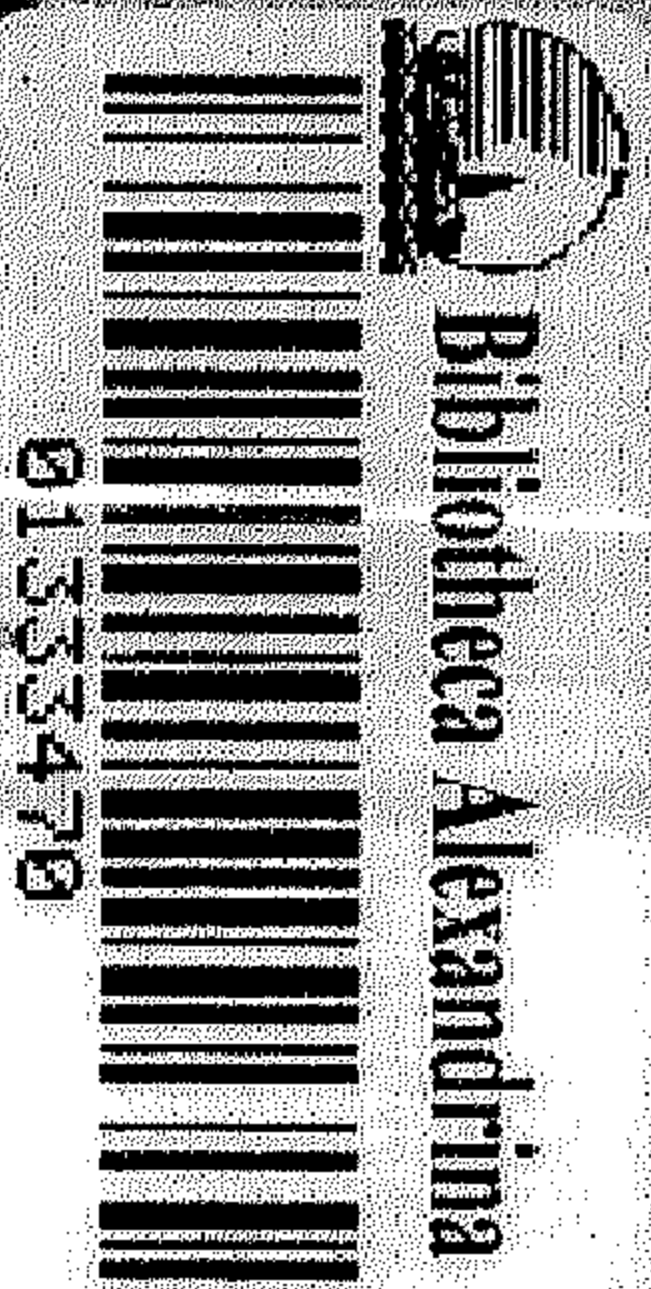


سيرة عيده

التحليل النفسي لقوة الاستدلال

تخيّل الأحداث قبل وقوعها



دار الحياة

التحليل النفسي لقوة
الاستدلال
(تخيّل الأحداث قبل وقوعها)

سمير عبده

التحليل النفسي لقوة الاستدلال (تخيّل الأحداث قبل وقوعها)



جميع الحقوق محفوظة لدار علاء الدين

الطبعة الأولى: ١٩٩٤ - دمشق

اسم الكتاب

التحليل النفسي لقوة الاستدلال

المؤلف: سمير عبده

تصميم الغلاف: لينا عبده

الخطوط: عيسى فرج عيسى

* * *

التتصيد الالكتروني: دار علاء الدين

الاخراج الفني: باسم قمر

الناشر: دار علاء الدين

دمشق: ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٤٢٧١٥٨ — ٤٢٧٣٥٣

تلكس: ٤١٢٥٤٥

فاكس: ٤٢٧١٥٩

* * * * *

المقدمة

هذا الكتاب هو حصيلة دراسات وأبحاث متعددة قمت بها في أعوام متفاوتة، وقد صنفتها ككتاب منذ بعض الوقت، وقمت في الاونة الاخيرة بمراجعتها، وتحديث المعلومات الواردة في أجزاء منها، والان يرى النور ضمن الدراسات السيكلوجية التي أقوم بأعدادها.

والغاية من الكتاب دراسة قوة الاستدلال من زاوية التحليل النفسي بحيث يستطيع القارئ أن يفهم المقصود من قوة الاستدلال والتعاطي النقدي السيكلوجي لها.

واذا كان علماء النفس القدماء قد نسبوا قوة الاستدلال إلى مجموعة من الاحساسات، فإن الامر بالنسبة للمحدثين ليس مقصوراً على مجرد الاحساسات، وإنما يدخل فيه معلومات المرء وخبراته السابقة التي تعطي بدورها معنى للأحاساسات التي تعتبر في حد ذاتها لب الاستدلال. فالاستدلال اذن ليس مجرد انطباع صور الاشياء في الذهن، ولكنه أستجابة معينة للأحاساسات الراهنة تستخدم فيها الخبرات السابقة، كما تتأثر بإتجاهات الفرد وأسلوبه في الحياة.

وعملية الاستدلال لا تتم إلا بوجود الشروط الآتية:

١ - موضوعات فيزيقية لها خصائص مميزة تعتبر كمنبهات خارجية.

٢ - ناحية فيزيولوجية تتصل عادة بالحواس وأطراف الاعصاب التي تنقل الاحساسات إلى الدماغ.

٣ - ناحية سيكولوجية تتصل بترجمة تلك الاحساسات وأعطائها المعاني اللازمة التي تتلاءم مع الشيء المدرك في مجال استلالي معين.

في كتابي (الخوارق النفسية) لم أكن أرمي إلى دراسة الينابيع الأعمق لبواطن النفس وما يعتور ذلك من اتجاهات ومن نظريات تتضمن الغيبيات والتشويق لمعرفة المجهول، بأكثر من معالجة ما يتصوره الانسان العادي عندما يتحدث عن خفايا النفس وعن منظومة عقائده وعن الوعد الذي يزعم، من جهة أولى، أيضاً جميع أغاز هذا العالم بتمام يحسد عليه. وكما يقول فرويد: تأكيد وجود (عناية) ملأى بالعطف وهي تسهر على حياته وتحرص على تعويضه، في حياة قادمة من ضروب الحرمان الذي تصيبه في الدنيا.

إن التحليل أو التفسير من أعظم أنماط التفكير، ولذا يستحق أن نحلله مدققين. وهذا التحليل سوف يفيدنا في تقصي أنماط منطقية وحاجات فكرية أخرى. فكما أنه لا يوجد حصان بالمعنى الكلي بل نماذج وأفراد من الخيل معينة، كذلك لا وجود للإنفعال بمعنى كلي، بل الموجود أنفعالات خاصة لهامصادر وموضوعات. وكذلك لا يوجد تفكير بمعنى كلي. بل الموجود أنماط معينة من الفكر تتمايز فيما بينها من حيث الغاية والمنهاج.

ونحن نعيش منذ الصغر على قواعد معينة؛ فالشمس تشرق وتغرب، واليوم مقسم إلى فترات للنوم والأكل واللعب والدرس. والمواد كلها تجري على حسب قواعد. وهناك أيضاً قوانين غير قوانين الطبيعة سنها الانسان لينظم أحواله. ولكي تلعب لعبة الحياة من المهد إلى اللحد يجب أن تعرف هذه القواعد وتتبعها. فمسالك الحياة من الازدحام والتدخل بحيث لا تسمح لك بالمضي خلافاً لهذه القواعد. وقواعد الطبيعة هي أهم أنواع القواعد، فإذا أسقطت شيئاً سقط وأن كان هشاً تحطم. ويمكن أن نسمي

ذلك مثلاً لقانون الجاذبية^(*)، ولكن وقائع السقوط والتحطم والصوت هي كل الانطباعات التي تحدث لدى الطفل الصغير. وكلما أسقط الطفل لعبته وأعدتها إليه أسقطها ثانية فتحدث ضجة تثير انتباهه، وهو إذ يمضي في هذه اللعبة يكتشف بالتجربة قاعدة.

إن القاعدة تقرر كيف تحدث الأشياء عموماً، فالقاعدة تدخل عنصر النظام على الأحداث المتفرقة، وأبن الخامسة لا يعرف أشياء متباينة فحسب - كالوقائع والعلاقات التي يحصلها نتيجة للملاحظة - بل يعرف كذلك جانباً من القواعد المتعلقة بسلوك أشياء وحيوانات وأناس، كباراً وصغاراً. وأبن العاشرة لديه حصيلة جيدة من القواعد والقوانين والاطرادات في افق أوسع وعلى مستوى أرفع.

إذاً القواعد تنظم الملاحظات، وبغير عادة تبسيط القواعد أوصياغتها يضل العقل ويصبح العالم فوضى. فالنظام أساسي للكون كالنور. وإذا جمعنا النتائج المتحصلة من الملاحظة، ومع القواعد أو القوانين يكونان الخطوتان الأولى والثانية في مرحلة المقدمات، وحين نخطو خطوة ثالثة، فإننا اذن نفسر أو نعلل، لأننا نفسر الحادث أجابة عن السؤال الذي يدور فيما اذا كنا نرد الحادث إلى هذه القاعدة أو تلك، فنجعل منها حالة أو جزيئة أو مثلاً.

★ ★ ★

أن عنوان الكتاب كبير ويتناول فصولاً متنوعة تحاول أن تبين دلالة قوة الاستدلال سواء أكان ذلك عن طريق العلم البحت أو عن طريق الابحاث الروحية، بيد أن تتبعي لذلك هو عن طريق التحليل النفسي. ومهما كانت المواقف ازاء هذه الروحية، مهما كانت قيمتها،

(*) ادخل مبدأ الجاذبية تفسيراً واحداً على ظواهر شتى، وثبت منه أن للأرض غلافاً جويّاً، وثبت هذا تجريبياً بالطيران ثم العودة إلى الموضع ذاته، وثبت منه أيضاً سبب حدوث الليل والنهار على التوالي، بسبب دوران الأرض حول محورها، وثبت أيضاً تعاقب الفصول لأن الأرض تدور حول الشمس. كما عرفنا تفسير سقوط الأشياء على الأرض لا العكس. وخلاصة القول أن مبدأ الجاذبية هو الذي يفسر لنا عدم سقوط الناس في نصف الكرة الجنوبي عن سطح الأرض.

فأنني اعتبرها ارضاءات بديلة، مع أنها تعتبر في الواقع أوهام، بيد أن ذلك لا يقلل نجوعها من الناحية النفسية، وذلك من جراء الدور الذي يضطلع به التخيل في حياة النفس.

والآراء لا زالت مشتتة بين العلماء فيما اذا كانت ظاهرة التنبؤ، أو التجاوب العقلي عن بعد، أو الوساطة الروحية والاتصال بالارواح، ظواهر حقيقية أو غير حقيقية، حيث لا دقت على أفهامنا، أو علماً قائماً بذاته، لأن هذه المواضيع تتضمن علماً بالرياضيات والفيزياء وعلم النفس، اذا لم نذكر في هذا الصدد كذلك المعرفة الوثيقة بمبادئ الشعوذة ووسائل الدجل.. كل ذلك جعل من مثل هذه المواضيع مثار اهتمام القارئ العربي.

واذا كان الزمن قد تبدل، والمفاهيم قد تطورت وتغيرت وغزتها الحضارة العصرية. فأصبح المنظار العلمي هو السائد لتفسير مختلف الظواهر الانسانية الغريبة، فإن قصة الشياطين وظهور الأرواح البخسة لا تزال سائدة حتى في أرقى المجتمعات، حيث لا تزال هنالك مجموعة كبيرة من الناس تؤمن بوجود الشياطين، وأمكانية تدخل الارواح وتحكمها بمصير الانسان وأن كانت الفكرة السائدة تقول أن الشرقيين يلجأون في تفسيرهم لمختلف الامور الى الماورائيات وتدخل عالم الغيب والاقدار، إلا أن احدث الاحصائيات تثبت أن أنكلترا والولايات المتحدة هما أكثر الدول المتقدمة التي تمارس فيها أعمال الشعوذة وتحضير الارواح أو عملية طرد الشياطين. ويبدو أن الشيطان لا يميز بين مجتمع متخلف وآخر متقدم، وأن الشعوب الامريكية تخشى رهبته تماماً كما تفعل القبائل في غابات أفريقيا.

لقد أتجه الانسان إلى الالهة لإشباع تلك الحاجات العملية التي لم يكن يستطيع أن يوفرها لنفسه، أما الحاجات التي لم يكن يصلي من أجلها فكان في مقدوره إشباعها. وكلما ازداد الانسان فهماً لطبيعة وسيطرة عليها، كان أقل احتياجاً لاستخدام الدين كتفسير علمي، وكوسيلة سحرية للسيطرة على الطبيعة. فإذا

أستطاعت البشرية أن تنتج من الطعام ما يكفي الناس جميعاً، لم تعد في حاجة إلى الصلاة من أجل الخبز اليومي، فذلك شيء يستطيع الإنسان أن يوفره بجهوده الخاصة. وكلما قطع التقدم العلمي أشواطاً إلى الأمام، كانت الحاجة أقل إلى تكليف الدين بمهمة ليست دينية إلا في حدود تاريخية، لا في حدود التجربة الدينية. وقد جعل الدين الغربي هذا الجانب العلمي – السحري جزءاً أصيلاً في عقيدته، وهكذا وضع نفسه في معارضة التطور التقدمي للمعرفة الإنسانية. ولا يصدق هذا القول على أديان الشرق الكبرى، فإن لديها دائماً ميلاً للتفرقة بحدّة بين ذلك الجزء من الدين الذي يتناول الإنسان، وبين تلك الجوانب التي تحاول تفسير الطبيعة. فالأسئلة التي أثارت مجادلات عنيفة في الغرب ودفعت إلى ضروب من الاضطهاد مثل مشكلة هل العالم متناهي أم لا متناهي، هل الكون أزلي أم لا، وغير ذلك من المشاكل المشابهة – هذه الأسئلة قد عالجتها الهندوكية والبوذية في فكاهة رقيقة وسخرية.

فحين كان تلاميذ بوذا يسألونه عن أمثل هذه المسائل كان يجيب دائماً وأبداً (أنا لا أعرف، ولا يهمني أن أعرف، لأنه أياً كانت الإجابة فإنها لاتسهم في المشكلة الوحيدة ذات الأهمية. كيف نخفف العذاب الإنساني).

* * *

قلنا أن عنوان الكتاب كبير وربما لا تكفيه مئات الصفحات، بيد أن دراسة هذا الموضوع، قد تكون فاتحة لدراسات أخرى يسهم بها مثقفينا العرب في تنوير فكر القارئ العربي، فمثل هذه المواضيع قابلة للكثير من الخطل والمزاعم، ويقول فرويد في ذلك أن ((بين الوظائف النفسية يوجد شيء يلزم تمييزه (مقدار العاطفة، ومجموعة الهيجان) أي، شيء له جميع صفات الكمية – بالرغم من أننا لا نملك وسيلة لقياسه – أي شيء قابل للزيادة والاستبدال والتصريف، ويبسط ذاته من آثار ذكرى فكرة ما كشحنة كهربائية فوق سطح الجسم... ويكفي في الوقت الحاضر أن يبرر وجوده بفائدته من

ناحية ربط الظروف النفسية المختلفة وأيضاً لها)).

ولعل من مزايا هذا الكتاب أنه يتيح لنا تقييم الصراعات الدائرة بين أنصار كل من النظرة القديمة والنظرة الجديدة لقوة الاستدلال، ويضعنا في مكان ذي امتياز نطل منه على خطوط المعركة بمكاسبها وخسائرها. بيد أن كتاباً مثل هذا لا يمكن أن ينجو من الوقوع في الخطأ، على الأقل بمعنى أن ما سيجده القارئ فيه لن يتفق مع ما يأمل فيه أو يتوقعه، فالأشياء التي لا تهمه إلا قليلاً سيجدها مدروسة في تطويل غير ضروري والحاح لا مبرر له، بينما سيجد أن نواحي أخرى من الموضوع يرغب في الاستزادة منها عولجت في اختصار أو حذف كلية. وقد اقتضى مني ذلك لأن مثل هذا الاختصار أو الاستزادة قد عالجتها في كتب لي سابقة مثل (الخوارق النفسية) و(التحليل النفسي للمكاشفة الباطنية) ومن خلال كتب أخرى.

وإذا كان لهذه القصة القاصرة التي تناولت (التحليل النفسي لقوة الاستدلال) والتي تأخذ بالخطوط العريضة في بيان ما أعتور قوة الاستدلال من أوهام ومزاعم في ضوء التحليل النفسي - ما زال بسيطاً متواضعاً - أن تحفز القارئ إلى الرجوع إلى الكتب الأكثر توسعاً وتفصيلاً في تاريخ قوة الاستدلال وعلاقة ذلك بعلم النفس فسيرضيني هذا كثيراً، لأنه يمكن تعلم الكثير من كتاب سيء، ولو بإثارة روح النقد التي ستساعد القارئ على البحث عما حذفه المؤلف وعلى استبعاد تحيزاته وتصحيح قصر نظره.

وأرى أن هناك ديناً في عنقي إلى الأخوة غسان ووسيم وسامر عبد الله الذين لولا نقاشاتهم وملاحظاتهم في جلساتنا الفكرية لما كان لهذا العمل أن يكتب. فلهم شكري، وللقارئ العربي الشكر الأكبر.

سمير عبده

ص.ب ٩١٤

دمشق

مدخل إلى الاستدلال

تنشأ الكثير من ألوان العلم الكاذب من التعيين بطريقة أصلية خاطئة للمقدمات وما يليها، وهذا طراز آخر من الخطأ، وأما إرهاب مبدأ صحيح وتحميله ما هو فوق طاقته، فعادة ذهنية توجد غالباً عند من يتبعون مقدمات كاذبة، فإن تجاهل الواضح وأهمال التفسيرات المألوفة والمتبادلة، يحدث خطأ واحداً، كما أن تجاوز حدود الحتمية يحدث الخطأ الآخر. وفي الاعمال والتصرفات ذات الدلالة، وفي الأحلام، وفي سلوكنا عامة يوجد كثير مما لا مفر من عدم تعليله. والنظرة المعقولة إلى مبدأ الحتمية تسلم بهذا الوضع. وتوجه الاسئلة، والأصرار على الظفر بأجوبة دقيقة كل الدقة اذا تجاوزا حداً معروفاً واضح المعالم، لا يعدان علامة حب أستطلاع غير عادي، بل دليلاً على اهتمام غير منظم ولا منسق.

كان أفلاطون ينظر إلى الرياضيات على أنها أسمى صورة للمعرفة. وقد أسهم تأثيره بدور كبير في الرأي الشائع القائل أن المعرفة لا تكون معرفة على الإطلاق أن لم تتخذ صورة رياضية. غير أن العالم الحديث، وأن يكن يتخذ من الرياضيات أداة رئيسة للبحث، لا يقبل هذا الحكم دون قيد أو شرط، وإنما يؤكد أن الملاحظة لا يمكن أغفالها في العلم التجريبي، ويترك للرياضة مهمة إثبات الارتباطات الرياضية مرشداً لكشوف جديدة تعتمد على الملاحظة، غير أنه يعلم أنها لا يمكنها أن تعينه إلا لأنه يبدأ من مادة مستمدة بالملاحظة اللاحقة. فالعلم التجريبي، بالمعنى الحديث لهذه العبارة، يجمع بنجاح بين المنهج الرياضي ومنهج الملاحظة. ونتائجه لا تعد ذات يقين مطلق، بل ذات درجة عالية من الاحتمال، ويمكن الاعتماد عليها بالنسبة إلى جميع الأغراض العملية بقدر كاف وواف.

يبد أن فكرة المعرفة التجريبية كانت خليقة بأن تبدو ممتنعة في نظر أفلاطون. فعندما وحد بين المعرفة وبين المعرفة الرياضية، اراد ان يقول أن الملاحظة لا ينبغي أن يكون لها دور في المعرفة. ولقد قال أحد تلاميذ سقراط في محاوره فيدون (إن الحجج المبنية على الاحتمالات

زائفة). ذلك لأن أفلاطون كان يطلب اليقين، لا الترجيح الاستقرائي الذي ترى الفيزياء الحديثة أنه الهدف الوحيد الذي يمكنه بلوغه.

وإذا كان من المعقول أن اليونانيين لم يكن لديهم علم فيزيائي يمكن مقارنته بعلمنا، وإن أفلاطون لم يكن يعلم مدى ما يمكن تحقيقه عن طريق الجمع بين المنهج الرياضي والتجربة، فمع ذلك، فقد كان هناك علم طبيعي واحد أحرز، حتى في أيام أفلاطون، نجاحاً كبيراً بفضل هذا الجمع، هو علم الفلك. ذلك لأن القوانين الرياضية لدوران النجوم والكواكب كانت قد كشفت، بدرجة كبيرة من الاحكام، بفضل الملاحظة الدقيقة والاستدلال الهندسي. غير أن أفلاطون لم يكن على استعداد للأعتراف بدور الملاحظة في الفلك، وإنما أكد أن الفلك لا يكون علماً إلا بقدر ما تفهم حركات النجوم بـ(العقل والذهن). ففي رأيه أن ملاحظات النجوم لا تنبأ بالكثير عن القوانين الخاصة بدورانها، لأن حركتها الفعلية غير كاملة، ولا تخضع للقوانين خضوعاً دقيقاً. ويقول أفلاطون أن من غير المعقول أن نفترض أن الحركات الحقيقية للنجوم (أزلية لا تتعرض لأي انحراف)، وهو يذكر بوضوح كامل رأيه في الفلكي الذي يعتمد على الملاحظة: (فإذا كان ما يدرسه المرء شيئاً حسيّاً، فإنه سواء تطلع مشدوهاً إلى أعلى، أم خفض عينيه إلى أسفل، فلن تكون هذه معرفة على الإطلاق، إذ لا يمكن أن يكون ثمة علم بالمحسوس، فالنفس في هذه الحالة إنما تنظر إلى أسفل، سواء أكان المرء يدرس وهو راقد على ظهره، أم وهو طاف على الماء). وبدلاً من ملاحظة النجوم، علينا أن نحاول الاهتداء إلى قوانين دورانها بالفكر. فمن واجب الفلكي أن (يترك السماء المحتشدة بالنجوم جانباً)، وأن يخوض موضوعه باستخدام (الجزء العاقل بطبيعته في نفوسنا) - (الجمهورية، الكتاب السابع ٥٢٩ - ٥٣٠). أنه لمن المحال أن نجد كلمات أقوى من هذه تعبر عن رفض العلم التجريبي، وعن الاعتقاد بأن معرفة الطبيعة لا تحتاج إلى ملاحظة، وإنما يمكن بلوغها بالعقل وحده.

أما كيف نفسر هذا الموقف المعادي للتجريبية على أساس نفسي؟ فإن البحث عن اليقين هو الذي يجعل الفيلسوف يتجاهل دور الملاحظة في المعرفة. ولما كان يستهدف معرفة ذات يقين مطلق، فإنه لا يستطيع أن يقبل نتائج الملاحظات. ولما كانت الحجج المبنية على أساس احتمالات حججاً زائفة في نظره، فإنه يتحول إلى الرياضيات بوصفها المصدر المقبول الوحيد للحقيقة. وهكذا فإن المثل الأعلى الذي يتجه إلى صبغ المعرفة بصبغة رياضية كاملة، وإلى جعل الفيزياء من نفس نمط الهندسة والحساب، ينشأ عن الرغبة في الاهتداء إلى يقين مطلق لقوانين الطبيعة، وهو يؤدي إلى ذلك المطلب الممتنع، وأعني به أن ينسى عالم الفيزياء ملاحظاته، وأن يحول عالم الفلك عينيه بعيداً عن النجوم.

تنتمي الى نظرية الاحتمالات دراسة الاستدلال الاستقرائي، ذلك أن كل ما تستطيع الوقائع الملاحظة أن تفعله هو أن تجعل النظرية محتملة أو مرجحة، ولكنها لا تجعلها ذات يقين مطلق أبداً. ومع ذلك، فحتى عندما يعترف باندماج الاستقراء في نظرية الاحتمال على هذا النحو، تنشأ ضروب أخرى من سوء الفهم، اذ ليس من السهل ادراك التركيب المنطقي للاستدلال الاحتمالي الذي نقوم به من أجل تأكيد النظريات بالوقائع. وقد أعتقد بعض المناطق أنهم يجب أن يتصوروا هذا التأكيد على أنه عكس الاستدلال الاستنباطي، ففي استطاعتنا أن نستمد النظرية من الوقائع بالاستقراء. غير أن هذا التفسير مفرط في التبسيط. فلكي نقوم بالاستدلال الاستقرائي. ينبغي أن تشمل معرفتنا على مايزيد بكثير عن العلاقة الاستنباطية من النظرية الى الوقائع.

وتوجد ظاهرة بسيطة توضح التركيب المعقد للاستدلال المؤدي إلى تأكيد النظريات. فمجموعة الوقائع الملاحظة يمكن دائماً أن تدخل في أكثر من نظرية واحدة، وبعبارة أخرى فهناك عدة نظريات يمكن أن تستخلص منها هذه الوقائع. ويستخدم الاستدلال الاستقرائي من أجل إعطاء درجة الاحتمال لكل من هذه النظريات، ثم تقبل أقوى النظريات إحصائياً. ومن الواضح أنه لا بد، من أجل التفرقة بين هذه النظريات من معرفة تتجاوز نطاق العلاقة الاستنباطية بالوقائع، وهي العلاقة التي تسري على كل هذه النظريات.

اما اذا أردنا أن نفهم طبيعة الاستدلال التأكيدي، فعلياً أن ندرس نظرية الاحتمالات. وقد تمكن هذا المبحث الرياضي من وضع طرق تسري على مشكلة الدلالة غير المباشرة في عمومها، وهي المشكلة التي يعد الاستقراء الذي يحقق صحة النظريات العلمية مجرد حالة خاصة منها. ويمكن أن نضرب مثلاً للمشكلة العامة من الاستدلالات التي يقوم بها ضابط المباحث في بحثه عن مرتكب جريمة. فبعض المعطيات تكون موجودة، كمنديل ملوث بالدم، وأزميل، واختفاء أرملة ثرية، وتظهر عدة تفسيرات لما حدث بالفعل. ثم يحاول ضابط المباحث تحديد أقوى التفسيرات احتمالاً، فيسير في أبحاثه تبعاً للقواعد الاحتمالية المقررة، اذ يحاول، مستخدماً كل الشواهد الواقعية وكل معرفته بنفسية الناس، أن يصل الى أستنتاجات، يختبرها بدورها بملاحظات جديدة خططت لهذا الغرض بالذات. ويؤدي كل اختبار، مبني على معطيات جديدة، الى تقوية أو أضعاف احتمال التفسير، ولكن لا يمكن أبداً النظر الى التفسير الذي تم الوصول اليه على أنه يتصف باليقين المطلق. والواقع أن المنطقي الذي يحاول أن يعبر عن الصبغة الاستدلالية التي سار عليها ضابط المباحث، يجد كل العناصر المنطقية اللازمة في حساب الاحتمالات. وعلى الرغم من أنه يفتقر الى المادة الاحصائية اللازمة للحساب الدقيق

للاحتمالات، فإنه يستطيع على الأقل أن يطبق صيغ الحساب بمعنى كفي. وبطبيعة الحال لا يمكن بلوغ النتائج الحسابية الدقيقة، إذا لم تكن المادة المعطاة تسمح بتقديرات احتمالية تقريبية. ونفس هذه الاعتبارات تسري على مناقشة أحوال النظريات العلمية، التي ينبغي أن تختار بدورها من بين عدة تفسيرات ممكنة للمعطيات الملاحظة. ويتم الاختيار باستخدام البناء العام للمعرفة، الذي تبدو بعض التعريفات ازاءه أرجح من بعضها الآخر.

إن العلم يصر على أدماج نظرية الاحتمال في فلسفة لا تضطر إلى الالتجاء إلى المعرفة التركيبية القبلية. وتبنى الفلسفة التجريبية في الاحتمال على التفسير الترددي، فالأحكام الاحتمالية تعبر عن ترددات نسبية للحوادث المتكررة، أي عن ترددات تحسب بوصفها نسبة مئوية من مجموع. وهي تستمد من ترددات لوحظت في الماضي، وتنطوي على افتراض أن نفس الترددات سوف تسري تقريباً في المستقبل. وهي تتكون عن طريق استدلال استقرائي. فإذا نظرنا إلى احتمال ظهور الصورة عند رمي العملة على أنه احتمال النصف، كان معنى ذلك أن الرميات المتكررة للعملة سيؤدي إلى ظهور الصورة في خمسين في المائة من الحالات. وفي هذا التفسير يسهل أيضاً قواعد المراهنة: فالقول أن نسبة خمسين في المائة تعد احتمالاً معقولاً لظهور أي وجه من وجهي العملة عند رميها يعني أن استخدام هذه القاعدة سيؤدي في المدى الطويل إلى أن يتساوى الطرفان المتراهنان في الفوز. ولا شك أن مزايا هذا التفسير واضحة، ولكن ما ينبغي علينا دراسته هو الصعوبات التي يثيرها. والواقع أن التفسير يثير صعوبتين أساسيتين:

الأولى تتعلق باستخدام الاستدلال الاستقرائي. فصحيح أن درجة الاحتمال هي في التفسير الترددي مسألة تجربة وخبرة، لا مسألة عقل، ولو لم تكن قد لاحظنا أننا نصل بمضي الوقت، عند رمي قطعة العملة، إلى تردد متساو للوجهين، لما تحدثنا عن احتمالات متساوية. فليس مبدأ السوية إلا سوء تأويل عقلي لمعرفة اكتسبت من التجربة. ويزكرنا سوء التأويل هذا بمغالطات مماثلة وقع فيها المذهب العقلي، كالتفسير القبلي لقوانين الهندسة، ولبدأ العلية، التي أثبت العلم الحديث بالمثل أنها نتاج للتجربة. غير أن تأكيد أن تردد تكرار الحوادث المتشابهة خاضع لأنماط عددية منظمة، هو أمر لا يمكن إثباته إلا باستخدام الاستدلالات الاستقرائية، ويبدو أنه ينطوي على مبدأ لا يستمد من التجربة. ففيما بين الفلسفة التجريبية وحل مشكلة الاستقراء يقف نقد (هيوم) للاستدلال الاستقرائي، وهو النقد الذي يبين أن الاستقراء ليس قبلياً ولا بعدياً.

أما الصعوبة الثانية في التفسير الترددي فتتعلق بإمكان أنطباق الحكم الاحتمالي على حالة منفردة. فلنفرض أن أحد أقربائي مصاب بمرض خطير، وسألت الطبيب عن احتمال بقاء قريبتي حياً، فأجاب الطبيب أن المريض لا يموت في ٧٥ في المائة من حالات هذا المرض. فكيف يمكن أن ينفعني هذا الحكم الاحتمالي؟ أنه قد يفيد الطبيب، الذي يعالج مرضى كثيرين لأنه يحدد له أية نسبة معوية من مرضاه لن تموت بهذا المرض. غير أن ما يهمني هو هذا الشخص بعينه فحسب، وأود أن أعرف مقدار احتمال نجاته هو ذاته من الموت. وهكذا يبدو أنه لا معنى للتعبير عن احتمال حادث منفرد على أساس النسب الترددية.

رغم هذا وذاك. وإذا ما أجرينا تحليلاً منطقياً، فقد يكون من العادات المفيدة أن نعزو معنى إلى حكم احتمالي متعلق بحادث منفرد، إذا كانت التجربة اليومية تقدم إلينا عدداً من الحالات المماثلة.

ويقتضينا الولوخ إلى المعرفة التنبؤية الاستعانة بمفتاح الترجيح. فالحكم المتعلق بالمستقبل لا يمكن أن يصدر مقترناً بأدعاء أنه صحيح، إذ أننا نستطيع أن نتصور دائماً أن العكس هو الذي سيحدث، وليس هناك ما يضمن لنا أن التجربة المقبلة لن تحقق ما هو اليوم مجرد خيال. هذه الحقيقة ذاتها هي الصخرة التي تحطم عليها كل تفسير عقلاني للمعرفة. فالتنبؤ بالتجارب المقبلة لا يمكن التعبير عنه إلا بمعنى أنه محاولة، وينبغي أن نعمل حساباً لاحتمال كذبه، فإذا أتضح خطأ التنبؤ، كنا على استعداد لمحاولة أخرى. وهكذا فإن طريقة المحاولة والخطأ هي الأداة الوحيدة الموجودة للتنبؤ. والحكم التنبؤي ترجيح، فبدلاً من أن نعرف حقيقته، نعرف نسبته فقط، وهي النسبة التي تقاس على أساس احتمالها.

إن تفسير الاحكام التنبؤية بأنها ترجيحات يحل آخر مشكلة تظل باقية في وجه الفهم التجريبي للمعرفة: وأعني بها مشكلة الاستقراء. فالتجريبية قد أنهارت أمام نقد (هيوم) للاستقراء، لأنها لم تكن قد تحررت من مصادرة أساسية من مصادرات المذهب العقلي، وأعني بها ضرورة البرهنة على صحة كل معرفة. ففي نظر هذا الرأي لا يمكن تبرير المنهج الاستقرائي، إذ لا يوجد دليل على أنه سيؤدي إلى نتائج صحيحة. ولكن الأمر يختلف عندما تعد النتيجة التنبؤية ترجيحاً. ففي ظل هذا التفسير لا تكون في حاجة إلى البرهان على صحتها، وكل ما يمكن أن يطلب هو برهان على أنها ترجيح جيد، أو حتى أفضل ترجيح متوافر لدينا. وهذا برهان يمكن الاتيان به، وبذلك يمكن حل المشكلة الاستقرائية. ويقتضي هذا البرهان مزيداً من البحث، فلا يمكن الاكتفاء في تقديمه بالقول أن النتيجة الاستقرائية لها درجة عالية من الاحتمال، بل أنه يستلزم تحليلاً للمناهج الاحتمالية، وينبغي أن يكن مبنياً على أسس هي ذاتها مستقلة عن هذه المناهج. أي أن تبرير الاستقراء ينبغي أن يقدم خارج مجال نظرية الاحتمالات، لأن هذه النظرية الأخيرة تفترض استخدام الاستقراء.

والبرهان لا بد أن يسبقه بحث رياضي، فحساب الاحتمالات مركب على صورة نظام للبهيات، مشابه لهندسة أقليدس. وهذا التركيب يوضح أن جميع بهيات الاحتمالات هي نظريات رياضية خالصة، وبالتالي أحكام تحليلية، وذلك إذا ما قبلنا التفسير الترددي لفكرة الاحتمال. والنقطة الوحيدة التي يتدخل فيها مبدأ غير تحليلي هي التأكد من درجة الاحتمال، عن طريق استدلال استقرائي. فنحن نجد تردداً نسبياً معيناً لسلسلة من الحوادث الملاحظة، ونفترض أن نفس التردد سوف يسري كما هو تقريباً على بقية السلسلة هذا هو المبدأ التركيبي الوحيد الذي يبنى عليه تطبيق حساب الاحتمالات. ولهذه النتيجة أهمية عظيمة. فمن الممكن التعبير عن الصور المتعددة للاستقراء، وضمناها المنهج الفرضي الاستنباطي، من خلال مناهج استنباطية، مع إضافة الاستقراء العددي وحده. وأن منهج البهيات ليقدم إلينا الدليل على أن الرياضي في عصرنا يثبت ما كان (هيوم) يأخذه قضية مسلماً بها.

إذا كان هناك نوعاً معيناً من العقلية يسعى إلى البحث عن أسئلة لا يمكن الإجابة عنها، فإن الرغبة في إثبات أن للعلم قدرة محدودة، وأن أسسه النهائية تعتمد على نوع من الايمان لا على المعرفة، هي رغبة يمكن تفسيرها على أساس علم النفس، ولكنها لا تجد تأييداً من المنطق. فهناك علماء يشعرون بالفخر عندما تنتهي محاضراتهم عن التطور بدليل مزعوم على أنه ستبقى هناك أسئلة يعجز العالم عن الإجابة عليها. وكثيراً ما يستشهد الناس بآراء هؤلاء العلماء بوصفها دليلاً على هدم كفاية الفلسفة العلمية. ومع ذلك فكل ما تثبته هذه الآراء تدعو إلى الاستسلام لنوع من الايمان. أما من كانت الحقيقة ضالته المنشودة فعليه ألا يستسلم لتحذير الاعتقادات المسلم بها، حتى لا تهدأ في نفسه سورة البحث، ذلك لأن العلم سيد نفسه، وهو لا يعترف بسلطة تخرج عن دائرته.

لقد شحن الهواء في هذا الزمان حرفياً ومجازياً بأفكار جديدة، ونظريات لم تثبت بدليل حاسم، وتنبؤات مثيرة. ولم يعد في الامكان أن تجمع رأيك على قرار مرة واحدة ثم تدعه مستقراً مدى الحياة. فالعقل في يومنا هذا أصبح أكثر مما كان آنفاً أداة، وهذه الاداة ينبغي أن نحفظ عليها حدتها ولمعانها بدوام استخدامها في عناية وحرص. ولم يعد التفكير احتكاراً يسيطر عليه حفنة من رأسمالي الذهن، بل هو اليوم امتياز وواجب على الكثرة الغالبة من البشر.

إن الصحة وليدة الحياة الرشيدة، والحق وليد التفكير الرشيد. وهذا قول هين على اللسان، بيد أنه عسير حين التطبيق. فأينما ولينا وجهنا وجدنا عقولنا وقد سمحتها الصحف الصفراء،

ودعاة المذاهب، وأدعياء الطب الاجتماعي، وأدعياء الفنون النفسية، وما إلى ذلك من مستحدثات هذا الزمان. وأعظم من هذا وذاك خطراً ما يتهددنا به تأرجح المزاعم والأهواء وما يأخذ بخناقنا ويحشم علينا من الجهل، وما يطيش بنا من رخاوة العواطف.

والتفكير بالمعنى العام نقوم به جميعنا عن طريق الموهبة الفطرية وبتعرضنا لما يشير تلك الموهبة إلى النشاط والعمل فإن على كل منا أن ينافح في سبيل اللقمة مهما كانت الظروف. ووجود ملكة التفكير لدينا معناه وجود النزعة إلى استخدامها، ولكن وجود النزعة ليس معناه نشاطها المستمر تلقائياً.

إننا لو تركنا لأنفسنا لأكتفى الكثيرون منا بترك أنفسهم للتيار العام يفعلون مايفعله الآخرون ويرددون أقوالهم وكفى. أما التفكير السديد فيقضي جهداً وتوجيهاً للتيار الطبيعي للعمليات الذهنية نحو هدف معين محدد تحديداً واضحاً.

إن التفكير هو أنكباب العقل على مشكلة تحتاج إلى نشاط تعاوني منظم لطائفة من الأفكار، والنموذج الأول لمثل هذا التفكير نجده متخذاً على الخصوص صورة فعل أو عمل، وعمل الأشياء عن تدبر فكري وأهتمام ونية هو التركيز.

والسياق الصحيح للتفكير السليم يتقدم على أساس من التحسين في طريقة التفكير أو فنيته، وهو يعترف بالعقبات النفسية أو العراقيل ويتخطاها، فتزداد الفطنة والقدرة على البناء العقلي مما يجعل معتقدات الناس العامة التي يعيشون بها فعلاً أمتن بنياناً وأصلب عوداً. بيد أن هذا التقدم غير مطرد، وفي كل مرحلة من مراحل يقوم الاختصاص والخلاف، وهذا لا يدل على تهافت المنهج المنطقي في العمل، بل يدل على أن مجالات المعرفة الانسانية تزداد سعة وتشعباً، وتزداد بالتبعية مشكلات الناس تعقيداً، فتختلف فيها الآراء باختلاف المعرفة أو باختلاف الأهواء. وكل استزادة من المهارة المنطقية تعود بالفائدة على تفكير الناس وتقلل مدى الخلافات بينهم، وتخفف الاختصاص.

الاستدلال عن غير طريق الحواس

ينشد الانسان العربي الحديث الحرية والاصالة ويريد أن يفكر بذهنية علمية منفتحة على المستقبل، في حين أنه لا يزال متأثراً بترسبات عصور الجهل والانحطاط وسجين ذهنية اسطورية منغلقة. وأبرز مظاهر هذه المأساة، تعطل ملكة الحكم الصحيح، والاستعداد الموروث لقبول الافكار والآراء والاختبار من غير تحكيم العقل أو المنطق، أو أبسط الحقائق العلمية في هذه الافكار والآراء والاختبار، سواء أكان مصدرها المجتمع أو البيئة، أو كتاب أجنبي مضلل.

فالبعض يبنّي اعتقاده بوجود ظواهر لا علمية، على العلم نفسه، أي أنهم يملكون قوة الاستدلال عن غير طريق الحواس، وأنهم يشكلون الطبيعة المتفوقة بالنسبة للجنس البشري الآتي، أي أنهم أوائل من يحمل في جسده هذه الطاقة الجديدة الخلاقة وسيأتي بعدهم كثيرون مثلهم يستخدمون هذه القوة غير العادية.

أنا على أقل تقدير نريد أن نفهم ما هو هذا (العلم الذي يقول)، ما هو موضوعه وما هي طبيعته وفي أي كتاب علمي قرأت هذا القول؟ ومن هو هذا العالم الذي طلع بهذه النظرية وبهذا الاكتشاف؟ وعلى أية حقائق ومستندات علمية أرتكزت فقررت مثل هذا القرار الخطير؟ ونريد أن نفهم ثانياً ما هو المقصود بالاستدلال عن غير طريق الحواس؟ ونريد أن نعرف ثالثاً ثمار هذا الادراك على صعيد المعرفة النظرية وعلى صعيد الممارسة الحياتية، ونريد أن يذكر لنا رابعاً، أسماء هؤلاء العباقرة المتفوقين، الذين بدأت الطبيعة تنتجهم في هذا العصر، طالما أنها تؤمن بوجودهم؟ ونريد أن يذكر لنا الاسس والمبادئ الجديدة التي أقيمت لبناء معرفة جديدة؟ وإذا كان هؤلاء يشكلون الطبيعة المتفوقة حقاً فينبغي أن يسمع بهم العالم وأن يعرف عن ظواهر ادراكهم شيئاً وينبغي أن تستعين بهم الشعوب والأمم في سبيل تطوير الحياة والمعرفة.

إن غاية العلم هي الكشف عن العلاقات الثابتة التي تخضع لها ظواهر الطبيعة، فهو يقتضي الاعتقاد بأن جميع الظواهر خاضعة لقوانين طبيعية وأنها مقيدة بشروط معينة، حسب

مبدأ هو مبدأ الحتمية الثابت بثبوت النواميس الطبيعية، فقانون الجاذبية مثلاً، موجود وساري المفعول منذ بدء التكوين وحتى الابد، سواء أدركه البشر أو لم يدركوه، وأنه من المستحيل أن يوجد أنسان يمشي في الهواء لأن في ذلك خرقاً لقانون الجاذبية، الذي هو قانون طبيعي ثابت وكذلك، بالنسبة لبقية القوانين.

يقول كلود برنار: (يجب علينا أن نؤمن بالعلم، أي أن نؤمن بخضوع الحوادث الطبيعية لعلاقات مطلقة وضرورية) ويقول أيضاً: (إذا صادفت حادثة متناقضة الظواهر بحيث لا يمكن ربطها ربطاً ضرورياً باحدى شرائط الوجود المعينة، فلا تتأخر عن تكذيبها لأن العقل يرد هذه الحادثة ويعدها غير علمية). وهكذا نفهم أن العلم لا يقر إطلاقاً الاستدلال عن غير طريق الحواس، والانسان ذي الحس الفائق، لأنها ليست في مجال بحثه الاختباري التجريبي. ولا يكفي البعض أن يجعلنا نعتقد أنه مع العلم فنسند إليه الشواهد الخطيرة الكاذبة ونقف على منتهى ما توصل إليه العلم وما يستشفه من آفاق مستقبلية، فإذا هو يضع آماله وآمال البشرية الاتية في تلك القوة السرية الخرافية، فهو أيضاً، على نفس المستوى من العلاقة مع الفلسفة، فنقول عن هذه القوى (لماذا هي لا تدهش فلاسفة الشرق الاقصى الذين يقولون أن في داخل كل أنسان قوة لو أكتشفها لفعل بها المستحيل؟).

إن أشهر فلاسفة الشرق الاقصى بوذا وكونفوشيوس وزرادشت.. هؤلاء (الدراويش) لم يقولوا بوجود تلك القوة السرية الموجودة في داخل كل انسان. ثم أن علم النفس في اخر ما توصل إليه من بحوث واختبارات وكشوف لم يقل بوجود تلك القوة. وكذلك التاريخ لم يذكر لنا، أنه حدث في وقت ما، أن وجد انسان ما، أكتشف في نفسه تلك القوة وعمل بها ما صنعه الحداد.

والذين يكتبون في مثل هذه المواضيع لا يذكرون لنا مصدراً علمياً أو فلسفياً أو تاريخياً يدعم رأيهم، ومع ذلك، فهم يعتقدون أن (العلم يقول) وأن (فلاسفة الشرق الاقصى يقولون..) ألخ. أننا لنسألهم عن مصدر معلوماتهم الثمينة التي لا مثيل لها في ألف ليلة وليلة، وهل هناك (يوغيون) في العالم استطاعوا أن يقوموا بالأعمال التي ذكروها؟ وهل حدث ووجد في التاريخ رجلاً كان يترك جسده عند أصدقائه ويذهب للنزهة بين الكواكب؟ أن هذه التصورات الخرافية البالغة حدها النهائي في الخرافة والغباء شبيهة بقصص سوبرمان وطائر الفضاء.

وفي فصول كتابنا هذا تطرقنا إلى موضوع التنبؤ بالمستقبل وهو ليس أمراً مستحيلاً ومقتصراً على اليوغيني (أي من يمارس اليوغا).

والاستدلال من غير طريق الحواس هو معجزة، والمعجزة كما يحكي عنها القرآن والإنجيل هي خرق لقوانين الطبيعة بقصد البرهان الحسي على وجود قوة روحية علما تسيطر على الكون، هي قوة الله! والمعجزة هي بالأصل تابلل على وجود الله بالبراهين الحسية لأن البشر كانوا يطلبون دائماً من الأنبياء أن يضعوا أمامهم آية تدل على أنهم مرسلون من نذن الله، وأنهم ليسوا سحرة، والمباراة الكبرى التي حصلت بين موسى والسحرة كانت من هذا النوع. ولو كان هناك أنسان واحد يتمتع بحس فائق في عهد أحد الانبياء مثلاً، لعرقل جميع مشاريعه، وكان يستطيع وبكل سهولة أن يقنع الناس أنه أيضاً من الانبياء طالما أن برهان الأنبياء هو معجزاتهم، والانسان الذي يكون استدلاله عن غير طريق الحواس أقدر من النبي على صنع المعجزات باعتبار أنه يملك قوة صنع المعجزات في أي وقت يشاء بينما النبي لا يملك هذه القدرة، ولكانت الغلبة كاملة لصالح الاستدلال عن غير طريق الحواس.

* * *

يمكن ان نشبه الباراسيكولوجي بالاشعة تحت الحمراء، فنحن لا نراها بالعين المجردة ولكن نستطيع أن نراها بمنظير مختلفة، أذن العالم به أشياء محيرة جداً ولكن الانسان محدود بأجهزة لها مدى معين.

يبد أنه توجد قدرات في بعض الافراد تفوق الافراد الاخرين تماماً كما توجد قدرات فنية وذكائية كذلك توجد قدرات التي نسميها ما فوق النفسية ومن أمثلة ذلك توارد الافكار والشفافية ونقل الجماد بواسطة الفكرة، ويوجد معامل حتى في الاتحاد السوفيتي ولكن أتضح من الابحاث أنه لايمكن تدريب الانسان على ذلك. وعلمياً ممكن تغيير هذه الظواهر، فإذا اعتبرنا المخ جهاز ارسال واستقبال، والمخ مهياً لأستقبال فكرة والفكرة ما هي إلا موجة كهربائية وأقرب شيء لذلك الأم النائمة عندما يحدث حادث لأبنها تقوم فزعة من نومها وتشعر أن أبنها أصيب بشيء، فجهاز الاستقبال لدى الام مستعد لأستقبال أية إشارة والابن عندما أصيب بالحادث فكر في أمه فانتقلت الفكرة وعندما نستمع مثلاً إلى محطة اذاعية ما فنحن نلتقط موجات واذا قارنا المذياع مثلاً بالمخ فهو شيء في غاية الضالة بالنسبة للمخ.

وعلى سبيل المثال قامت مباحث واسعة النطاق لأدراك كنه تلك الحاسة الغريبة التي يتمكن المكفوف والاصم بواسطتها من الاستعاضة عن حاستي البصر والسمع - تلك الحاسة التي يسميها بعضهم (الحاسة السادسة) ويسميها غيرهم (الحاسة المعوضة). ومن ذلك ما رواه واحد ممن يوثق بصدقهم وهو أن رجلاً كفيفاً من متخرجي معهد بركنس الامريكي للمكفوفين يدعى (بنسون) ركب ذات ليلة قطار السكة الحديدية راجعاً إلى بلدته، ولما وصل القطار إلى

المحطة التي يجب ان ينزل فيها نزل وسار إلى بيته ماراً ببلاد ريفية، وظل يسير ستة أميال في وسط الحقول حتى وصل إلى بيته من دون أن يستدل عليه من عابر سبيل.

وروت سيدة من أهالي ولاية كونكتكوت أن عمها كان صياداً وأصيب بالعمى ومع ذلك ظل يمارس مهنته فيخرج بالقرب وحده ويتعد عدة أميال عن الشاطئ حتى في الليل ثم يعود إلى المكان الذي أطلع منه.

ووصف أحد الطلبة المكفوفين القوة الغامضة التي يستعين بها المكفوف على معرفة اتجاهه وتلافي العثرات في أثناء سيره فقال (أنها قوة كامنة توجد في كل أنسان وبواسطتها يميز الأشياء ولو لم يستعمل حاستي البصر واللمس. وأن الأشياء غير العاقلة تنبعث منها مؤثرات غامضة يعرفها الجسم ويعمل بموجبها). وقال أحد المكفوفين (إذا سرت في الطريق فأني أسمع ((صوت)) الشجرة أو عمود المصباح أو ما إلى ذلك فكأن لتلك الشجرة أو لذلك العمود صوتاً خفيفاً ينبهني على الخطر ويحذرنى أياه. فتقبض عضلات وجهي وتظل منقبضة ما دمت في منطقة الخطر فإذا خرجت منها زال ذلك الانقباض).

إن هذه القوة الغامضة التي يتمتع بها الأعمى هي حقيقة علمية معروفة. وقد روى العلماء أمثلة كثيرة تؤيدها. وروى أحد الصحفيين الأمريكيين أن رجلاً من أهالي مدينة بلونشيل يدعى بارجر وقد ولد أعمى كان يتاجر بالخيل، وكان لشدة ممارسته هذه التجارة يعرف وقع حوافر كل حصان في بلدته، فكان إذا أقدم الفلاحون راكبين خيلهم يخاطب كل فلاح بأسمه قبل أن يفاتحه هذا بكلمة إذا كان يعرف الفلاح من وقع حوافر حصانه، وليس ذلك فقط بل كان إذا وضع يده على الحصان عرف عنه من الصفات ما قد يخفي على المبصر.

وأغرب منه كفيف آخر يدعى هو كس كان يستطيع معرفة لون الحصان من امرار أصابعه على جلده. وقد علل بعضهم هذه الحاسة الغريبة بقولهم أن بعض الألوان تجعل شعر الحصان ليناً أو خشناً وأن حاسة اللمس - كغيرها من الحواس - تستدق بحيث يستطيع الأعمى بواسطتها أن يميز بين الألوان.

وفي أواسط القرن الثامن عشر أشتهر في بلدة دمفريز باسكوتلندا رجل مكفوف يدعى ويلسون كان يحمل أعمدة طويلة من الخشب أفقياً على كتفه ويسير بها في شوارع البلدة الضيقة بسرعة مدهشة وهو يتلافى المارة بخفة ورشاقة عظيمنتين فلا يمس أحد كأنه رجل مبصر، وكان هذا الرجل يعيش منفرداً وكانت غرفة نومه مرتبة ترتيباً يدل على كثير من حسن الذوق.

ويقول أحد الثقات في مسائل العميان ((أن هنالك أشياء يظهر فيها بعض المنكويين بفقد البصر مقدرة فائقة يتعذر تعليلها وهي أدعى الى الدهشة من تمييز الألوان عن طريق لمسها، فمن ذلك أن بعض المكفوفين يستطيعون سلك الخيط في الابرة بأن يضعوا طرف الخيط على اللسان ويضعوا الى جانبه طرف الابرة (من جهة سمها) وبذلك يتمكنون من سلك الخيط في الابرة. ومنهم من يستطيع اصلاح بعض الآلات الدقيقة - كالساعة وآلة الكتابة وغيرها - بأن يستبدل بعض الاجزاء الدقيقة بغيرها. وبعضهم يستطيع أن يمر يده على صفحة اعتيادية مطبوعة فيعلم تماماً أين تكون الكتابة وأين يكون الفراغ ويستطيع أيضاً أمرار أصابع يده على هامش تلك الصفحة الأبيض حيث لا توجد أية كتابة)).

ان أمثال الاعمال المدهشة التي أشرنا اليها معروفة عند الكثيرين وبعضهم يأبى أن يعللها بوجود (الحاسة السادسة) في الانسان لأن في استطاعة أي انسان أن يكتسبها بطول الممارسة والاختبار، وهي من قبيل الخبرة التي يكتسبها (متذوقو) الخمر أو الدخان اذ يستطيعون أن يميزوا بين اصناف الخمر أو الدخان. وطائفة (المتذوقين) في بعض البلدان يربحون الاموال الوفيرة.

فيما يعلل بعض العلماء قدرة الرجل الكفيف على السير في طريقه بقوة كامنة يسمونها (الذاكرة العضلية). فالكفيف قد يستطيع السير في طريق غير مألوف مسترشداً بتقلص عضلات وجهه وجسمه أو بتمدددها وبذكريات مرتبطة بذلك التمدد أو التقلص.

* * *

ويختلط الشعور بالنسبة لما يسمى الشعور عن بعد، فالبعض يعده من قبيل أنتقال الافكار لكنه يحصل على مسافات بعيدة، كما أن هناك حوادث تحصل عفواً كأن يشعر شخص في ساعة معينة بانقباض أو بميل الى البكاء وهو لا يدري لذلك سبباً ثم يجد بعد مدة أن في تلك الساعة نفسها مات له عزيز بعيد عنه أو كان في حالة خطرة، والحوادث من هذا النوع غير قليلة.

وربما كانت جمعية المباحث النفسية البريطانية هي إحدى المؤسسات التي خلطت بين (علمية) علم النفس و(غيبيات) هذا العلم، والفكرة التي راجت بين أعضاء هذه الجمعية الاعتقاد الجازم بالاستدلال من غير طريق الحواس. وتذكر إحدى نشرات هذه الجمعية حادث جرى بين سيدتين انكليزيتين من أعضائها أسماهما .يلز ورامسدون: أتفقت هاتان السيدتان على تعيين ساعة في كل يوم تنصرف الأولى فيها الى إرسال بعض الافكار لصديقتها والثانية تتفرغ لأستقبالها وهما على مسافة عشرين ميلاً، وأتفقتا أيضاً أن تدون السيدة رامسدون يومياً

ما يصل إليها من الأفكار التي أرادت نقلها في دفتر مخصوص مع ذكر أحوالها الشخصية وقتئذ. فلما كان يصلها كتاب السيدة ميلز النبي بما شعرت به كانت تحتب محتوياته ازاء مذكراتها الشخصية لأجل المقابلة فكانت المذكرتان في الغالب متفقتين.

إن خطورة هذه الظواهر تزداد اذا ما كانت مركبة. مثلاً، معنوه (يركبه عفريت) يقطن بيتاً مسكوناً بالاشباح، فالخسائر في مثل هذه الحال تكون فادحة.

يبد أنه تحدث أحياناً حوادث غامضة تنسب بسبب غموضها من جهة وبسبب طبيعتها من جهة أخرى إلى العفاريات، لأن تفسيرها المنطقي كان متعذراً على (البشر العاديين). فأحد هذه الحوادث المشهورة وقع في مدينة باريس سنة ١٨٤٥ حيث كانت السلطات حينذاك تقوم بعمليات هدم بين السوربون والبانتيون عندما وصل الهادمون إلى مكان تعذرت مواصلة العمل فيه .. يومها نشرت صحيفة (لاغازيت دي تريون) مجلة المحاكم . في الثاني من شهر شباط ١٨٤٦ وصفاً للحدث قالت فيه: (كان يوجد في مكان الهدم بيت يملكه تاجر خشب من طابق واحد. هذا البيت الذي يفصله من ورشة الهدم حاجز عريض كان يضم جدار المدينة القديم، كان يتعرض كل ليلة لسيل من القذائف تسبب خسائر كبيرة بسبب حجمها وعنفها، إلا أن البيت أصيب بثقوب عديدة وتحطمت نوافذه وأبوابه). والجدير بالذكر أن حجم القذائف والمسافة التي تنطلق منها يستبعدان إمكان قيام (أيد بشرية) بمثل هذا العمل، (وهذا ما يؤكد مصداقية القصة).

ويتابع راوي الخبر أنه رغم رقابة الشرطة وكلاب الحراسة، تعذر الاهتداء إلى المعتدين. وقد أجرى السيد دي ميرفيل تحقيقاً تبين بنتيجته أن حجارة مسطحة كانت تدخل من فجوات النوافذ إلى داخل الغرف فتسبب دعر صاحب البيت. وعدا ظاهرة الاعتداء الخارجي، كان ثمة ضجيج متعدد الاشكال، مثل القرع العنيف الذي يبدو أحياناً من فعل جبار، والخفيف البسيط والركض السريع، وسحب الاثاث، ووقع الخطوات، والصياح والزمجرة وغيرها، كذلك كانت الابواب والنوافذ تفتح بعنف وكان الاثاث يطير ويسحق على الجدار أو على الأرض!!

وحظ فرنسا من هذه (الخرفانات) كبير، فبين اعوام ١٩٢٥ - ١٩٥٠ عرفت هذه البلاد وحدها ٣٧ تحقيقاً رسمياً حول حوادث من هذا النوع، انما دون نتيجة. ويبدو أن جان باتيست ماري فياني ١٧٨٧ - ١٨٥٩ قسيس مدينة آرس المشهور، قد اختير ضحية للظواهر غير الطبيعية التي عذبه سنوات عديدة ابتداء من سنة ١٨٢٤ في حين أن المعروف أن مثل هذه الظواهر تكون عادة قصيرة الامد. وفي حالة القسيس، كان من البدهي أن ينسب الامر إلى

الشیطان، ولا سيما أن بیت القسیس تحول إلى حلبة لعبت رهیب يتمثل فی اصطدامات تحدث ضجیجاً لا یمكن تصوّره. وفی بعض اللیالی، كانت ستائر سریر القسیس تنتزع وتلقى خارجاً.

أما شارل ریشیه فهو (عالم) ولكنه یؤمن بالاستدلال عن غیر طریق الحواس، وقد حفلت مذكراته بكثير من هذه الحوادث (الغامضة). ومما یرویه عن (جول) المستشار الوطنی فی مدینة نیدلسدروف أن بیته ظل خلال ۱۲ یوماً من ۱۵ إلى ۲۷ آب ۱۸۶۲ مسرحاً لظواهر غامضة. كانت الموائد والمقاعد تنقلب فجأة، وضجیج رهیب یهز البیت من عالیه إلى أسفله، كما لو كانت هناك عشرات المطارق تعمل معاً. وكانت الصور و غیرها تنتزع عن الجدران وتسقط علی الارض، كما كانت اللوحات تقلب بحیث یصبح وجهها إلى الحائط، وكانت الاحجار تتساقط من کل جانب رغم أغلاق الابواب والنوافذ، ثم توالى الحوادث الغریبة أثناء النهار لمدة ستة أسابيع مع صیحات وموسیقی وغناء، وتقلید لصوت تكسیر الخشب، وأملاء الساعات.

من القصص الأخری فی هذا الشأن حادثة وقعت عام ۱۹۰۸ وكانت ضحيتها اسرة یدیر ربها مصنعاً للأثاث فی (لوفان). لقد بدأت الحادثة بسریر یفسد توضییه باستمرار، فتشكو الخادمة من ذلك، لكن صاحب البیت یسخر منها، فتؤكد أن البیت مسكون، لكن الرجل یرفض أن یصدق. ولما عجزت الخادمة عن أقناعه، وضبت السریر وخرجت من الغرفة، فتوجه الرجل إلى غرفة مجاورة لتنظیم ثیابه، فإذا به یشاهد فی المرآة ملءات السریر فی الغرفة الأخری تتطاير وتسقط أرضاً، فأصیب بالذعر، وأندفع إلى الخارج لا یلوي علی شیء. بعد بضعة ایام وجد فی نفسه الشجاعة لیروي علی عماله ما جرى، ثم لیجری تفتیشاً جماعياً لكل یحیط بالبیت، وللبیت نفسه. مع ذلك بعد إعادة ترتیب السریر طارت الملاءات والمخدات وسقطت أرضاً، هنا لم یجد الرجل مفرأ من استدعاء القسیس الذی راح یتلو الصلوات لكن هذا لم یجد شیئاً. وقد سئلت الخادمة عما اذا كانت تجد الجرأة لتنام علی هذا السریر، فأجابت بالإیجاب إلا أنها ما كادت تستلقي علیه حتی راحت تصیح: (لقد جاءوا.. لقد جاءوا..). وعندما وصل من فی البیت إليها وجدوها ملقاة علی الارض مع کل ما علی السریر. وأستدعی رجال الشرطة، فلم یعثروا علی شیء، إنما تفاقم الحوادث الغامضة. فقد بدأت الابواب الداخلية تغلق ومفاتیحها تختفی. ومرة أضطر رب البیت إلى تحطیم أحد الابواب لیخرج زائراً جاء لزیارته. وفی یوم آخر سقطت مفاتیح الابواب کلها دفعة واحدة علی رأس الخادمة أثناء نزولها إلى القبو. وقد أستمر هذا الوضع خمسة أسابيع، ثم بدأ یتراجع بالتدریج حتی توقف نهائياً دون أن یتوصل أحد إلى تفسیر منطقی لما حدث.. بعضهم نسب الامر إلى زوجة صاحب البیت المتوفاة.

ورواية أخرى تقول أنه حدث في القرن الخامس عشر أن بيت (الكسندرو) سكنته روح شريرة يصفها الكسندرو بقوله: (كان البيت يمتلئ فجأة بزمجرة رهيبية تشمل الغرف كلها، لكن عندما تقترب من البيت حاملين النور نشعر بوقع خطوات هاربة. ذات ليلة انزلق الشبح تحت سريري. ولما كنت أرى الباب لا يزال مغلقاً فقد صلمت على ألا أصدق ما أسمع، لكن فجأة رأيت يد الشبح تمتد من تحت السرير وتطفئ نور الغرفة. بعد أطفاء النور بدأ الشبح يقلب رفوف الكتب وكل ما في الغرفة وهو يصدر أصواتاً تجمد أطرافنا لأن الأصوات الحادة أيقظت كل من في البيت. وقد كان النور مضاء في الغرفة التي تجاور غرفتي، لذا شاهدنا خيال الشبح وهو يفتح بابها ويفر منها. الشيء المدهش في هذا كله هو أن أحداً لم ير الشبح سواي، رغم أنهم جميعاً كانوا يحملون الأنوار في أيديهم.

في جزيرة جاوة يسمى هذا النوع من الأشباح (غوينوارنا)، وقد سمع حاكم الجزيرة ذات يوم عن كوخ تنهال الحجارة عليه، فأمر بتطويقه برجال الشرطة، وبعد تنفيذ الأمر دخل إلى الكوخ فتلقى فوراً دفعة من الحجارة وجهت إلى صدره مباشرة. ووقع حادث مماثل في (سومطرة) عام ١٩٠٦ حيث كان يقطن ساكن أجنبي يدعى غروتنديك في بيت صغير مع خادمه، وأثناء الليل أحس بالحجارة تتساقط عليه، ولما فتح عينيه لم يصدق ما رأى، فقد كانت الحجارة تهبط ببطء، كما لو أنها معروضة على شاشة سينمائية بطريقة التصوير السريع الذي يظهر الحركة ببطء. وقد أرسل الرجل خادمه ليتفقد ما حول البيت فلم يجد شيئاً، فأضطر إلى إطلاق النار من مسدسه، لكن تساقط الحجارة بقي مستمراً وهرب الخادم مذعوراً.

يروي أميل تيزاني في كتاب له عنوانه (وراء الرجل المجهول) بعضاً من تحقيقاته أثناء عمله في سلك الدرك الفرنسي. وقد وضع الكاتب لائحة للحوادث الخارقة التي حقق فيها، وخاصة تساقط الحجارة، ورجع في بحثه إلى العصور القديمة، عندما (أمطرت السماء) حجارة سنة ٥٥٠. على بيت (هيلبيوس) طبيب (تيري) ابن الملك مكوفيس، وعندما ظلت الحجارة تنهال ثلاثة أيام متوالية على الغرفة التي كان أمبراطور بيزنطة قسطنطين السابع يحتضر فيها سنة ٩٥٩. ثم روى تفاصيل الحوادث التي وقعت في مختلف بلدان العالم في النصف الأول من القرن العشرين، وقال أن العلماء والشرطة ورجال الدين والمؤرخين والصحف توافروا على دراسة هذه الظواهر دون أن يتوصلوا إلى تعليل منطقي لها.

ويسرد بعد هذا العرض السيد تيزاني اعتماداً على معلوماته الخاصة وتحقيقاته الرسمية، حادثاً نموذجياً قال أنه وقع في بيت السيدة (أ) نتيجة لعمل غير واع أقدمت عليه أبتتها الصغيرة البالغة الخامسة عشرة من عمرها. ويبدأ الحادث عندما قدمت السيدة شكوى إلى دائرة

الشرطة، تقول فيها أن ملاءات السرير كانت تشد وتتصلب، ثم تصبح لينة وتتساقط أرضاً، وأن الستارة حول السرير تطول بمعدل ٢٥ سنتيمتراً لتلمس الأرض ثم تصبح صلبة كالخشب. وأضافت السيدة، أنها قفزت وأستقرت على مقعد جانب السرير. ثم سمعت صوت صدمة، وشاهدت مزهرية موضوعة على مائدة صغيرة تبعد عن المائدة، وكانت هي وحفيدتها على مسافة بضعة أمتار منها. وقال شاهد آخر، أنه رأى نحو كيلو غرام من السكر يتساقط من فوهة كيس على الأرض دون أن يمس أحد وعلى مسافة مترين من الأم وحفيدتها. أما في اليوم التالي فقد أبلغت السيدة أن حفيدتها لا تستطيع الجلوس على مقعدها، فأرسل شرطي إلى البيت لمعرفة السبب فقرر أنه شاهد أربع مرات على التوالي المقعد يرتفع عن الأرض، ويقذف الفتاة أرضاً. (كما لو أن ذراعين غير مرئيتين كانتا تسيطران على المقعد). كذلك شاهد الشرطي حداثاً نسائياً موضوعاً على رف يرتفع ٢٥٠ سنتيمتراً عن الأرض يطير من على الرف ويجتاز الغرفة ويسقط على السرير. وشاهد أيضاً سكيناً تسقط على أرض الغرفة تحت المائدة، وكرة من السلك الحديد تسقط قرب السرير. يومها تلقى أميل تيزاني، وكان ضابطاً في الشرطة برتبة نقيب أذنأً بقضاء ليلة في بيت السيدة الشاكية. فلاحظ أثناء الليل أن تيار هواء بارداً عصف في الغرفة رغم إغلاق الباب والنوافذ، وأن شيئاً ما كاد أن يلامس الضابط قبل أن يسقط على مسافة أربعة أمتار من وراء السرير. ولما تفحص هذا الشيء وجد أنه عبارة عن طاحونة قهوة طارت من المطبخ.

وفي ذلك طلب الضابط من الفتاة أن يبقى معها فقط حول المائدة المستديرة. وأغلق قفل الباب بالمفتاح؛ لكن بعد قليل، تحطم المصباح المعلق فوق رأسيهما بتأثير وعاء معدني طار من المطبخ وأصطدم به. وبعد حوالي أربع ساعات نهض الضابط، وأبتعد يبصره بضع لحظات عن الفتاة، فإذا بها تمسك بزجاجة وتحاول أن تضرب بها جدتها. ولما سئلت الفتاة عن السبب أجابت: (شيء ما كان يأمرني بأن أمسك الزجاجة وأن أحطمها على رأس جدتي. ولما نظر الضابط إلي، أمرني هذا الشيء نفسه بإعادة الزجاجة إلى حيث كانت). وبعد نوم السيدة وحفيدتها، لاحظ الضابط أن الفتاة تمر بأظافر يديها على خشب السرير لتوهم بوجود ظاهرة جديدة، كذلك تظاهرت بالسقوط على الأرض.

حين جاء زوج السيدة (أي جد الفتاة) في اليوم التالي، أصيب بالذعر، حيث أرتفع معطفه الذي وضعه على حاجز السلم، وأتجه إلى السرير دون أن يلمسه أحد. فقال الرجل لزوجته فوراً: أذهبي من هنا، كل شيء سيتحطم من جديد. وهنا، أمر الضابط بنقل الفتاة إلى أحد المستشفيات حيث أعترفت أنها هي التي كانت وراء هذه الحوادث.

وشرح الضابط ذلك أنه كان ينتظر مثل هذا الاعتراف، إلا أنه لا يستطيع أخذه مأخذاً جدياً، فالذي كان يحدث كان يفوق قدراتها البشرية، والاهم أن يقال أنها كانت تخضع لتأثير نفسياني تقليدي.

فحين عادت الفتاة إلى بيت ذويها وجهت إلى الضابط رسالة قالت فيها: (أريد أن أعذر لك، مقدرة الجهد الذي بذلته لإعادة الهدوء إلى بيت جدتي، كما أريد أن أعذر عن الاعترافات غير الصحيحة التي أدليت بها. أنني أعرف جيداً أن كل ما حدث في بيت جدتي إنما حدث بالرغم مني، وخارج نطاق ارادتي، إلا أنه كان يحدث فقط أثناء وجودي في البيت، وكنت فخورة بذلك قليلاً، لذا قلت أنني قمت بكل ما وقع في البيت. أنني لأستطيع تفسير السبب الذي حملني على الادلاء بهذا الاعتراف فقد كنت أشعر أحياناً بأنني مدفوعة بقوة ما إلى العمل خفية على تنفيذ ما لم أعد أراه يحدث حولي، لكنني لا اذكر أنني أمسكت بالزجاجة وحاولت تحطيمها على رأس جدتي. بالنسبة إلى الحوادث الأخرى أجدني عاجزة عن إيضاح ما حدث).

من الكتب العجيبة و(الطريقة) في موضوعها كتاب (المجهول والمشاكل النفسية) لمؤلفه كاميل فلاماريون. فهذا الكتاب يحوي لائحة بحوادث نسبها إلى عناصر طبيعية تبدو أحياناً مرئية مثل الصاعقة وأحياناً أخرى غير مرئية. فهو يقول: ذات مرة، أنتزعت نار السماء (أي الصاعقة) المفاتيح عن أقفالها ووضعتها في حذاء. كما أنتزعت مرآة من قاعدتها وأنزلتها إلى الأرض برفق، وحطمت سريراً وقذفت به خارجاً، أما الاطفال الثلاثة الذين كانوا نائمين عليه فلم يصابوا بأذى، وقتلت امرأة علق ثيابها على شجرة، وصعقت راهباً وهو على مذبح كنيسة، وقذفت رجلاً في الخمسين من عمره دون أن يصاب بشيء، وأحالت جسم رجل آخر إلى رماد لكنها ابقت ثيابه سليمة، في حين أحرقت ثياب رجل آخر وأبقته سليماً، ونشرت هباب مدفأة على وجوه مجموعة من الأشخاص كانوا يرقصون، وفتت عقداً ذهبياً على صدر امرأة، وأنتزعت كل المسامير في أحد المقاعد وقذفت بها إلى سقف البيت، وضربت رجلاً دون أن تجرحه، إنما تركت على صدره رسماً لشجرتين موجودتين على مسافة مائة متر منه.

ويشير كاميل هذا بعد روايته لهذه الحادثة أن الطبيعة غامضة في حد ذاتها، وتصرفاتها (أي الطبيعة) أكثر غموضاً وأثارة.

وطالما أن الطبيعة على هذه الشاكلة فلا بأس أن نورد قصة أخرى من هذا القبيل.

في شهر آذار من عام ١٩٦٨ أصيب السيد فاينيل - شارع ليمبورغ في فيرفيه - بذعر شديد

بسبب قرع عنيف كان يهز البيت كله ويستمر أحياناً ساعة كاملة، فیدع أبنته الصغيرة والخادمة في حالة يرثى لها.

وقد نسب الامر أولاً إلى حفريات تجري في الحي، لكن القرع كان يحدث في الليل بعد توقف عمليات الحفر، فأتهم أهل الحي السيد فييل وهو صاحب مرآب - بأنه هو الذي يفعل ذلك على سبيل الاعلان لمرآبه، لكن أحد رجال الشرطة الذي بات ليلة في بيت الرجل، سمع القرع بنفسه ولمس آثاره، وبالتالي برأ صاحب المرآب من التهمة التي حاول أهل الحي الصاقها به لأنهم لم يجدوا تفسيراً معقولاً لما يحدث بالنسبة لعقولهم.

والقصص من هذا القبيل لا (تصدق) على حسب قول من ينسجها، أو يضع لمسات لوقائعها بشكل (يوحي) أن هناك حوادث واستدلالات من غير طريق الحواس، وربما كان الأسلوب عن طريق استحضار الارواح، كما كان الشأن حين شرع زوجان يشكلان أسرة (دوبون) في القيام بذلك مما جعلهم يواجهون اضطرابات مزعجة استمرت من ٢٧ أيلول ١٩٦٦ إلى ١١ كانون الثاني ١٩٦٧ . فقد حدث مرة أن تحركت أداة حادة ورسمت صلياً على جبين الزوج، في حين أنتزع بعض شعر زوجته. وحدث مرة أخرى أن تحطمت أطباق الطعام كلها، وقد بلغ ذعر الزوجين المسكينين حدّاً اصيبا معه باليكم. وفي النهاية توقفت الظاهرة بحادث مضحك، اذ اصيبت الزوجة بضربة عنيفة على مؤخرتها ومن ثم توقف كل شيء.

المهم في هذه الظواهر كلها، ليس الذعر فقط، وإنما فقدان بعض الناس الثقة بالنفس، وأحياناً السيطرة على الاعصاب. ومن البدهي أن من يعتقد أن بيته مسكوناً يضطر لمغادرته، طالما ظل اعتقاده قائماً لمثل هذه الامور.

* * *

قلنا أننا في دراسة الاستدلال عن غير طريق الحواس يجب أن ننهج المنهج العلمي، فما هو هذا المنهج وما الذي يقضي به؟ على الباحث العلمي أولاً أن يخلي ذهنه من كل رأي سابق لم يقدّم على أساس التحري، ثم عليه أن يجمع أكبر قدر من الحوادث والوقائع الداخلة في مجال بحثه، حتى اذا اجتمع منها القدر الكاف أمكنه استخراج قاعدة لتعليلها جميعاً، ثم يعتمد الباحث إلى تحقيق هذه القاعدة والتأكد من صحتها فإذا ثبت لديه بالتجربة والاختبار أنها تنطبق على جميع الحالات قررنا نهائياً واعتمدها قانوناً عاماً.

أفرض أنني أردس فعل الحرارة في المعادن، فأني شرعت في التجربة بمعادن مختلفة، فإذا

وجدت النتيجة في جميع الحالات تمدد المعدن بفعل الحرارة وضعت مبدئياً هذه القاعدة وهي (أن الحرارة تمدد المعادن) ثم عمدت بعد ذلك إلى توسيع مدى البحث والاختبار والمقابلة حتى اذا تأيد هذا القانون في كل مرة قررته وجعلته في صيغته النهائية.

وبعبارة أخرى أن العلم في تحريره يقطع أربعة أدوار:

١ - جمع الحوادث والوقائع.

٢ - تحليلها تحليلاً أولياً.

٣ - تحقيق هذا التحليل بتطبيقه على حوادث ووقائع متنوعة.

٤ - تقرير التحليل نهائياً.

وفي الواقع أن الانسان لا يستطيع أن يحزم جزءاً قاطعاً (أي موثقاً بصحته مائة في المائة كما يقال) إلا فيما يتعلق بالحوادث والوقائع المفردة. لنفرض مثلاً أنني وجدت قطعة من الحديد تمددت بفعل الحرارة ثم وجدت ثانية قطعة من النحاس تمددت كذلك، ثم في مرة أخرى قطعة من الرصاص، فهذه الحوادث المفردة ثابتة لا شك فيها، ولكنني حين أود أن أستخرج منها قانوناً عاماً ينطبق على ما سواها - فأقول أن جميع المعادن تتمدد بالحرارة - ففي هذه الحال لا يكون حكمي نهائياً ويبقى قلبي معرضاً لخطر استكشاف معدن جديد قد يكون له خواص أخرى تلجئ إلى تعديل حكمي السابق أو تقييده بتحفظ.

هذا هو باختصار - وأخشى أن يكون اختصاري مخللاً - أسلوب البحث العلمي، وهذا هو الأسلوب الذي يجب أن نتوخاه في دراسة الاستدلال عن غير طريق الحواس.

وأول ما يطلب منا ألا نركن إلى رأي سابق في هذا الموضوع - سواء أوحته إلينا عقائدنا الراسخة أم آميالنا الخفية أم ما تصبو إليه نفوسنا. بل يجب أن نبحت ونجمع الحوادث والوقائع ونحققها التحقيق الوافي، وحينئذ نرى هل يكفي ما أجمع لدينا من البيانات الموثوق بها لأتخاذ موقف معين.

وينبغي ألا تحول غرابة الشيء دون التسليم به، فمعظم ما نجهله نستعجهته في أول الأمر ولا نتصور صحته إلا بمشقة: افرض أن سائحاً جاء يوماً إلى قوم لاعهد لهم بالمغنطيس وقال لهم أنه اكتشف معدناً له خاصية جذب الأشياء إليه، لا شك أنهم يكذبونه ولا يحفلون بدعواه.

كذلك كان من الصعب على الانسان - قبل الاختراعات العلمية التي تمت في مائة العام

الآخيرة - أن يتصور شيئاً مما تحقق اليوم وأصبح مألوفاً في حيز الظواهر الطبيعية اذ ليس من شيء خارج الطبيعة وإنما هناك أشياء شملها علمنا الحاضر، وأشياء لم يشملها بعد، ولا بد قبل قبولها بحظيرته من أن تؤدي الامتحان.

وتقودنا هذه الاعتبارات مرة أخرى إلى المسألة التي لا زالت موضع خلاف والخاصة بطبيعة الغرائز البشرية وعددها، وإلى أي مدى يمكن الاستفادة من تطبيق مفهوم الغريزة على الكائنات الانسانية، وشهد الاهتمام بهذه المسألة مدأً وجزراً وفقاً لمدى توفر البراهين الجديدة، فقدم لنا سيرل بيرت بفكرته عن ((التحليل العامل)) مساهمة أصيلة، قال بمقتضاها بوجود عام (يدعي في بعض الأحيان (ايه) أو الانفعالية العامة بما في ذلك طبعاً من إشارة إلى نظرية ماكدوغال عن العلاقة بين الغريزة والانفعال)) يمثل بالنسبة لكافة مظاهر الانفعالات الغريزية ما يمثل العامل (ج) بالنسبة للعمل الذهني، ويميز الأفراد وفقاً لشدة استجاباتهم لكافة أنواع المواقف الانفعالية، وبالإضافة إلى ذلك فقد وجد أيضاً عاملين يمكن اعتبارهما قطبين متضادين وهما يمثلان الانفعال السار وغير السار على التوالي، وهكذا نجد أن آراء ماكدوغال المتعلقة بربط انفعالات كيفية معينة بغرائز معينة تتطلب تعديلاً كبيراً في ضوء ما ظهر من أدلة على سيولة الانفعالات وقابليتها للتبدل، فالخوف يفسح الطريق للغضب، والعناد يتحول إلى خضوع خلال ثوان قليلة.

وقد حاول ماكدوغال محاولة شهيرة لأثبت ما قال به لامارك من توريت الخصائص المكتسبة، فقام بتجربة ليبن كيف يمكن ان تنتقل ردود فعل غريزية بعينها خلال أجيال من الفئران إلا أن نظريته واجهت لكسة أخرى عندما فشلت الولايات المتحدة لإعادة اجراء التجربة على أيدي باحثين آخرين (درو ١٩٣٩) في تأكيد هذه النتائج التي تعتبر اليوم راجعة إلى أخطاء تجريبية.

وهناك ميدان آخر يرتبط بشكل دقيق بطبيعة الغرائز ويجعل من الانسان اسير الاستدلال عن غير طريق الحواس ألا وهو علم نشوء الطبائع، أي الدراسة المقارنة للسلوك لدى الأنواع المختلفة، وهو موضوع أثار اهتمام علماء النفس بسبب أهمية نتائجه في فهم المقابلات العصبية للسلوك وكذلك بسبب تشابه تلك النتائج مع الاستجابات التي تظهر أحياناً لدى الانسان، وقد تطور هذا الموضوع من العمل الرائد الذي قام به علماء الحيوان في أوروبا وعلى الاخص لورنز وتينبرجن (١٩٥١) اللذان كانا من أوائل من جربوا أثر الظروف المعدلة تجريبياً على الأنشطة غير المتعلمة، كبناء الأعشاش والمداعبات الزوجية والعناية بالصغار، وقد ظهر للتو أن

مثل هذا السلوك يشتمل على عناصر نمطية جامدة بدرجة كبيرة بالاضافة الى عناصر مرنة بدرجة كبيرة ايضاً، وأن بعض أشكال الطقوس السلوكية تنتقل من جيل للذي يليه بالضبط كما تنتقل السمات التشريحية للنوع. ولا تتم هذه الحلقات المتتالية المحكمة من السلوك إلا إستجابة لأنماط معقدة من التنبيه فقط، ويبدو الامر وكأن لدى الحيوان ميكانيزم تنفيسي فطري ينتظر الاثارة الملائمة كالقفز الذي ينتظر المفتاح، على نحو ما قال به مكدوغال، وتضمن (نوعية) المنفس ألا تحدث الاستجابات الغريزية بشكل عادي إلا في الظروف الملائمة فقط. وهكذا فإن الأشكال والحركات والاصوات التي تميز النوع هي التي تستثير وحدها سلوك التزاوج ويمكن التعرف على المكونات الحسية التي تشتمل على (منفس) فعال بالتجربة، ولذلك يكون من المستطاع التوصل إلى أنشاء نماذج تستثير ردود الفعل الغريزية لدى الحيوان، رغم أن النموذج قد يبدو لعين الانسان غير واقعي بدرجة كبيرة.

ومثل هذا الأمر يفتح البحث في هذه الامور الباب أمام عدد من التساؤلات الخصبة، فمن المهم جداً أن نحدد أي نوع من أنواع السلوك يتميز بالمرونة بحيث يمكن تعديله بسهولة باستخدام التشريط وأنها أنماط جامدة. ومن الطبيعي الا تنطبق هذه الاكتشافات بشكل مباشر على الانسان، ولكنها تتعلق بدرجة كبيرة في بعض الاحيان بالمحاولات الرامية إلى فهم العناصر الغريزية في الاستجابات البشرية، ففي مجال السلوك الجنسي، مثلاً، كشفت الدراسات في مجال الحيوان عن عدد من الحقائق الهامة فيما يتعلق بالصلة بين الاستجابات الجنسية والموضوعات التي تثيرها (سواء ما كان منها جنسياً غيرياً أو مثلياً) وكذلك عن الارتباط بين الاستجابات العدوانية - الخضوعية وسلوك المعاشرة الجنسية (فوردويتش ١٩٥٢). فالطريقة التي يمكن للخبرة الفردية بواسطتها أن تربط الاستجابات الغريزية بمثيرات غير عادية تعتبر ذات أهمية قصوى لفهم عمليات التعلم. وما هو معروف في هذا الخصوص سلوك (التبعية) لدى صغار الطير التي يمكن بسهولة أن تتعلق بالمجرب أو أي موضوع متحرك آخر يحل محل الام الطبيعية، والشيء الملفت في هذه الظاهرة هو أن استجابة (التبعية) هذه لا تحدث إلا اذا قدم المثير في مرحلة محددة تماماً من مراحل التطور (من ١٣ إلى ١٦ ساعة في حالة صغار البط) تلك الملاحظات إلى تجديد الاهتمام بمراحل التعلم الحساسة سواء عند الحيوان أو الانسان فتعلم الكلام بالمحاكاة لدى الاطفال يتم بسهولة أكبر في الفترة ما بين عام وعام ونصف من عمر الطفل، وقد أشار رسل ديفيز (١٩٥٧) إلى حالات من الاضطراب في الكلام مرجعها إلى الصدمة التي تحدث في هذا الطور الحرج، وقد تجمع قدر وافر من الدلائل يبين أنه مع نضج الجهاز العصبي تتغير القدرة على تقبل أنماط التعلم المختلفة، فالاستجابات الشرطية مثلاً يصعب

غرسها والابقاء عليها في الرضع، ومن ناحية أخرى فالرضع الذين يبلغون من العمر ستة أسابيع، كما في حالة أفراخ الطير، يكونوا على أتم استعداد للإستجابة لأي شيء يمثل الام، بحيث أنه في هذه السن يمكن أستثارة استجابة الابتسام عن طريق استخدام أقنعة (أهرنيز ١٩٥٤). وقد يتكون تعلم الاستجابات الاجتماعية - بدرجة كبيرة - من التعلق المبكر للأنماط الغريزية بالمنبهات الاجتماعية.

وقد أتضح أن الحيوانات التي تعزل خلال فترة حرجة من فترات تطورها تظل متخلفة دائماً من حيث أستجاباتها الاجتماعية عندما تستأنف الصلات العادية، فالكلاب التي تستخدم في الارشاد مثلاً يصعب تدريبها ما لم تكن ربيت بأستمرار بين جدران المنزل وفي صلة وثيقة بالناس.

مما ذكرناه يستخلص مدى كون الانسان المتعلق بالاستدلال ماسوشيا - ساديا، وبدون أن يدري يعذب الغير ويعذب نفسه من خلال تخيلاته الوهمية وأيخافه الغير ونفسه بحوادث لم تقع حقيقة ، أو أنها وقعت، ولكن حرّف وقائعها خياله المرضي وجعل اللامنطقي هو الصحيح فإذا هي ارتدادات لخلل نفسي يظهر من خلال الاستدلال. عن غير طريق الحواس.

بين السحر والاستدلال

أتأتي قوة الاستدلال عن طريق السحر..

البعض يعتقد بذلك ويلجأ إلى السحرة في حال فقدان قريب أو مال وغير ذلك.

ويدل هذا على أن الإنسان لا يزال يقبل القوى اللامنطقية في حياته، وأن الإنسان المعاصر، لا زال يظهر خللاً بقيت من ماضيه البعيد. وكثير من نشاطاته الحاضرة مشتقة من طرق الحياة القديمة جداً، أنتقلت ثقافياً من جيل لجيل.. ولو أنها غالباً ما أنتقلت مشوهة إلى حد كبير. فمثلاً الاحتفال بأعياد (الكرنفال) يمكن تتبع أثرها إلى أندفاعات أساسية في طبيعة الإنسان لا تتناسب مع حياة المجتمعات المتقدمة، ومع ذلك فهي تطلب أن تقبل ما بين حين وآخر ولأيام عدة - أثناء الكرنفال - يسمح للقوى غير المنطقية أن تسيطر على القانون والنظام بصورة رمزية على الأقل.

ومنذ آلاف السنين، وفي العصور القديمة، كان الطبيب الساحر في العصور البدائية يقنع مريضه بأن الأرواح الشريرة هي سبب مرضه، ويعالجه بإخراج هذه الأرواح الشريرة من جسده بطرق كانت تأتي دائماً بنتائج باهرة! وكان الأطباء في القرون الوسطى يقولون لمرضاهم أن هناك خللاً في ميزان السوائل الأربعة التي تكوّن الجسم، ثم يشرعون في (فصد) دماء المريض لأنها أسهل السوائل أستخراجاً.

ويمكن أن يطلق الآن على مثل هذه المعالجة اسم (العلاج التأثيري)، وهو يتلخص في أن نعطي المريض تشخيصاً بسيطاً للمرض يستطيع أن يفهمه كسبب لما يعانيه من اضطراب، ثم نقدم له على هذا الأساس علاجاً. وقد يرى البعض في هذا نوعاً من الخداع، ولكنه في الحقيقة نوع من العلاج النفسي بطريق ملتو.

إن عالم السحر عالم عجيب وغريب.. عالم القوى المجهولة الكامنة في داخل الكائن

البشري وخارجه.. عالم تنسجم فيه القدرة على التأثير والايحاء، سواء في الافكار والحواس أو في الاجسام والأشياء(*).

واذا كان بعض البشر يتمتع بخاصية الأفكار والتخاطب عن بعد والتنبؤ بالاحداث وغيرها، فإن السحر شيء آخر يختلف تماماً.

إن المعنى اللغوي لكلمة السحر في اللغة العربية تعني مفاتيح الغيب.. والمسحور هو المخدوع أيضاً، لأنه يرى ما يخالف الحقيقة. فالسحر كما يقول الفخر الرازي (أعلم أن لفظ السحر في عرف الشرع مختص بكل أمر سببه، ويتخيل على حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع، ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ذم فاعله).

وربما كان جهل الانسان القديم بما يحدث من حوله سبباً في اعتقاده في السحر.. فظلام الجهل كان يخيم على الغابات الكثيفة والاماكن النائية التي لم يستكشفها بعد.. وكذلك وجود الصحارى الواسعة، والمغارات وغيرها. ولهذا كان السحر يمثل جانباً هاماً وحيوياً من حياة الأقدمين.. فالتمايم السحرية توغلت بعيداً في نهار وليل الانسان القديم، حيث أنها تحرس الزرع من أمراضه وحشائشه الضارة، وهي تعين على جودة الصيد وزيادته، وهي في النهاية تحرس جثة محنطة في انتظار عودة الروح مرة ثانية في الحياة الاخرى.

إن جهل الانسان كان سبباً مباشراً في دخول السحر إلى الديانات القديمة، حيث استغله الكهنة في التأثير على الشعوب بأسم الالهة التي اخترعوها.. بل وصل شأنه إلى الطقوس الدينية والتضحية والصلاة.. فلا يزال كثير من الصلوات جزءاً من طبيعة العزائم السحرية، التي يتمم بها المصلي، ويتلوها مرة بعد أخرى وهو مؤمن بهذا التكرار.

والطلاسم واللعنات والدعوات الصالحة هي أمور تطورت عن السحر.

وقد طرق الانسان مسالك السحر المختلفة في محاولته جذب معونة المخلوقات الاخرى غير المرئية، وشهدت الحضارات في سورية القديمة ومصر والهند والصين وأمريكا الجنوبية مشاهد مختلفة قام بها الأطباء السحرة لمعالجة مرضى النفس والبدن ومساعدة المرأة الحامل على الولادة.

(*) جيء لبركيز بكبش ذي قرن واحد في وسط جبهته، وقال أحد العرافين أنه نذير من نذر الآلهة، فأمر أنكساغوراس بفتح رأس الحيوان واظهر للحاضرين أن مخه قد نما في مقدم الجبهة بدل أن يملا جانبي الجمجمة كلها، فنشأ من نموه على هذا النحو قرن الكبش الوحيد. وقد أثار أنكساغوراس مشاعر السذج بتفسير سقوط الشهب على أساس القوانين الطبيعية، وأرجع كثيراً من الشخصيات الاسطورية إلى تجسيم المجردات العقلية.

اذن السحر قديم في حياة الانسان وله أنواع مختلفة، أي أن له طرقاً متعددة الوسائل والأغراض. فهناك نوع من السحر يقوم على عبادة الكواكب وأستغلالها، أو أستغلال طاقاتها الخفية في قضاء الحاجات. وهذا النوع من السحر عرف في حضارة الاشوريين في شمال العراق، في آشور ونيوى، وكذلك وجد في حضارة الكلدانيين في بابل.

وهناك سحر يقصد به التأثير في الأجسام والأنفس، ذلك أن ما يؤثر في النفس يؤثر في الجسد، والعكس بالعكس، والساحر هنا يملك وسيلة تأثير خاصة يؤثر بها في نفس وجسد الشخص المراد سحره، ويكون التأثير حسب قدرة الساحر الشخصية ودرجة علمه في علوم السحر، والنوع الثالث من السحر هو الذي يستعان فيه بالمخلوقات غير الآدمية مثل الجن أو الارواح الشريرة وغير ذلك.

وتطور السحر في العصور الوسطى إلى حيث كان السحرة يصنعون تماثيل صغيرة تشبه الشخص المراد التأثير عليه، ثم يضعون فيها مجموعة من الأبر.. كل واحدة منها تمثل هدفاً أو غرضاً من أغراض الساحر.

وكان هنود أمريكا الجنوبية في بيرو القديمة يحرقون الدمى أو العرائس الصغيرة التي تمثل أشخاصاً بعينهم. وكانوا يسمون ذلك (أحراق الروح)، وهذا يعني أصابة المسحور بضرر شديد يقترب من الموت! (*)

وإذا كان السحر قد بدأ بالخرافة، فإنه أنهى في العصر الحالي إلى أن أصبح فرعاً من العلوم.. فإن أغلب سكان العالم المتحضر في أوربا يلبسون التماثيل والمداليات، ويضعون حدوة الفرس على مدخل بيوتهم، ويؤمنون بالابراج، معتقدين في قدرتها على مساعدتهم وحمايتهم!

ويعود أكبر الفضل لايقراط وخلفائه في أنهم حرروا الطب من الدين والفلسفة.. نعم أنهم يشيرون في بعض الاحيان بأن يستعين المريض بالصلاة والدعاء، كما نرى ذلك في كتاب (التنظيم)، ولكن النغمة السارية في صفحات المجموعة كلها هي وجود الاعتماد الكلي على العلاج الطبي. وتهاجم رسالة (المريض المقدس) صراحة النظرية القائلة بأن الأمراض ترسلها الالهة، ويقول مؤلفها أن للإمراض جميعها عللاً طبيعية بما في ذلك الصرع نفسه الذي يفسره الناس بأنه تقمص الشيطان جسم المريض (وما زال الناس يعتقدون بأنه من عند الالهة لعجزهم

(*) يعتقد الهنود في أدغال البرازيل أن أحدهم اذا ضل الطريق في الغابة فإن مخلوقاً نصفه رجل ونصفه طائر ينقذه ويحتفظ به في عشه ثم يحمله فوق منقاره ليعود به إلى أهله، ويسمون هذا الطائر بـ(الأنافس). ويحاول الهنود في هذا الاعتقاد أن يفسروا ما يستعصي عليهم فهمه أحياناً.

عن فهمه، ويتوارى المشعوذون والدجالون وراء الخرافات ويلجأون إليها لأنهم لا يجدون علاجاً ناجعاً لهذا الداء، ومن أجل هذا يطلقون عليه أسم المرض المقدس حتى لا ينكشف للناس جهلهم الفاضح).

وهناك حقيقة أخرى، وهي أن بعض كبار علماء البشرية قد بدأ حياته بتعلم السحر، ولكنه تحول بعد ذلك إلى فروع العلم الأخرى، بعد أن صادف نقطة التحول الخطيرة التي توقف عندها ليحول مساره. فمثلاً أسحق نيوتن العالم الفذ، كان يدرس علم التنجيم من أجل السحر، وقد لقي بعض الصعوبات في تلك الدراسة، مما جعله يتوقف كثيراً عند ظواهر الكون، وخلال تلك الوقفات قدم للانسانية أجمل وأعظم القوانين حتى الآن. وقد حدث نفس الشيء بالنسبة للأطباء السحرة وعلماء المعادن وعلماء الفلك الذين كان أغلبهم يدرسون علم التنجيم، ومن ثم فُصِّلَ التنجيم عن علم الفلك وأصبح الأخير علماً صرفاً قائماً بذاته.

وقد اشتهر الشرق بسحره الخاص، بعيداً عن سحره الطبيعي، كما اشتهرت مناطق الهند المختلفة بأنواع العديدة من السحر والسحرة، وكانت لهم كتب تسمى أسفار الفيدا^(*)، أي كتب المعرفة.. وأهم هذه الأسفار هي سفر اتارفا، ومعناه كتاب معرفة السحر والرقى. وأهمية هذا الكتاب ترجع إلى أنه يؤكد أن للسحر أصولاً وعلوماً.. ويرجع تاريخه إلى أكثر من خمسة آلاف عام قبل الميلاد! وهو وغيره من كتب سحر تبين أن الساحر لا بد أن يلم بعلوم ومعارف أخرى، وأنه لا بد أن يمارس العديد من التجارب الشاقة قبل أن يصبح ساحراً حقيقياً. فالأدوات المعدنية التي صيغ بعضها من الذهب والنحاس والالمنيوم والفضة وغيرها، التي يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد بآلاف السنين، تؤكد أن من المستحيل على الصانع في تلك الأيام أن يقدم تلك التحف الغنية النادرة مستخدماً الوسائل المتاحة الصناعية فقط! فالمشغولات الذهبية في تركة توت غنج آمون تؤكد تقدماً مذهلاً في عالم الصياغة لا تتيحه الآلات البدائية المستخدمة. وفي العراق مثلاً توجد آنية من الفخار يتولد فيها تيار كهربائي اذا وضعت فيها كمية من الماء.. وغيرها الكثير.

قلنا أن الهند اشتهرت بأنواع مختلفة من السحر والواقع أن كل شيء في هذه البلاد أختلط فيه السحر.. بداية، بالطب وإنتهاء بالفقرا.

(*) فلسفة البراهمة أو الفلسفة الفيدية، هي التفكير الديني الفلسفي الذي تشتمل عليه أسفار الفيدا الأربعة، وهي كتاب الريفيدا المحتوى على الأغاني الدينية، وكتاب السامافيدا وفيه الاناشيد والادعية المأثورة، وكتاب الياجورفيدا ويشتمل على الأدعية والصلوات المستعملة عند تقريب القرابين، وكتاب الاخرافيدا وهو عبارة عن ادعية وتساييح وتعاويذ عن كل ما يرجع إلى السحر من قوائم وعزائم وطلاسم وتحاويط.

وتروي الكاتبة المصرية نفيسة عابد قصة الصحفي الانكليزي الذي سافر إلى الهند لأول مرة، حيث شاهد هناك الساحر الذي يمسك بالبوق لينفخ فيه فيرفع الحبل الممدد على الأرض ليقف منتصباً في الهواء ثم يتسلقه الطفل الصغير، ويتبعه الساحر ومعه سكين، ويبدأ الساحر في قذف أعضاء الطفل إلى الأرض وهي مضرجة بالدماء، مما يعني أنه قد قطعه أرباً. ثم ينزل الساحر وينفخ في البوق لتجتمع أعضاء الطفل الذي يعود إلى الحياة مرة أخرى. ويعود الصحفي الانكليزي إلى فندقه وهو مذهول، ولا ينام الليل، وفي الصباح يقرر أمراً، فيحمل كاميرته السينمائية ويخفيها بين ملابسه ويسجل بها الحدث الذي يقوم به الساحر في عرضه اليومي. وعندما يذهب إلى الفندق يدير الشريط في لهفة ليتأكد مما شاهده، وتكون المفاجئة المذهلة، وهي أن الشريط يعرض خالياً، وليس فيه سوى الحبل الممدد على الأرض وبجانبه الساحر والطفل في سكون تام! ويكون هذا الشريط الخالي أكبر دليل في ذلك الوقت على أن السحر يخدع المشاهد في ظاهرة الاشياء وليس في طبيعتها.

وفي غمرة طفرة السحر على البشر، نهى الاسلام عنه باللجوء إلى السحرة. وقد قر رأي أغلب المفسرين وعلماء الاسلام على أن الساحر يعتبر كافراً اذا ارتكب بسحره ما يؤدي إلى الكفر، وأنه في أقل الحالات شأناً يكون مرتكباً لكبيرة من الكبائر وعاصياً شديداً العصيان، وفي ذلك تبعاً لطريقة استخدامه للسحر والهدف الذي يرمي إليه. والقرآن الكريم يقدم لنا صورة الساحر في إطار الانسان الفاشل الذي يجانبه الصواب (ولا يفلح الساحر حيث أتى).. ولذلك فأغلب السحرة يصادفون أهوالاً في حياتهم.

وتروي قصة عن محاولة سحر الرسول عليه الصلاة والسلام، خلاصتها أن لييد بن أعصم اليهودي سحر للنبي الكريم في إحدى عشر عقدة.. وفي وتر رماه في بئر أسمها ذوران، ومكث الرسول يشكو من آلام جسده ثلاثة أيام حتى آتاه جبريل ليروي له القصة.. فأرسل علياً عليه السلام ومعه طلحة رضي الله عنه وأحضر السحر. وكلما قرأ النبي آية من المعوذتين أنحلت عقدة وذهبت بعض آلامه الجسدية.

لكن جمهور المعتزلة أنكر هذه القصة.. على أن أغلب المفسرين رواها على أن سحر اليهودي لم يؤثر إلا في جسد الرسول الكريم دون أن يؤثر في عقله وروحه ونفسه، لأن الثلاثة الأخيرة لها دخل كبير في أداء الرسالة على أكمل وجه وهو ما نعله الرسول الكريم بينما خضع جسده الشريف لما يخضع له البشر من الألم والمرض.

إن العديد من الادعية كان الرسول الكريم يقولها لأصحابه وأهل بيته، منها أنه كان يعود

الحسن والحسين رضي الله عنهما قائلاً: (أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة). وأيضاً: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق..وهو السميع العليم). وقالت عائشة رضي الله عنها (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أشتكى ألماً في جسده قرأ قل هو الله أحد والمعوذتين في كفه اليمنى ومسح بها مكان الألم) .

وفي سورة طه، يقدم لنا القرآن الكريم قصة موسى مع فرعون وقومه.. وهي قصة مثيرة من الناحية الدرامية، وفي نفس الوقت تقدم لنا شرحاً وافياً للسحر، والفرق بينه وبين المعجزة السماوية..

قال تعالى:

﴿ومأتلك يمينك يا موسى. قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى. قال ألقها يا موسى. فألقاها فإذا هي حية تسعى. قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ صدق الله العظيم.

إن فرعون الملك الاله الجبار له جمهوره من السحرة الأفذاذ الذين يقدمون إليه كل ما يريد.. وأكثر!

وموسى كني ورسول لا بد أن تكون معجزته - التي تؤيد دعواه - فيما يتفوق ويتميز به أهل مصر، وهو السحر..

والحقيقة هي أن الآيات تحتوي على معان كثيرة تلفت النظر وتستدعي الفكر والتأمل.. فالله سبحانه وتعالى يعلم تماماً ماذا يحمل موسى في يده اليمنى، فلماذا السؤال إذن؟

يقول العالم العربي الكبير الفخر الرازي في كتابه مفاتيح الغيب! أن الله أراد أن يظهر من الشيء الحقير شيئاً شريفاً. والسؤال هنا للتذكير والتأكيد على تفاهة العصا أولاً.. فالله سبحانه وتعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك المعجزات الكبرى كقلبه بها حية وكضربه البحر حتى أنفلق، وضربه الحجر حتى تفجر منه الماء.. عرضها أولاً على موسى وكأنه يقول له: هل تعرف حقيقة هذه العصا وأنها مجرد قطعة من الخشب لا تضر ولا تنفع؟.. ثم بعد ذلك يقلبها ثعباناً هائلاً. وبهذا الشكل تنبه الله سبحانه وتعالى الأذهان إلى كمال قدرته، بحيث يظهر آية عظيمة من أهون الأشياء وأصغرها عنده. ويقال أيضاً أن هذا السؤال ينبه لموسى نفسه حتى يذكر أن العصا قطعة من الخشب، فإذا قلبها الله ثعباناً فلا يخاف منها. ويقال أيضاً أن حكمة قلب العصا إلى حية في ذلك الوقت حتى يعرف موسى أنها معجزته التي تؤكد نبوة نفسه

بالدليل المادي.. و(قال خذوها ولا تخف سعيدها سيرتها الاولى)، واذا كان موسى قد أدرك أن الله قد حفظه بتلك المعجزة الكبيرة فلماذا خاف؟ يقول بعض المفسرين أنه لم يسبق له أن شاهد قبل ذلك قط، فهذا أمر يخالف المعقول وما تفكر به العقول.

وقد قال الشيخ أبو قاسم الانصاري ان خوف موسى يعتبر من أقوى الأدلة على صدقه، لأن الساحر يعلم ان الذي يمارسه نوع من الخداع والتمويه فلا يخاف منه، خصوصاً وأنه من عمل يديه. إن معجزة موسى هي من فعل الله وحده.. واذا كان أنقلاب العصا إلى حية معجزة، فإن عودتها إلى حالتها الأولى معجزة أيضاً، وتوالى المعجزات هو الدليل الاقوى.

ويأمر الله تعالى عبده ورسوله موسى بالذهاب إلى فرعون لأنه طغى، فيطلب موسى من ربه أن يشرح له صدره، وشرح الصدر كما قال رسول الله نور يقذف من القلب، فقليل وما أمارته؟ فقال: التجافي عن دار الغرور والانابه إلى دار الخلود. ويذهب موسى وهارون يحملان الرسالة إلى فرعون، ويسجل القرآن الكريم في سورة طه حواراً رائعاً طرفاه فرعون الملك الاله المتكبر المدعي صاحب السلطان والحول والطول، والطرف الاخر النبي موسى وأخوه هارون يحملان الرسالة والدليل والبرهان، يؤيدهما الحق تبارك وتعالى.. وتتوالى الاحداث وتتصاعد حتى يتفق أتباعه، ويقال أن عددهم كان اثنين وسبعين ساحراً، وقيل أنهم كانوا أربعمئة، وربما أكثر من ذلك.

ويبدأ السحرة في شن هجوم جديد هو أقرب إلى الحرب النفسية فيقولون عن موسى وهارون أن هذان لساحران وهذه محاولة منهم للتشكيك في معجزة موسى بأنه ساحر هو وأخوه.. والنفس تنفر من السحر وتكره رؤية الساحر، كما أن الناس تعلم أن السحر لا بقاء له إلا لفترة محددة، فهل يتبعون موسى اذا كان دينه ومذهبه يقوم على تأييد السحر؟ أي أنه لا بقاء للدين الذي جاء به.. ومن اللافت أن الذين يذمون السحر هم السحرة؟

لنقرأ الآتي ﴿وقالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن تكون أول من ألقى. قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خفيفة موسى. قلنا لا تخف أنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ صدق الله العظيم.

إن السحرة يمارسون مع موسى نوعاً من آداب المهنة يحمل في طياته الثقة الزائدة في قدراتهم فيعرضون عليه أن يلقي عصاه أولاً. ويقابل موسى هذا الأدب مثله فيقول (بل ألقوا).. ويلقي السحرة حبالهم وعصيهم ويخيل إلى موسى من شدة أجادتهم لفنون السحر أنها

تتحرك.. ويدخل الخوف إلى قلب موسى، ويختلط المفسرون في سبب أو تعليل هذا الخوف.. فقد أعطى الله موسى الشيء الكثير: كلمه أولاً ثم بين له معجزة العصا واليد.. وأعطاه الاقتراحات الثمانية وقال له (أنني معكما أسمع وأرى).. اذن النبي موسى لا يخاف على نفسه، ولكنه يخاف أن تدخل على الناس شبهة فيما يروونه من سحر سحرة فرعون، ويختلط عليه الأمر فلا يدركوا أن هذا مجرد سحر، أي خيال وخداع بصر، وليس تغييراً للحقيقة.

والآية التالية (قلنا لا تخف أنك أنت الأعلى) تدل على أن خوفه كان راجعاً إلى احتمال عدم فهم الناس لحقيقة ما يحدث أمامهم، فالمسحور كالمخمور مخدوع الحواس.

وحين يلقي موسى بعصاه تتحول هذه إلى حية كبرى تبتلع كل ما قدمه السحر فألقى السحرة ويلقي موسى بعصاه فتتحول إلى حية كبرى تبتلع كل ما قدمه السحرة (فألقى السحرة سجداً)، ويعلم السحرة أن حقيقة الأمر قد ظهرت.. ولأنهم كانوا يمثلون أعلى مستوى من ممارسي السحر فقد أدركوا الفارق الهائل بين المعجزة السماوية التي تخرق الناموس وتغير حقيقة الأشياء.. عمليات سحر الاعين وتغيير ظاهر الأشياء التي يقومون بها.. ولذلك فقد سجدوا لله من فورهم - وكأنهم ألقوا إلى الأرض - قبل أن يدرك فرعون حقيقة ما يحدث حوله، مما أفقده صوابه فعمد إلى تعذيبهم.

وإذا كان موسى النبي قد بين لأبناء طائفته من اليهود أن الساحر لا يفلح وأن الايمان بالله يقتضي البعد عن السحر، فإن اليهود مع ذلك هم أكثر شعوب الأرض أقبالاً على السحر، أشغل به عدد كبير منهم وكان شيئاً لم يكن.. ثم جاءت فترة نبوة سليمان بن داود وكان اليهود لا يعترفون به نبياً من أنبياء الله، ويعترفون له ملكاً عظيماً من ملوكهم!.. وفي عهد سليمان بدأ اليهود يتعلمون السحر ويتبعون ما تملوه عليهم شياطين الانس والجن من الخارجين على حدود الله. وزادت كتب السحر وطرائفه، وقيل أن الشياطين كانت تلقن أحبار اليهود قواعد السحر، ويدعون كذباً أن سلطان سليمان على الجن والطير والريح والبشر أيضاً كانت تقوم على تلك الأسس السحرية المدونة في كتبهم، وهي الكتب التي تداولها اليهود بعد ذلك في كل مكان، وكانت تعد سرّاً من أسرار قوميتهم.

أما فخر الدين الرازي فقد نفى أن ما أنزل على الملكيين في بابل هو السحر كما قالت الشياطين، فالذي ينزل من السماء هو شرع الله والدين والدعوة إلى الخير، ولا يمكن أن تنزل الملائكة أي أنواع السحر. وقد ذكرت الروايات اليهودية قصصاً طويلة غير حقيقية عن أسباب نزول الملكين إلى الأرض.. قالت أحدهما أن الملائكة أستنكرت سلوك الانسان على الأرض

فأراد الله أن يبتلي الملائكة الذين اختاروا ملكين من أعظم الملائكة علماً وورعاً لينزلا إلى الأرض بعد أن تضاف إليها شهوات الانسان. وفي أول يوم تقابلا مع امرأة جميلة أسمها الزهرة جعلتهم يرتكبون كل الكبائر في أسرع وقت.. ثم أن الملكين قد ندما وطلبا العفو من الله وأختارا عذاب الدنيا بدلاً من عذاب الآخرة وهما معلقان في أحد الكهوف في مكان بابل القديمة.

هذه الروايات وغيرها من اختراع اسرائيلي، شأنه شأن أغلب الروايات التي من هذا النوع والتي تحفل بها كتبهم، مثل العهد القديم وغيره. وقد اختلف المفسرون في سبب نزولهما إلى الأرض.. بعضهم قال أن السحرة قد كثرت في ذلك الزمان، وكانوا يدعون النبوة فأرسل الله الملكين إلى الأرض ليعلما الناس أن السحر غير المعجزة، أو أن تعليم السحر كان لضرورة محاربة السحرة بسحر آخر مضاد، وأن الملكين كانا يحذران الناس قبل أن يعلماهم بأنه فتنة ويحذران من الكفر.. أي من استخدام السحر في الاضرار بالغير، وقال بعض المفسرين أن الملكين كانا يعلمان البشر أنواعاً من السحر ليواجهوا بها سحر الجان.

لقد سجل اليهود أيضاً عدداً كبيراً من الكتب التي تشرح وتعلم أصول السحر وفنونه التي أخذوها عن قدماء المصريين وغيرهم. ويقال أن القبائل التي كانت تحرس هيكل سليمان في القدس كانت تحتفظ بالعديد من تلك الكتب، وعندما هدم الهيكل هاجرت باقي القبائل إلى أماكن مختلفة ومنها أوربا. وقد سجل نوستر داموس ذلك في كتاباته ورباعياته المشهورة، لأنه شخصياً كان آخر تلك السلالة.

وكتب السحر كثيرة ولكن من أشهرها كتاب (الفلاحة النبطية) وهو الذي ترجمه قدماء المصريين عن كتب بابل وآشور، ثم ظهر بعد ذلك كتاب (صحف الكواكب السبعة) وكتاب (طمطم الهندي). ويقال أن جابر بن حيان العالم الاسلامي الكبير قد قرأ تلك الكتب السحرية أثناء فترة اهتمامه الدراسية، وأنها كانت معيماً له بشكل ما في تدوين كتبه عن الكيمياء وأسرارها. وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أن محمد بن مسلمة الجريطي - وهو أحد علماء الأندلس في علوم السحر - قد لخص تلك الكتب السابقة ونقاها من الشوائب وقدمها في كتاب أسماه (غاية الحكيم).

إن الفرق بين الشعوذة والسحر هو أن الأخير عمل شيء فيه مناقضة لنواميس الطبيعة وخروج على قيودها. والمراد منه في الغالب، اخراج الباطل في صورة الحق. وفي بعض كتب اللغة أن السحر هو ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الانسان.. على

أن العلم ينكر السحر لأنه يقوم على مخالفة نواميس الكون، فإذا كانت هذه المخالفة وهمية، أو من قبيل الخداع البصري فهي الشعوذة والخفة.

وقد درج الناس على اعتبار السحر والشعوذة شيئاً واحداً، وهو خطأ يجاريهم فيه الكثيرون من الكتاب. وفي الحقيقة أن الساحر يعتمد على قوى غير منظورة، سواء أكان هو نفسه يؤمن بتلك القوة أم لا يؤمن بها، وأما المشعوذ فلا يعتمد إلا على الخداع وخفة اليد.

والأرجح أن السحر وجد قبل الشعوذة وأنه تحول إليها بمرور الزمن، وأثر السحر ظاهر بين جميع الشعوب البدائية، فلا تجد قبيلة من القبائل المعروفة في البدائية إلا ولها ساحر تحترمه وتنقاد وراءه. بل لقد كان الساحر أو العراف قديماً، زعيم القبيلة وسيدها المطلق، وهذا ما جعل زعماء القبائل يلجأون إلى الخداع والمخاتلة لضمان زعامتهم على قومهم، وبمرور الزمن أدرك الناس أن مخالفة النواميس الطبيعية غير ممكنة، فالشمس لا بد أن تشرق في النهار، والنار لا بد أن تحرق ما يلقى فيها، والحديد لا بد أن يفرق في الماء، والسم لا بد أن يقتل من يتناوله، فإذا حدث ما يناقض جميع ذلك فهو شعوذة لا شك فيها.

ولإيضاح ذلك نقول على سبيل التمثيل أنه لما ذهب كولبوس إلى أمريكا، في القرن الخامس عشر، توغل بعض رجاله بين قبائل الهنود الحمر، فهجم عليهم هؤلاء ليفتكوا بهم، وكان البعض يعلمون أن الشمس ستكسف ذلك اليوم، فتهددوا الهنود أن هم مسوهم بسوء بأن يطلبوا من (معبودهم) الشمس أن يغضب عليهم! وما هي إلا دقائق حتى بدأت الشمس تكسف، فدعر الهنود وأستولى عليهم الهلع، وخيل إليهم أن أولئك البيض آلهة، فأطلقوا سراحهم وأستغفروهم وقدموا لهم هدايا وتحفاً كثيرة، ولا يزال بعض هنود أمريكا إلى هذا اليوم يتناولون قصة الآلهة الذين زاروا بلادهم من أحقاب كثيرة وكسفوا الشمس!

إن عمل أولئك البيض لم يكن سحراً، إذ لم يكن فيه خروج على نواميس الطبيعة، مع ذلك اعتبره الهنود سحراً ولعله أقرب إلى الشعوذة منه إلى أي شيء آخر، إذ ليس من الشعوذة ما هو مناقض لطبائع الأشياء.. إلا أن المشعوذ يستغل معرفته لتلك الطبائع ويستعين بخفة يده ومهارته على خداع الناس.

وما يدل على ما كان لكلا الساحر والمشعوذ من مقام عند الاقدمين (ولم يكن هؤلاء يفرقون بينهما)، أن الملوك في الأزمنة الغابرة كانوا يحيطون أنفسهم بالسحرة والعرافين. وفي التاريخ أن اسكندر ذا القرنين إذا أراد الخروج إلى الحرب أستشار السحرة والعرافين، وكذلك كان يفعل الروم والرومان والفرس وغيرهم. وفي الحقيقة أنه ما كان أولئك السحرة يستطيعون

الاحتفاظ بما لهم من سلطان على الملوك والاقبال إلا بالتجاءلهم إلى الخديعة والشعوذة. وكانوا يحتاطون لتكون شعوذتهم بمأمن من الفضيحة بأن يقولوا أقوالاً أو يتنبأون تنبؤات يسهل تأويلها كما يريدون مهما كانت النتيجة.

لقد كانت الشعوذة ولا تزال مرتبطة بالتنجيم ارتباطاً وثيقاً، فكان الطبيب في أطوار الاجتماع الأولى مشعوذاً يستعين بقليل من الخبرة وبكثير من الدجل والخداع.. فكان اذا دعي لعيادة مريض عمد إلى وصف بعض الاعشاب والمواد وإلى أستطلاع النجوم والافلاك، وتنبأ بما سيكون من أمر العليل. لهذا كان لشخص الطبيب، عند الاقدمين، حرمة كبيرة، وكان الناس يظرون إليه كما ينظرون إلى شخص مقدس يجب الخضوع له في كل شيء. وكان الطبيب، أو المشعوذ، يرث مهنته عن أبيه ويورثها لأبنه، ومن ثمة نشأت طائفة الكهان والعرافين الذين لم يكونوا في الحقيقة سوى دجالين مشعوذين. نعم أنهم كانوا، في أقدم عصور الاجتماع، يؤمنون بإخلاص لما لهم من قوى خارقة للطبيعة، ومع ذلك أحتفظوا بما لهم من سلطان بفضل ما لجأوا إليه من ضروب الحيل والخداع. ويقول علماء النفس أن أولئك المشعوذين كان لهم، في عدة مواقف، فضل على قومهم لما كانوا يوقدونه فيهم من نار الحماسة وما ينفخونه من روح الشجاعة والاقدام. وتفصيل ذلك أن قادة الجيوش الاقدمين كانوا اذا خرجوا للحرب والقتال يستشيرون السحرة والكهان، ويذيعون ما يقوله هؤلاء بين الجنود ليشجعوهم ويستثيروا حماسهم.

في التوراة أن شاول ملك اليهود استشار روح صموئيل النبي فيما سيؤول إليه امره من محاربة الفلسطينيين فأنبئ بأنه سينكسر وبأن جيشه سيهلك، ومع ذلك لم يعباً فكانت آخرته وبالأعلى عليه. وليس هذا مجال البحث في كيفية استشارة روح صموئيل، وإنما نقول أنها تمت على يد عرافة مشعوذة. وكان هو نفسه (أي شاول) قد قطع دابر العرافين في مملكته، ولعله أول ملك في التاريخ حرم العرافة والسحر والشعوذة، فقد كانت هذه المهنة كثيرة الشيوخ، بل كانت من مستلزمات الاجتماع في العصور الغابرة.

ومن المعروف أن النساء الرومانيات كن كثيرات الشغف بالالتجاء إلى المشعوذين لأستطلاعهم حظوظهن. ولسنا نعلم جيلاً من الناس لم تلجأ نساؤه إلى الدجالين والمشعوذين لاستطلاع أنباء الغيب والكشف عن المستقبل، فإن مثل ذلك الاستطلاع في خلق المرأة منذ أقدم أزمنة التاريخ..

ورغم قسوة عقوبة السحر - وهي الحرق بالنار - فقد ظلت ممارسة السحر تنتقل من جيل

إلى جيل في حرص وسرية كما تنتقل المخدرات من مكان إلى آخر.. وإن كانت تلك العقوبة قد ألغيت في أواخر القرن الثامن عشر، مما أتاح الفرصة مرة أخرى ليلعب السحرة بدون أقنعة.

إن قوة الاستدلال من السحر تجعلنا نقول أن علل التصديق في الحياة اليقظة تشبه في معظمها علل التصديق في حالة الأحلام أو حالة الجنون أو حالة النوم المغناطيسي، ولكنها بطبيعة الحال لا تشبهها تمام الشبه.. فثمة جرثومة عقلية تصنع كل الفرق، ولكن العقل من علل التكذيب لا من علل التصديق.. ذلك بأن (الايان البدائي) يقدم كل ما هو أيجابي، والعقل لا يقدم إلا ما هو سلبى. والعلم بوجه عام شجرة تنمو في تربة الايمان البدائي، ولكن يشذ بها مقص العقل.. والدور الذي يؤديه علم النفس البدائي هو ما أخذ علم النفس الحديث في فهمه.

ويمكننا أن نترجم ذلك لما حدث ل(شتاينماير)

كان في السادسة والثلاثين من عمره يعمل تاجراً في بيع الخردوات بإحدى المدن في مقاطعة هواشتاين. وتركه التجارة وقيامه (بصناعة الشفاء) قصة لا تقل غرابة عن صناعة السحر.

فقد رأى في طريقه صديقاً قديماً، لم يره من عهد بعيد، يمشي متاثلاً وقد خط الالم على وجهه أشائر الأسى فكان في منظره يثير أقسى القلوب بالشفقة والرحمة: إن هذا الصديق أصيب سابقاً بالروماتيزم الحاد فلم ينجح في شفائه أي دواء، رغم زيارته للعدد الكبير من الاطباء، ورغم استعماله كل ما كتب وقيل من وصفات.

في هذه الحالة من اليأس من الحياة ومن الشفاء، كان الرجل يتعثر في مشيته في اللحظة التي ألتقى فيها بصديقه شتاينماير.. وتقدم الصديق العملاق من صديقه اليأس ماداً يده للمصافحة وواضعاً يده الأخرى على كتفه وهو يربت عليه.. بدون كلفة، وكما يفعل الاصدقاء.. في هذه الحركة، اذا بشيء يحدث.. ولترك للمريض الحديث عنه:

(عندما وضع شتاينماير يده في يدي والأخرى على كتفي شعرت كأنما حلقة تيار كهربائي قد طوقتني، واذا بي أهتز وتعروني الرجفة، وطيلة وضعه يده بذلك الشكل.. وقد شعرت على الفور.. وبدون أن أعرف السبب، أنني أحسن حالاً).

منذ ذلك اليوم بدأ شتاينماير يعتقد أن فيه: كهرباء!!

ومنذ ذلك اليوم خطر لشتاينماير أن يعالج الناس بالكهرباء

ومن ذلك اليوم بزغ وتألّق نجم شتاينماير

وقد علل شتاينماير طريقته (علمياً) ١١ عندما يضع يده الثقيلة الضخمة على جبين المريض ، أو ظهره، أو بطنه، فإن (الكهرباء) تسيل!! تارة شديدة وتارة خفيفة، في هذا السيلان الكهربائي يسيل الشفاء أيضاً!!

وقد ذاع خبر (الكهرباء) الذي جرى لشتاينماير عن طريق قسيس البلدة، فقد كان صديقاً له، ذلك أن شتاينماير من المواظبين على الكنيسة.

(إن حصول المعجزة على أيدي المؤمنين ليس بالكثير..) و(لماذا لا؟ الرب يضع سره في أضعف خلقه اذا أخلص للرب).. هذه هي أقوال القسيس لرعاياه..

المهم في هذا هو أن (أضعف خلقه) بدأ يؤمن فعلاً بأنه يحمل (سرا).

وهكذا بدأت الحلقات تنظم ليلياً، بعضها فيه الجد، وبعضها الهزل، ولكن لم يمض الكثير حتى بدأت (فضائل السر) تظهر: ان بعض الحوادث التي لم تنجح على يد بعض الاطباء، نجحت على يد صاحبنا.

وتناقلت الالسن خبر (الخوارق) و(المعجزات) و(السحر) و.. (الكهرباء)!

وبهذا أصبح الرجل قبلة الرواد، وعندما كثر عدد الزوار، رأى أن يستقر في قرية صغيرة. ولم يكن لهذه القرية أي رسم على الخارطة، والتي ليست أكثر من بضع بيوت قروية، أصبحت بعد أعوام، شبيهة كل الشبه (بمدينة جالسباخ) من حيث العمران والنفوس والشوارع والساحات المليئة بالإقاحي والزهور ومختلف الورود والرياحين.

وقد سكن شتاينماير، في فيلا، هي غاية من الروعة والبهاء.. وكان الاسم الذي اختاره لها: أشعة الشمس!

ألد منظر له هو عندما يخرج من حوض السباحة ليرتمي على المروج المحاطة بإطار رائع اللون من الزهور.

كل هذا في شتاينماير، حسن وجميل، ولكن في شتاينماير ما يدعو إلى الحيرة أيضاً! شتاينماير، يكره المطالعة، ولا يحب العلم: صاحبنا كان قريباً إلى الامية، فهو لا يقرأ ولا يحب أن يقرأ..

إن الابحاث العلمية خاصة، هي أثقل ما يكون في نفسه، ومع ذلك فعيادته كانت تعج بالعلماء والمثقفين!

بين الكثيرين من رجال الاعمال، والمصانع، وأصحاب المزارع، كان هناك رجلاً كبيراً من رجال القانون، وعرفت شخصية أخرى تحمل لقب (مستشار دولة).

هذه اللمحة، تفيد في معرفة طريقته في (صنع الشفاء):

إن تشخيص المرض، هو بالالهام: نظرة، فجس، فربت على المكان الموحى فشفاء.. هكذا تبدأ المسرحية.. مسرحية الكهرباء!!

أما العيادة، فتقع في الطابق العلوي من (أشعة الشمس) وفي الصالة المعدة للفحص والمعالجة وضع ستة أسرة يستلقي عليها المرضى بعد خلع الثياب ليطوف (المعلم) عليهم..

وقد دخل أحد الاطباء المرموقين على شتاينماير وقال له أن طبيب جاء ليتعلم منه كرجل أستطاع أن يفعل أكثر مما يفعل الاطباء!!

هنا ظهر الزهو على شتاينماير، وشد على يده شداً، جعل الطبيب يعتقد أنه أمام ملاكم من عيار (محمد علي كلاي)، ولما صارحه بأنه لم يشعر.. بالكهرباء، أجابه وهو يضحك: هذا طبيعي، أنت لست مريضاً!!

لقد كان شتاينماير، مع كل هذا، بعيد النظر، لا يقبل إلا (العصبين) أو من يمت إليهم، والبت في الموضوع يعود دوماً إلى نظراته الحارقة، فالذين ليسوا من (أختصاصه) يرسلون إلى المستشفيات المجاورة في (جوسلار) أو غيرها.

وبقي شتاينماير لسنوات عديدة يشع على مرضاه من برجه الضاحك في (أشعة الشمس)!!

هنا نرى مرة أخرى كيف تداخل العلم مع الشعوذة، فكان هذا الايحاء سبباً في الشفاء من أمراض معينة.

وتبدو لنا الفكرة برمتها متناقضة إلى درجة خطيرة، لكن مع ذلك يمكننا أن نفهم شيئاً منها. فالمعلم الديني والمربي يؤمنان بإمكان غرس شيء في النفس البشرية لم يكن موجوداً فيها من قبل. إن قوة الايحاء أو الأثير أمر حقيقي، حتى أن أحدث المدارس السلوكية في علم النفس باتت تأمل بالوصول إلى نتائج بعيدة المدى في هذا المجال. الشكل البدائي يعبر عن بنية النفس المعقدة بمعتقدات واسعة الانتشار كالمس والانسلاخ وتجسد ارواح الأجداد وحلول الأرواح إلى غير ذلك. اذا عطس أحدنا فما زلنا نقول له: (بارك الله فيك!)، ونعني بذلك (نرجو ألا تؤذيك روحك الجديدة!).

عندما خرجنا في مجرى تطورنا من متناقضات متعددة الجوانب، وحققنا شخصية موحدة، كنا نعاني مما يشبه نفساً مؤلفة من عناصر مختلفة أنضم بعضها إلى بعض. ولما كان الجسم البشري قد شيد بالوراثة على أساس عدد من وحدات (ماندل)، كان من الأمور التي لا تخرج عن الموضوع تماماً أن نقول بأن النفس البشرية قد تم تركيب بعضها إلى بعض على نحو مماثل.

إن السحر بما هو غير منطقي أعطانا المنطق، ويسر لنا سبل تحقيق أهداف العلم بالولوج إلى مكانه، فكان سحر ساحر للبدائي، وعلم عالم للإنسان المتحضر.

قوة الاستدلال من النظرة الاولى

أحياناً يكون لنا قوة الاستدلال من النظرة الاولى؟

البعض يسمي ذلك بعلم الفراسة، فيما يذهب البعض الآخر إلى أن قوة الانطباعات الأولية لا يمكن العدول عنها، مهما فسرت لاحقاً؟

وهنا نرى، مرة أخرى، جانباً آخر من قوة الاستدلال، يستعمله الافراد والمجموع في حياتهم اليومية متوارثين ذلك عن الاباء والجدود؟

وواقع الحال أننا جميعاً نكوّن أحكاماً سريعة وآنية حول الغرباء. ففي حال ثوان معدودة من التقائنا بشخص ما نلتقط مجموعة كبيرة من التفاصيل ونستخلص أستنتاجات كثيرة منه، وقد نقرر على الفور ما اذا كان هذا الشخص دافئاً أو بارداً، قلقاً أو هادئاً، ودوداً أو عدائياً، سعيداً أو متضايقاً، وغالباً ما نسأل أنفسنا اسئلة معينة مثل: هل سأجد متعة في الحديث مع هذا الشخص، هل يمكن أن تكون هذه الفتاة صديقة، هل سأشعر معها بالإنسجام؟ وقد نغير رأينا تجاه شخص ما اذا تعرفنا عليه أكثر إلا أنه قد لا تتوفر لنا الفرصة لذلك.

مثل هذه الانطباعات تجمع عادة بين الملاحظة والاستنتاج والحدس، والحدس عبارة عن رسالة من داخل الانسان، لا يشعر بها عن وعي، ونلجأ إلى الحدس عندما نعرف شيئاً ما دون أن نعرف كيف نعرفه، فهو أحساس بشيء لا يمكن أن يرى أو يفسر، وغالباً ما يكون مصحوباً بإحساسات عاطفية ومرئية ومادية قوية ينظر إليها بإعتبارها جرس أنذار.

وحين نستخدم قوة الملاحظة لتكوين اراء معينة حول الغرباء غالباً ما نعتمد في ذلك على علامات ظاهرية، كنوع أو لون الملابس التي يرتديها الشخص وما اذا كنا نحب ذلك أم لا أو العبارات والالفاظ التي ينتقيها عند الكلام، سواء أكانت مزعجة أم محبة أو لكنته عند الحديث، وغير ذلك. والعديد منا يتوصل الى أستنتاجات ضخمة حول الاشخاص من طريقة

ارتدائهم للملابسهم مثلاً، إلا أن الآراء الأكثر عمقاً التي نكونها حول شخص ما عادة ما تكون مرتبطة بمشاعرنا وتجاربنا.

ويذهب العديد من علماء النفس الى القول أننا نميل إلى الأشخاص الذين نشعر بأنهم مماثلون لنا، غير أنه قد يكون هذا التماثل في بعض الأحيان خادعاً أو ظاهرياً، وعادة ما نستجيب بسرعة لجوانب في أنفسنا قد لا نملك القدرة للاعتراف بها وإنما نَجدها عند من حولنا كالعصبية مثلاً، وقد ننجذب تجاه اشخاص يختلفون عنا كل الاختلاف كالاصدقاء أو العشاق سعياً للبحث عن شيء ما في دواخلنا نشعر بحاجة ماسة - وأن كانت دون وعي- للتعبير عن ذواتنا.

إن بعض الناس - كما يبدو - أكثر قدرة من غيرهم على تكوين إنطباعات صحيحة، ولأن لم يتفق علماء النفس حول ما يميز تكوين حكم دقيق حول الأشخاص من النظرة الاولى، غير أنه من الواضح أن هذه القدرة لا علاقة لها بالذكاء وإنما بالحدس وما اذا كنا نستغله على الوجه الاكمل أم لا، فنحن جميعاً نعتمد على حدسنا في أشياء كثيرة، إلا أن بعض الناس أكثر استغلالاً لطاقتهم الحدسية هذه من غيرهم وبالتالي تكون أنطباعاتهم الأولى أكثر دقة. غير أنه من المهم هنا أن ندرك أنه بالرغم من أن الحدس يمكن أن يعزز من التفكير المنطقي إلا أنه لا يحل محله، ومن السهل جداً الخلط بين الحدس ومشاعر الخوف أو الرغبة، ونستطيع من خلال التمرين والتدريب المتواصل أن نعرف الفرق ونميز المواقف التي نسيء فيها فهم أفكارنا ومشاعرنا الداخلية ازاء الآخرين.

وقوة الاستدلال من النظرة الاولى أو علم الفراسة هو قديم جداً، حاول أصحابه بقرن الاعضاء بعضها ببعض أن يجدوا علاقة بين شكل الجسم والمزاج النفسي والاخلاق، وقد كتب في هذا الكثير، من أشهرهم عند العرب الشيخ ابن العربي في كتابه (التدبيرات الالهية في اصلاح المملكة الانسانية)، وخاصة في (فصل مختصر من الفراسة الحكمية على ما وصفته الحكمة في معرفة الناس). وهذا الكتاب يمتاز عن غيره بأنه وصف في دقة متناهية كل موضع في الجسم ومغزاه النفسي والاخلاقي.

يقول الشيخ أبن العربي:

أعلم يا أخي. وفقك الله وايانا، أن الهيئات ، أو اعدل النشآت الذي ينبغي أن تتخذه لك مشيراً وإليك سميراً وللملك، وليس بالطويل ولا بالقصير، لين اللحم رطبة، بين الغليظ والرقّة، أبيض مشرب بالحمرة أو صفرة، معتدل الشعر طويله ليس بالسبط ولا بالجعد القطط،

في شعره حمرة، ليس بذاك السواد.. أسبل الوجه بأعين مائلة إلى الغور والسواد، معتدل عظيم الرأس سابل الاكتاف، في عنقه استواء معتدل اللية، ليس في وركه ولا صلبه لحم، خفي الصوت، صاف ما غلظ منه وما رق مما يستحب غلظه أو رفته في اعتدال، طويل البنان للركة، سبط الكف، قليل الكلام والضحك إلا عند الحاجة، حيل طباعه إلى الصفراء والسوداء، أعدل الخلقة وأحكمها، وفيها خلق سيدنا رسول الله (ص) حتى صبح له الكمال ظاهراً أو باطناً، فإن قدرت ألا تصحب إلا مثل هذا فافعل.

لا تقف مع شهوتك اذا لم ينور الله تعالى بصيرتك، فإن رزقت النور الالهي فأنت اذ ذاك سلطان العالمين وصاحب الحقيقين الموجود تحت قهرك ورياستك وأمرك.

وأعلم يا أخي أن الحكماء زعموا في مقالاتهم في الفراسة، ورأيت ذلك تجربة، أن أعدل ماتقدم وصفه، وما ذكروا في مقالاتهم أن البياض الصادق مع الزرقة والشقرة الكثيرة دليل على القحة والخيانة والغش وخفة العقل، فإن كان مع ذلك واسع الجبهة ضيق الذقن أزعر أوجز، كثير الشعر على الرأس، فقالت الحكماء: أن التحفظ ممن هذه صفته كالتحفظ من الافاعي.

وأعلم أن الحكماء قالوا: أن الشعر الخشن يدل على الشجاعة وصحة الدماغ، والشعر اللين يدل على الحمق والجرأة.

وكثرة الشعر على الصدر والبطن يدل على وحشية الطبع وقلة الفهم وحب الجور.

والشقرة دليل على الحمق وكثرة الغضب وسرعته والتسلط.

والاسود من الشعر يدل على العقل والاناة وحب العدل، والتوسط بين هذين يدل على الاعتدال.

أما الجبهة المنبسطة التي لا غضون فيها فهي تدل على الخصومة والشغب والرقاعة والصلف.

ومن كانت جبهته متوسطة في التواء والسعة وكان فيها غضون فهو صدوق محب فهم عالم يقظان مدير حاذق.

وما كان عظيم الاذنين فهو جاهل إلا إنه يكون حافظاً، ومن كان صغير الاذنين فهو أحمق سارق.

وفيما يخص الحاجب الكثير الشعر فهو يدل على العجب وغش الكلام.

فإن أبتعد الحاجب إلى الصدغ فصاحبه متباه صلف.
ومن رق حاجبه وأعتدل في الطول والقصر فهو يقظان فهيم.
أما اردأ العيون فهي الزرق الفيزوزخية، فمن عظمت عيناه وجحظت، أي فرجت مقلتها،
فهو حسود وقح كسلان غير مأمون وإن كانت زرقاً كان أشد، وقد يكون غاشاً.
ومن كانت عيناه متوسطة مائلة إلى الغور والكحلة فهو يقظان فهيم ثقة محب، فإن
أخذت في طول البدن فصاحبها خبيث.
ومن كانت عينه جامدة قليلة الحركة كالسهم حيث النظر فهو جاهل غليظ الطبع، ومن
كانت في عينه حركة بسرعة وحدة نظر فهو محتال لص غادر.
ومن كانت عينه حمراء فهو شجاع مقدان، فإن كان حواليتها نقط صفر فصاحبها أشر
الناس وأردأهم.
وإذا كان الأنف رقيقاً فصاحبه نزق.
ومن كان أنفه يكاد يدخل في فمه فهو شجاع.
ومن كان أفطس فهو شبق.
ومن كان ثقب أنفه شديد الانفتاح فهو غضوب.
وإذا كان غليظ الوسط مائلاً إلى الفطوس فهو كذوب مهذار.
وأعدل الانوف ما طال غير طول فاحش، ومن كان أنفه متوسط الغلظ، وقناه غير فاحش،
فهو دليل العقل والفهم.
أما من كان واسع الفم فهو شجاع.
ومن كان غليظ الشفتين فهو أحمق.
ومن كان متوسط الشفتين في الغلظ مع حمرة صادقة فهو معتدل.
ومن كانت أسنانه منبسطة صف ما بينها قبيح فهو عاقل ثقة مأمون مدبر.
ونصل إلى الوجه، فمن كان لحم الوجه منه متنفخ الشدقين فهو جاهل غليظ الطبع
ومن كان نحيف الوجه أصفر فهو رديء خبيث خداع شكس.

ومن طال وجهه فهو وقح.
ومن كانت أصداغه منتفخة وأودجته ممتلئة فهو غضوب.
ومن نظرته فأحمر وخجل وربما دمعت عيناه، أو ابتسم تبسماً لا يريد، فهو لك متودد
ومحب، لك في نفسه مهابة.
والجهير يدل على الشجاعة، والمعتدل بين الكد والتأني والغلظة والركة يدل على العقل
والتدبير والصدق.
وسرعة الكلام ورقته يدل على القحة والكذب والجهل.
والغلظة في الصوت دليل على الغضب وسوء الخلق.
والغنة في الصوت دليل على الحمق وقلة الفطنة وكبر النفس.
ويدل التحرك الكثير على الصلف والهذر والخداع، وقار في الجلسة ويتدارك اللفظ بتحريك اليد.
إن الكلام دليل على تمام العقل والتدبير وصحة العقل.
أما قصر العنق فهو دليل على الحسد والمكر.
وطول العنق ورقته دليل على الحمق والجبن، فإن أنضاف إليها صغر الرأس فإنه يدل على
الحمق والسخف.
وغلظ العنق يدل على الجهل وكثرة الاكل.
ونصل إلى البطن الكبير فهو يدل على الحمق والجهل والجبن.
فلطافة البطن وضيق الصدر يدلان على جودة العقل وحسن الرأي.
وعرض الكتفين والظهر يدلان على الشجاعة وخفة العقل.
وأنحاء الظهر دليل على النكاسة والزاقة.
واستواء الظهر علامة محمودة.
وبروز الكتفين دليل على سوء النية وقبح المذهب.
أما الذراعان فإذا طالت حتى بلغ الكف الركبة دل على الشجاعة وكرم ونبل النفس، وإذا
قصرت فصاحبها جبان محب للشر.
والكف الطويل مع الأصابع الطوال تدل على النفوذ في الصناعة وأحكام الاعمال وتدبير
الرياسة.

إن اللحم الغليظ في القدم يدل على الجهل والجور.
والقدم الصغير اللين يدل على الفجور.
ورقة العقب على الحسن والجبن، وغلظه يدل على الشجاعة.
وغليظ الساقين مع العرقوبين يدل على البله والقحة.
ومن كانت خطاه واسعة بطيئة فهو منجح في جميع أعماله مفكر في عواقبه والضد للضد.
وهذا وفقك الله فصل مختصر من الفراسة الحكيمة^(*).

وما أورده ابن العربي ناجم عن اختبارات وأستنباطات عقلية وليس مبنياً على أسس نهجية علمية.. ومع ذلك فإن هذا الارتباط الوثيق القائم بين أجزاء الجسم والنفس من جهة، والعالم الخارجي من جهة أخرى، يشير إلى وجود حتمية رياضية نراها ماثلة أمامنا في اختبارات الاقدمين وأجماعهم على ذلك.

وفي وقتنا الراهن أعطى العلم أهمية للسجية والمزاج والبنية في الكثير من الدراسات التي أجريت.

ولعل عالم النفس كرتشمير هو من العلماء الذين أهتموا كثيراً في معرفة نموذج الناس الذين لهم أمراضهم، أو معرفة الناس عن طريق الفراسة. وقد لقيت هذه المدرسة الكثير من المعارضة، حتى أن البعض نعتها بـ(السخف)، وكان طبيعياً مثل هذا الهجوم لأن الأسس التي وضعتها هذه المدرسة قد هيأت لانقلاب في التفكير والأساليب التي أتبعته حتى تاريخه.

لقد أكتشفت نقائص كثيرة في نظرية (فراسة كرتشمير)، ولا يمكن الاخذ بها، ولكن علم النفس (برأينا) يبقى نموذجاً لجمع آراء واجتهادات لعلماء لا يملكون وضع قانون (علمي) بحث، كقانون رياضي.

وقد ذهبت نظرية (كرتشمير) إلى أن المزايا التي لا تقدر بثمن، أن يعرف الطبيب أن هذا المريض (الليبتوزوم مثلاً) النحيل، هو من الناس الذين عندهم الاستعداد الكبير لهذه الأمراض: السل الرئوي، القرحة، البازدو، الزائدة الدودية، أمراض الكلية، وغيرها من الأمراض.

(*) أورد هذا النص الدكتور صبحي أو غنيم في كتابه نظرة في أعماق الانسان عن رسالة مخطوطة لم تطبع بعد (١٩٥٨) للشيخ محيي الدين العربي، وهي في حوزة الاستاذ أبي النصر اليافي. وهذا البحث له قيمته التاريخية لأنه يجمع في صفحاته القلائل موجز ما عرف حتى تاريخ الشيخ محيي الدين من أقوال في (الفراسة)، وقل أن نجد في كتاب قديم ما تجده في رسالة الشيخ من اعتناء بكل ناحية من نواحي الجسم مهما كان شأنها.

ثم أنه من المفيد جداً للمريض والطبيب معاً، أن يصبح بالإمكان أن هذا الشخص - البدين مثلاً، هو من الناس الذين عندهم الاستعداد الكبير لهذه الامراض: التهاب المرارة، الباكترياس، مرض السكر، تصلب الشرايين، وأمراض أخرى.

ولم تقف هذه النتائج الخطيرة التي أنتهت اليها مدرسة كرتشمير عند تسهيل التشخيص فحسب، بل أن هناك من النتائج في العلاج ما هو أكثر أهمية ونفعاً من هذا.

وتختلف هذه النماذج في أجاباتها على الدواء الواحد اختلافاً من مصلحة الطبيب والمريض معرفته والاستفادة منه. من ذلك أن أثر بعض الادوية كالادرنالين والبيلوكاربين واليوروتوين والافرتين والكارديازول ومشتقاتهما، هو غيره عن الفريق الآخر.

بل أن هناك ما هو أكثر أهمية من كل ذلك، اختلاف الدفاع الجرثومي باختلاف النماذج، وذلك لإختلاف طبيعة الكريات البيضاء والعوامل التي تدفع بها، كما أن ضغط الدم يختلف، فيما يبدو طبيعياً عند فريق يكون مرضياً عند الآخر.

ولم يكن لإكتشاف مدرسة كرتشمير أن تحدث أنقلابها في الساحة الطبية فحسب، بل وفي النواحي الاجتماعية في كثير من وجوهها، ذلك أن أكتشاف أسرار الجسم يجعلنا قريبين من هذا.

وكانت الضجة التي رافقت ذلك هي أن استعداد بعض النماذج لأمراض خاصة لا يمرض بها النموذج الآخر بنسبة النموذج المذكور، وكون بعض النماذج لا تعمر طويلاً ويهرم أصحابها باكراً، ستجعل (تشريع الدولة) عاجلاً أو آجلاً يهتم بهذه النواحي في الزواج وفي التناسل، فيغير هذه الناحية ما يتوجب عليها من قوانين. كما سيكون في الساحة الصناعية من مصلحة العامل ورب العمل التمييز بين النماذج التي تحب الدقة في العمل، والتي بإمكانها المثابرة مدة طويلة، وبين تلك التي هي بالعكس، فلكل نموذج مزاياه وصفته الخاصة التي ينسجم بها مع العمل. بل أن هذه الأمور تأخذ مكاناً أوسع في ميادين أخرى.. ففي المصالح التي تستدعي كتمان السحر والحرص والحذر، لا ينتقي لها من النماذج البشرية من لا يستطيع ذلك بالنسبة لبنائه وتكوينه الجسمي والنفسي.

ومجموع الحوادث التي أيد بها كرتشمير اكتشافاته بلغ (٥٢٩٤٥) حادثة، وذلك بعد الفحص والتجارب حتى عام ١٩٤١. ومثل هذه الاختبارات والتجارب أيدتها شبيهاًتها في جامعات أوروبا وأمريكا، وحتى الشرق الأوسط.

إننا حين نستطيع أن نجد العلاقة القانونية بين نماذج الجسم ونماذج النفس، نكون قد وضعنا لاساس لعلم البنية والمزاج.. بهذه الفكرة وضع كرتشمر الاساس لمدرسته.

أما الطريق التي رسمها لأبحاثه فهي أن يقيس ويشاهد، فالشكل والوظيفة ليسا ضدّين ولا يوجد اليوم شيء في الجسم لا نهتم به.

وكما أن علامة (بابنيسكي) تدلنا على أمور هامة في صميم المركز العصبي، كذلك كل سائتمتر في حجم اليد، وكل درجة في زاوية الفك، وكل شعرة في الجسد لها مغزى وأهمية كبيرة.

والنماذج التي أقرها كرتشمر هي: البدن والنحيف والرياضي، ثم نوع هو مزيج من هذه النماذج الثلاثة.

أما الامزجة فهي المتصل والمنفصل أو السيكلوتيم والشيتروتيم.
غير أن هذا التقسيم مشروط بالملاحظة الهامة التالية:

(لا يقتضي أن يكون البدن سميناً).. إذ (أن البناء الجسمي هو الاساس في تشخيص النماذج، وليست البدانة والنحافة). وكقاعدة لهذا التقسيم: البدن هو سيكلوتيمي، دوري (وهو يقابل المنبسط عند يونغ)، والنحيف هو شيتروتيمي في كثير من الاحيان، إذ لا يمتنع أن يكون هناك مزيج من الاثنين فتكون أكثر العلام تدل على البدانة مع أن المزاج هو فصامي، أو أن يكون هناك نحافة في البناء الجسمي مع مزاج متصل أو (دوري). وهذه النماذج المتنوعة من هذا القبيل هي في المتصلين (سيكلوتيم) أكثر مما هي في المنفصلين (شيتروتيم).

إضافة إلى ما ذكره كرتشمر توسع علماء النفس في دراسة تعابير الوجه.. وكما قال رالف والدو ايمرسون فإن أعين الاشخاص تقول أكثر مما تقول ألسنتهم، وكلامه هذا لا يحتاج فهمه إلى أي قاموس، وهو مفهوم في أنحاء العالم كافة. وتعتبر تعابير الوجه واحداً من أقل المجالات اثارة للخلاف والجدل في حقل التعبير والاتصال غير اللفظي، كما أنه من السهل جداً ملاحظة هذا النوع من الاشارات. أننا غالباً ما نركز بصرنا على الوجه أكثر من أي جزء آخر من أجزاء الجسم، كما أن الاشارات التي يمكن ملاحظتها على الوجه تتضمن معاني مقبولة على نطاق واسع، واجه كل واحد، ولو لمرة واحدة على الأقل، (النظرة) التي تستطيع أن تقتل و(عين السمكة) و(نظرة تعال إلى هنا) أو (نظرة أنني موجود ومتاح).

أثناء جلسات/مفاوضات العمل، يستطيع المرء أن يلاحظ تشكيلة غنية ومتنوعة من تعابير الوجه. على الجانب المتطرف يقف المفاوض الهجومي والعدائي الذي ينظر الى المفاوضات

كحلبة وحيث يسيطر موقف الفوز أو الموت. هذا النوع من المفاوضين، غالباً ما ينظر اليك بعينين مفتوحتين على مدى واسع، وشفيتين مغلقتين بشدة، وزوايا حاجبية منخفضة، حتى أنه يتحدث أحياناً من خلال أسنانه، وبأقل قدر من تحريك الشفتين. وفي الجانب الآخر من الطيف يقف ذلك الشخص الذي يأتي الى طاولة المفاوضات بطريقة صميمة، بعيدة عن أي خطأ، وبمظهر يشبه مظهر المرتلين في جوقة المبد، بجفون ناعسة، أو نصف مفتوحة، وأبتسامة خفيفة ولطيفة، وحواجب متوضعة بهدوء وسلام، وبدون أي أثر للتجاعيد على الجبهة. ومن المحتمل أن يكون هذا النوع من المفاوضين الأكثر مقدرة، وهو الأقدر على المباراة والمنافسة، وهو الأكثر أيماناً بالتعاون كعملية ديناميكية.

وقد لاحظ جان تيمبلتون، الخبير النفساني أنه إذا كانت عينا الزبون منسدلة، تتطلع إلى الأسفل، وإذا ما كان وجهه يلتفت بعيداً، فإنك تكون قد منعت من الدخول، وصد الباب في وجهك. ولكن، إذا ما كان الفم مسترخياً، وبدون أية أبتسامة مصطنعة، والذقن مندفع إلى الامام، فمن المرجح أن هذا الزبون يفكر ويتأمل حضورك وعرضك. وإذا ما شغلت عيناه عينيك لعدة ثوان من الزمن، فإن هذا الزبون يكون في وضع من يفكر باقتراحك وبعد ذلك، إذا ما تحرك رأسه الى وضع يكون فيه موازياً لرأسك، وأسترخت وأتسعت إبتسامته، وبدأ متعاطفاً، فمن المؤكد أنه سوف يشتري سلعتك.

لقد أكتشفنا أن العديد من الاشخاص، الذين يعترفون بوجود الاتصال عبر تعبير الوجه، لم يحاولوا إطلاقاً أن يفهموا، على نحو دقيق كيف يتواصلون على سبيل المثال، أن أي لاعب بوكر، يفهم بوضوح، ماذا تعني عندما تقول أن له (وجه البوكر). ومهما يكن، فإن عدداً قليلاً منهم يحاول في الواقع تحليل المعنى الكامن ل عدم التعبير عن أية عواطف، النظرة المحايدة والخالية من أي معنى، النظرة التي لا تفصح عن أي شيء، والتعبير الرواقي الرزين، إلى غير ذلك.

ويمكن للقارئ، على نحو احتمالي، أن يتحدث عن وجوه غاضبة، ووجوه سعيدة، ووجوه حزينة، أو متأملة، أو جريحة ومتضررة. أنك تتحدث عن هذه الوجوه في الوقت الذي تتأملها، لكن معرفة الناس بهذه الوجوه تتوقف عند هذا الحد.

الصينيون، على سبيل المثال، يتميزون على غيرهم من سائر البشر بدراستهم الدقيقة والكاملة للوجه الانساني، وهم يدعون هذه الدراسة الثاقبة (سيانغ ميان). وتعرف المعاجم (سيانغ ميان) بأنه (قراءة الوجوه) أو (ملاحح الوجه الدالة على المزاج والخلق) أو (معرفة مصير الانسان بالتدقيق في سيماء وجهه). والحق يقال أن سيانغ ميان هي الطريقة الوحيدة التي تمكك بالقدرة على قراءة خلق أي شخص تصادفه، ومعرفة حسن طالعه أو سوء طالعه.

لقد وضع الكثير من الباحثين دراسات عن سيانغ ميان، وأشار جوزيف نيدهام، الاستاذ في جامعة كمبريدج في موسوعة (العلم والحضارة في الصين) إلى قدم سيانغ ميان. وبهذا الخصوص كتب نيدهام معلقاً (تتمثل الحصيلة الرئيسة لدراسة سيماء الوجه وقراءة الكف في الاكتشاف المبكر الذي قام به أهل الصين، اذا تمكنوا من استخدام سيانغ ميان لتعيين هوية الشخص من دراسة بصمات الأصابع). ومارس الصينيون طرقاً عديدة للتنبؤ دامت فترة زمنية، تجاوزت سبعة آلاف سنة، وكان الابطارة ورسميو الحكومة يستدعون الخبراء لكي يقوموا النصيحة لهم حول أمور تتعلق بالرحلات، والحملات العسكرية، والزيجات، وشؤون الدولة، وحول كل ما يمكن أن يكون له تأثير في الانسان والطبيعة، والارض والسماء.

إن طريقة سيانغ ميان الصينية قد تميزت بأهمية كبرى، امتدت طوال فترة تجاوزت ألفي عام. وظل هذا العلم سرّاً، يلقنه المرشدون لمريديهم وتلامذتهم. وكانت الكتب الموضوعية تحفظ في مكاتب القصر، وتوضع تحت تصرف الابطارة. لكن الكتب الموضوعية حُرقت والقصور نهبت خلال التاريخ العاصف، المشحون بالحروب والثورات الدامية.

وإن ما نعرفه عن سيانغ ميان، في أيامنا هذه، تحدر اليها، بمعظمه، خلال العصور عن طريق التعليم الشفهي. ولقد أضاف إليه مدرسيو وطلاب سيانغ ميان الذين تجولوا في بلدان كثيرة سعياً إلى ملاحظة ودراسة وجوه الناس.

وقد تضاءلت أهمية هذه الطريقة التنبؤية الاخرى في الصين، أو أصبحت مجرد ألعاب مسلية يستحسنها الناس أثناء لقاءاتهم. وعلى الرغم من كل الصعوبات، فقد ظلت سيانغ ميان على قيد الحياة، هذا، لأن الوجه، وهو مرآة الروح، يكشف بوضوح حقيقي أفكار الانسان الداخلية، ونواياه، ومشاعره أكثر من أي شيء آخر.

وفي الوقت الحاضر، تمارس العائلات الصينية سيانغ ميان دون ذكر لهذه الطريقة بالأسم.. وتذكر ليلان يونغ أن أهلها قد حذروها من مغبة الزواج من رجل يتميز بأذنين لهما فضاء صغيران، أو يتصف بأنف مسطح. ولهذا يلاحظ كل من يعاشر الصينيين، أو يحيا معهم، عادة التحديق في الوجه، فمتى حدّق الصينيون في وجهك، أدركت أنهم يسعون الى تقويم شخصيتك. وتتمثل في العلاقة الوثيقة التي يقيمونها بين شخصيتك ووجهك في التعبير الذي أتت به حكمتهم القديمة: (يمكنك أن تضرب رأس انسان، إنما لا يحسن بك أن تضربه على وجهه، ولا يحسن بك أن تتهجم على شخصيته حتى ولو شتمته).

تبقى ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي أن الوجوه الجميلة أو الوسيمة ليست، بالضرورة، (طيبة). فقد يتصف امرؤ ببشاعة الخطيئة، ومع ذلك ينعم بوجه يطفح بالسعادة والنجاح

والبركة، وهذا لأن الجباه العالية، والأنوف المستقيمة المتميزة، بمنخرين كاملين سميين، والآذان السمكية المتميزة بفصوص كبيرة، والذقون المستديرة أو المكورة، أو الخال الواقع قرب القسم الأعلى من الاذن، تشكل بمجملها بعض الملامح التي يرغب الناس فيها أكثر من غيرها، وبخاصة أنها تجلب الحظ الاوفر.

وتستهل طريقة سيانغ ميان دراستها بالتعرف على هيئة أو مظهر الوجه، وتطابق ملامحه. وعلى هذا الاساس، يمكنها، في المرحلة الاولى، أن تتبين الخطوط العريضة للطباع والخلق. وفي المرحلة الثانية، تتفحص أجزاء الوجه، الواحد تلو الآخر: الجبين، الحاجبين، العينين، الأنف، الفم، الأسنان، الأذنين، الوجنتين والذقن. وتدرس سيانغ ميان الحالات الهامة وتفسر المغزى المتضمن فيها، ومناطق خاصة في الوجه تحدثنا عن الصحة، الثروة، والمهنة، وسيرة الحياة والأصدقاء والعلاقات العائلية والحب. كما تعتقد سيانغ ميان أن التناقضات التي نواجهها في الحياة مردها إلى التناقضات القائمة في الوجوه. هذا، لأن التناقض عنصر أساسي من عناصر الشخصية الانسانية، وترينا سيانغ ميان موقع التناقضات الداخلية، وتختبر قدرة القسمة في سبيل تحديد القسمة التي يحتمل أن تهيمن في أية ظروف معينة. وإذا شئنا الحصول على أفضل ما يمكننا الحصول عليه من سيانغ ميان، ترتب علينا أن نأخذ كلية وجه الشخص الذي نتفحصه بعين الاعتبار. وعندئذ نستطيع أن نفرّد قسمة مهيمنة في الوجه الذي يجذب اهتمامنا، ونقرأ ما يتصل بالمغزى الذي يتضمنه.

إن قوة الاستدلال من النظرة الاولى لم تأت عن عبس، فهي نتيجة لتطور طبيعي رافق الانسان منذ نشأته. وبشأن علمية علم الفراسة أو عدم علمية ذلك، فإن الامور تؤخذ بحد نسبي وليس بالمطلق، وهذا ما أكدته الاختبارات النفسية.

وقد أتت هذه الخبرة أستاذاً إلى وجهة النظر التقليدية التي تقول أن الشخص يرى العالم من حوله ويتعامل معه لكي يتعرف عليه. وهو بمعنى ما يمد يده ويمسك به، ولا يلبث (أن يستوعبه) ويمتلكه. أنه (يعرفه) بالمعنى التوراتي الذي يعرف الرجل بموجه المرأة، بل أنه يقال أيضاً في معرض النقاض: أنه ما كان العالم ليوجد لو لم يره أحد. لكن العمل يُعكس تماماً في حالة التحليل البيئي. طبعاً لن تكون هناك أية رؤية اذا لم يكن هناك عالم يُرى، غير أن الطفل يستجيب بطريقة ما إلى وجه أمه وبطرق أخرى إلى الوجوه الاخرى أو الأشياء الأخرى، انه يقوم بهذا التمييز ليس من خلال عملية ادراك ذهنية، وانما بناء على ظروف وطوارئ سابقة، وبعض من هذه قد تكون طوارئ بقاء. أن الملامح المادية لأحد الأجناس هي بوجه خاص أجزاء مستقرة من البيئة التي ينشأ فيها هذا الجنس (هذا هو السبب الذي يجعل علماء الأخلاق

المقارنة يعطون المغازلة والجنس والعلاقات ما بين الأبوين والذرية مثل تلك المكانة البارزة). إن الوجه وتعبيرات الوجه عند الأم تقترب بالأمن والدفع والغذاء وغير ذلك من الأشياء الهامة خلال كل من تطور الجنس البشري وحياة الطفل.

نتعلم أن ندرك بمعنى أننا نتعلم أن نستجيب للأشياء بطرق معينة بسبب الطوارئ التي تكون الأشياء جزءاً منها، قد نرى وندرك الشمس - مثلاً - فقط لأنها مثير شديد القوة، غير أنها كانت جزءاً دائماً من بيئة الجنس البشري طيلة فترة تطوره وكان ممكناً اختيار سلوك أكثر تحديداً بالنسبة إليها، عن طريق طوارئ البقاء (كما كان الحال مع أنواع أخرى كثيرة). وللشمس أيضاً مكانتها في الكثير من طوارئ التعزيز الراهنة، فنحن نتحرك نحو ضوء الشمس أو نتحول عنه تبعاً لدرجة الحرارة، ومنتظر شروق الشمس أو غيابها لنقوم بتصرف عملي، ونتكلم عن الشمس وتأثيراتها، وندرس الشمس آخر الأمر بأدوات العلم ومناهجه. يعتمد أدراكنا للشمس على ماذا نعمل بالنسبة لها، ولكن مهما عملنا وكيفما أدركناه، تبقى الحقيقة قائمة بأن البيئة هي التي تؤثر على الشخص المدرك، وليس الشخص المدرك هو الذي يؤثر على البيئة.

الادراك والتعرف اللذان ينبثقان من الطوارئ اللفظية هما أيضاً وبوضوح أكبر من إنتاج البيئة. أننا نستجيب لشيء ما بطرق عملية كثيرة بسبب لونه. فنحن نقطف ونأكل التفاح الأحمر من صنف خاص، ولكن ليس الأخضر، ومن الواضح أن بمقدورنا (معرفة الفرق) بين الأحمر والأخضر، ولكن الأمر ينطوي على أكثر من ذلك حينما نقول بأننا (نعرف) أن هذه التفاحة حمراء وتلك خضراء. ومن السهل أن نقول بأن عملية التعرف هي عملية فكرية منفصلة كلياً عن العمل، غير أن الظروف والطوارئ تقدم لنا تمييزاً أكثر نفعاً.. حينما يسأل شخص ما عن لون شيء لا يستطيع رؤيته ونقول له: أنه أحمر، فإننا لا نفعل شيئاً بشأن الشيء بأية طريقة أخرى. الشخص الذي سألنا وسمع إجاباتنا هو الذي يقوم باستجابة عملية تعتمد على اللون. إنه بمقدور المتكلم في ظل الطوارئ اللفظية فقط الاستجابة إلى خاصية معزولة لا يمكن أن تلقى استجابة غير لفظية. الاستجابة إلى خاصية الشيء دون الاستجابة للشيء ذاته بأية طريقة أخرى هي ما يعرف بالاستجابة (التجريدية). والتفكير التجريدي هو من نتاج نوع خاص من البيئة وليس نتاجاً للملكة التعرف.

وأخيراً فإن الحديث عن قوة الاستدلال من النظرة الأولى تضعنا أمام العلاقة العكسية بين مقدار التقدير ووضوح الأسباب، وتتضح هذه العلاقة العكسية بوجه خاص حينما يكون

السلوك خاضعاً بجلاء للميراث. ان مقدار ثنائنا على شخص لأنه يشغل جهازاً معقداً يعتمد على الظروف. فإذا أتضح أنه إنما يقلد شخصاً آخر، وأن شخصاً ما (يريه ماذا يعمل)، فإننا لا ننسب له سوى فضل ضئيل - يتلخص في قدرته على محاكاة السلوك وتنفيذه. وإذا كان يعمل بموجب تعليمات شفوية، أي إذا كان هناك شخص (يقول له ماذا يعمل) فإننا ننسب له فضلاً أكبر قليلاً، على الأقل لأنه فهم اللغة على نحو جيد مكنه من اتباع التوجيهات. وإذا كان يعمل حسب تعليمات مكتوبة، فإننا نعطيه تقديراً إضافياً على معرفته كيف يقرأ. ولكننا لا ننسب إليه فضل (معرفة كيفية تشغيل الجهاز) إلا إذا قام بذلك دون توجيه، مع أنه ربما كان قد تعلم ذلك من خلال المحاكاة أو اتباع تعليمات شفوية أو كتابية، ولكننا نعطيه أقصى حد من التقدير إذا اكتشف كيف يدير الجهاز بدون مساعدة لأنه حينئذ لا يكون مدينناً لأي معلم أو مدرب في أي وقت من الأوقات. حينذاك يكون قد تشكل كلية حسب المصادفات والملايسات غير الواضحة نسبياً، والتي أوجدها الجهاز، وهذه تكون الآن عبارة عن تاريخ.. مضي وأنقضى.

الرجم بالغيب

هل يفكر الانسان ويعرف ما يخبئه الغيب؟

إنه سؤال غاية في الغموض ما دام معنى التفكير لم يتحدد في وضوح، ويجوز لنا أن نضع السؤال نفسه على هذه الصورة: هل يعرف الواحد من الناس حوادث في نفسه لا تدخل في مجال المعرفة الطبيعية الشاملة؟

الجواب على هذا السؤال هو أن الانسان - في الغالب - يعرف أشياء لا تقع في العلم الطبيعي في شيء، فقد يلم الأعمى بالعلم الطبيعي، إلاماً كاملاً، ومع ذلك فهو لا يعلم كيف تبدو الأشياء للمبصرين، فلا يعرف الفرق بين الأحمر والأزرق كما تدركه العين، نعم أنه يعرف أطوال الموجات الضوئية ماذا تكون في حالة الأحمر وفي حالة الأزرق، لكن التمييز بين الأحمر والأزرق في رؤية العين أمر لا شأن له بأطوال الموجات، وقد عرف الانسان كيف يميز هذا اللون من ذاك قبل أن يعرف شيئاً عن موجات الضوء وأطوالها، فهذا التمييز اللوني لا يدخل جزءاً من علم الطبيعة، وقل شيئاً كهذا فيما نعلم أنه (لذيذ) أو أنه (مؤلم)، فلا يتوقف أدراكنا للذة أو للألم على معرفتنا للآثار العضوية التي تحدث في جسم الانسان في حالة اللذة وفي حالة الألم، واذن فالعلم بما هو لذيد وبما هو مؤلم لا يدخل جزءاً من العلم الطبيعي.

وفي ذلك يقول برتراندرسل أن (ديكارت) قد أصاب حين جعل الحقيقة تدرك من الباطن، وأن (واطسن) قد أخطأ حين جعلها تدرك من الخارج، ولقد بنى (واطسن) مذهبه على واقعية ساذجة عن العالم الطبيعي، وأعتقدني هو أن الانسان بملاحظته لنفسه من الداخل يحصل معرفة لا تكون جزءاً من العلم الطبيعي.

ولقد أستخدم الانسان، على مر الازمان والعصور، وسائل عديدة للوصول إلى معرفة الغد، وأن تعذرت معرفة الغد المباشر، فالمستقبل القريب أو -وهذا أضعف الايمان- المستقبل البعيد. ومن

بين هذه الوسائل النجوم، وبينها الرمال، وبينها أيضاً فناجين القهوة والودع والحسابات المعقدة، وبينها من ثم خزعبلات أخرى لا يعلم إلا الله ماذا تكون أدواتها.

كما أختلطت الصورة لدى الناس منذ الماضي بين الدين والبحث عن المستقبل، حتى كان الاعتقاد السائد هو أن المنجمين يتلقون الوحي من السماء، أو من قوى غامضة تنطقهم وتوحي لهم بما يقومون، ويأتونه من أفعال.

وكانت الرهبة والخوف من هؤلاء الناس ومما قد يأتونه من أفعال تجعل سائر العباد تخشى غضبهم. وفي الاساطير الاغريقية أن (أوليس) بعد أن قدم الذبائح ظهر له ظل (تيريسياس) المقدس من أعماق الجحيم وأمره (أرفع سيفك لأشرب الدم وأقول لك الحقيقة). ومثل هذا الأمر يعزوه البعض إلى الصورة الذهنية؟

وتفسير ذلك أنه إذا ما اغمضنا عيوننا كانت لدينا صور بصرية للمناظر والوجوه التي سبق لنا أن رأيناها، وكذلك تكون لدينا صور سمعية عندما نستعيد نغمة كنا قد سمعناها، كما تكون لدينا صور لمسية حين ننظر إلى فراء ثم نتصور كيف يكون ملمسه على الأصابع إذا ما مسسناه بالأيدي، هذه كلها تجارب لا سبيل إلى الشك في وجودها.

لكن السؤال هو: كيف نصف أمثال هذه التجارب؟ وكذلك قل في مجموعة أخرى من تجربة الانسان، ألا وهي الاحلام التي لا تختلف عن أحاساتنا أثناء الصحو إلا في عدم ارتباطها بالعالم الخارجي، إذ هي لا تتصل بهذا العالم العقلي بنفس الصلات التي تكون بين عالم الاشياء وعمليات الحس أبان الصحو والوعي، فالأحلام حقيقة واقعة لا شك فيها. ومرة أخرى يفرض السؤال ذاته: هل تشتمل على (صور ذهنية) أو لا تشتمل على شيء من هذا القبيل.

لا يسلم أنصار المذهب السلوكي بوجود الصور الذهنية كما أنهم لا يسلمون أيضاً بالأحاساس والادراكات الحسية، إذ تراهم يذهبون إلى رأى مؤداه ألا شيء هناك سوى مادة وحركة، فلا يجوز لنا، إذن، أن نتحدث عن الصور الذهنية حديثاً نقارنها لما يحدث لنا من أحساسات وادراكات حسية إلا إذا أقمنا الدليل الواضح القاطع على وجود هذه الأخيرة ثم حددنا خصائصها ومنزلتها.

★ ★ ★

الملفت للنظر في طريقة التعاطي مع الرجم بالغيب هي أنه في إيماننا هذه، لم تعد الامور على ما كانت عليه من تعقيد. والمنجمون، أو المتنبئون المعاصرون أكثر تواضعاً من أسلافهم،

إنهم ينهون تنبؤاتهم غالباً بجملة (الله أعلم) تنكراً منهم للخطأ، لكي يكون الصواب هو الذي يتمسكون به وينسبونه إلى أنفسهم، وذلك مع تطور الزمن ولانتشار العلم والمعرفة.

لقد بات معظم الناس يرددون أنه ليس في أي تنبؤ، أي نوع من الحقيقة، قائلين أنه نوع من (الرجم بالغيب) أشبه بالتوقعات الصحافية، بعضه يصيب فيسجل (سبقاً) يستشهد به، ومعظمه يخطئ، فلا يذكره أحد، ويسدل عليه ستار النسيان.

كلنا نذكر الضجة الاعلامية التي قامت بعد حرب ١٩٦٧ وكيف (نبش) كتاب الكاتب الهندي كارانجيا المسمى (خنجر اسرائيل) والذي صدر منذ عدة سنوات وترجم للعربية، دون أن يشير أي ضجة، أقول كيف (نبش) من عن الرفوف الممتلئة بالغبار وبدأ الناس يفسرون كل كلمة قالها المؤلف بنبؤة تطبق الآن على الواقع!!

واذا قيل اليوم (أن في المنجمين والمتنبئين شيئاً من السماء) ففي السابق كان يقال (أن الاله يتكلم من فم الكاهنة بيتي).

واذا كنا الان نستعمل عبارة التخطيط المستقبلي لخمس أو عشر سنوات، فما أدراك بـ(التخطيط) السابق الذي كان يعرف بـ(التنبؤ). والفارق بينهما هو فارق العصر، بين الجهل والتقدم، العلم والخرافة.

لهذا سندع القول في هذا الفصل إلى التنبؤات القديمة التي حاولت أن ترسم خطوطاً بيانية لمختلف العصور، وأن لم تحاول أية منها تجاوز حدود القرن العشرين فيما عدا عدداً يسيراً، توغل قليلاً إلى ما بعد سنة ٢٠٠٠ ثم ما لبث أن توقف وأكتفى بالصمت، كما يلاحظ كذلك أن أكثر من برع في اصدار التنبؤات، وفي نسبتها إلى الأنبياء هم اليهود، وهم أنفسهم الذين أستغلوا فيما بعد ليجعلوا منها حقوقاً مكتسبة بحكم قدسيتها، ورددوها على ألسنة الذين لا ينالهم الشك لا من أمامهم ولا من خلفهم فمعظم التنبؤات اليهودية تركز على عودة المسيح، الغرض من هذا التركيز واضح، لأن اليهودية تؤكد أن المسيح لن يأتي إلا بعد بناء المعبد، أي معبد سليمان، في القدس، وقد عنوا بذلك أن تبقى القدس بحوزتهم وعاصمة لهم.

وغالباً ما تكون عمليات التنبؤ مصحوبة بنماذج متنوعة من الاساطير، وخاصة التنبؤات التي تنسب إلى الانبياء والقديسين. وهناك رؤيا تتحدث عن العجائب السبع والاقزام السبعة والأبواق السبعة والكؤوس السبع والكنائس السبع.

ففي العجائب السبع روى الكثير عن حدائق بابل المعلقة، كما كان الحديث عن الاهرامات وتمثال جويتر وسور الصين العظيم وغير ذلك.

وحسب رؤيا الاختام السبعة فإن النبي يوحنا الذي صعد بروحه إلى السماء وشاهد روعة الخالق وجده محاطاً بأربع وعشرين عجوزاً وأربعة حيوانات هي: الاسد والثور والانسان والنسر، وقد قدمت إليه لفافة عليها سبعة أختام ومخطوطة من الداخل والخارج مما يعني أن الوحي كان كاملاً. وفتح الحمل الختم الاول فأنطلق فارس أبيض يحمل قوساً. ولما فتح الختم الثاني أنطلق حصان أحمر بلون النار وتلقى راكبه سيفاً كبيراً. وفي حين فتح الختم الثالث أنطلق جواد أسود وكان راكبه يمسك في يده بميزان. ولما فتح الختم الرابع أنطلق جواد أخضر، وكان اسم راكبه الموت.

إن العرف والتقاليد تقول أن الفارس الذي يمتطي حصاناً أبيض يأتي من الشرق، ومهمته التحريض على نشوب حرب بين الشعوب. ويقترن ظهوره بقوة تقوده إلى النصر، ويتلقى تاجاً مكافأة له. أما الفارس الثاني الذي يمتطي جواداً بلون النار فيأتي من الشمال، والسيف الذي تلقاه يعني أنه سيأتي بالحرب الاهلية التي تؤدي إلى نشوب معركة دامية تسبب الخراب والانهيار. في حين يأتي الفارس الثالث من الجنوب على جواد أسود ويحمل ميزاناً بسبب المجاعة. والفارس الرابع الذي يمتطي جواداً أخضراً فيأتي من الغرب وهو يحمل الاوبة.

ونعود إلى الاختام حيث نرى حين فتح الختم الخامس كيف شاهد حنا تحت المذبح أرواح أولئك الذين ألتموا بوصايا السماء، وجاءوا يطلبون العدالة، فيتلقون الوعد بالانتقام لهم، حالما يصل أخوتهم الذين قتلوا مثلهم. ولما فتح الختم السادس، حدثت هزة أرضية مهولة، وأصبحت الشمس سوداء، وبات للقمر لون الدم، وسقطت النجوم على الأرض كما تسقط ثمار شجرة التين تحت وطأة الرياح، وطويت السماء مثل كتاب، وقذفت الجبال والجزر من أماكنها، وأختبأ الاغنياء والفقراء والأقوياء والضعفاء داخل الكهوف.

وتقول النبوة هنا، أن المقصود بذلك هزة أرضية عنيفة تجتاح شواطئ البحر الأبيض المتوسط، لأن النص لا يوحى بانفجار قنبلة ذرية أو هيدروجينية أو نيتروجينية.

وبعدها رأى حنا الملائكة الاربعة وسمع أن قبائل اسرائيل الأثنتي عشرة يتم أنقاذ مائة وأربعين ألف عادلاً!!

وحين فتح الحمل الختم السابع ساد الصمت السماء حوالي نصف ساعة، ومن ثم رأى الملائكة السبعة يتلقون الابواق السبعة.

بعدها تقدم ملاك يقف أمام المذبح وهز مبخرته الذهبية، ثم فجأة، أخذ ناراً من المذبح ووضعها في المبخرة وما لبث أن ألقى بها أرضاً فأنفجرت الصواعق والبروق. وفسرت هذه

النبوة بأن فترة هدوء ستسود بعد الهزات الأرضية، ثم يعود الأعصار عنيفاً وبعد ذلك تدمر النار العالم.

ونتقل بعد الأختام السبعة الى الابواق السبعة.

وهنا يقصد بذلك الملائكة السبعة الذين يحملون الأبواق السبعة وهم يستعدون للنفخ فيها. فحين ينفخ الملاك الأول تقصف الكرة الأرضية بالنار المزوجة بالدم، ويحترق ثلث الأرض، وهو الثلث الذي ينبت فيه العشب والشجر، وعندما ينفخ الملاك الثاني في بوقه، يظهر جبل من النار يقذف إلى البحر، فتصبح مياهه دماء ويهدم ثلث ما فيه من أسماك وسفن. ومع البوق الثالث يسقط من السماء نجم كبير ملتهب يسمم مياه الأنهر والينابيع، وأسم هذا النجم (أبسنت) وهو يعني مر.

ولقد عني (علماء) التفسير بهذه النبوة القنبلة الذرية وذلك حسب رأي أحدهم بعد ما سمع عن ضرر القنبلة الذرية وقبل أن يطلع على الاضرار الاشد التي تسببها القنابل الذرية الحديثة.

ومع البوق الرابع تأتي الكلمات.

أما مع البوق الخامس فتختفي الشمس وراء الدخان وتظهر بأعداد هائلة من الجراد. ومهمة الجراد تعذيب البشر خلال خمسة أشهر إلى حد أنهم يشتهون الموت. وتشبه ارتال الجراد جياداً أعدت للمعركة، على رؤوسها ما يشبه التاج الذهبي ووجوهها شبيهة بوجوه البشر، وصدورها كأنها مصفحة بالحديد وحفيف اجنحتها له دوي الدبابات التي تقودها جياد عديدة تعدو إلى القتال، وقد رأى بعض (علماء) التفسير في هذا الوصف طائرات تخرج من المعارك، وبعضهم الآخر رأى أن الامر يتعلق بجواد حقيقي ضخم من الصعب التخلص منه وتستمر حياته خمسة أشهر.

والبوق السادس والبوق السابع متشابهان بالمحصلة حيث يأتي شاهدان مرسلان من السماء، ورأى البعض في الشاهدين ألياس وموسى.

أما مع البوق السابع فيصبح العالم ملك الرب.

والرواية تطول إلى أن تنتهي بأن الملائكة السبعة يطلعون النبي على المدينة المقدسة، أي القدس، ولها سور كبير فيه ١٢ باباً.

★ ★ ★

ستجاوز تنبؤات نوستر داموس لأن الحديث عنها مطول وقد أفردنا فصلاً خاصاً لها في كتاب آخر ولنتناول تنبؤات الكاهن المجهول، خاصة في كتابه (مستقبل العالم).

وهذه التنبؤات نسبت الى القرن السابع عشر ويعتبر صاحبها القرن العشرين أعجب القرون التي تمر بالعالم، حيث يقول أنه (سيأتي زمن مشحون بالرعب والبؤس للبشر جميعاً. أن كل ما يمكن تصوره من أمور رديئة وسيئة ستحدث في ذلك القرن العشرين. ففي بدايته، أمراء كثيرون في بلاد عديدة، سيثورون على آبائهم، والمواطنون سيثورون على سلطتهم، والأطفال سيثورون على أهلهم، والملحدون سيثورون على الله، وشعوب كثيرة ستثور على أنظمتها. وستنشب حرب تتساقط فيها الكرات - القنابل - من السماء. وستنشب حرب ثانية تقلب أوضاع الخليقة كلها، وستحدث كوارث في الثروات والممتلكات، وستراق دموع كثيرة. سيتجرد البشر من الروح ومن الشفقة. وستنتشر سحب مسمومة، واشاعات حارقة أشد تأثيراً من شمس خط الاستواء. وستتحرك قلاع من الحديد، وسفن طائرة مملوءة بكرات رهيبة وبأسهم، وبنجوم مذنبة قاتلة، وبنار كبريتية تدمر كبريات المدن.. ذلك القرن . العشرون سيكون أغرب القرون لأن البشر جميعاً سيكونون مجانين بذواتهم وبالعالم، وسيدمر بعضهم بعضاً).

ومثل هذه النبوءة تحمل كل ما نشاهده في الوقت الراهن من طائرات وسفن عملاقة وصواريخ وغير ذلك الكثير حسبنا أن نقول أن الراهبة ب. بوكيون قد تنبأت عام ١٨٥٠ بأن بداية النهاية لن تكون في القرن التاسع عشر بل ستكون حتماً في القرن العشرين . والذي يدعو إلى التأمل في سائر تنبؤات المتنبئين هو أنهم جميعاً تقريباً يتفقون على أن أشد أزمت العالم حدة ستبدأ بين سنة ١٩٨١ - ١٩٨٤ (جورج اورويل مثلاً) وأن الحضارة الغربية ستتهار، وهو ما يقصدون بنهاية العالم لتحل محلها حضارة أخرى (تتولاها قوى جديدة، أو جنس جديد، أو قارة جديدة). ويحدد المتنبئون أواخر القرن الحالي، وعلى وجه التحديد سنة ١٩٩٢ كموعـد لزوال الحضارة الغربية.

وكان ادغار كيبس المولود في ١٨ آذار ١٨٧٧ من أغرب المتنبئين، فهو قد تنبأ بالحربين العالميتين، وبمجموعة من الكوارث حدثت فعلاً. ويملك ادغار القدرة عندما يفرق فيما يسميه غيبوبة مغناطيسية أن يرى بوضوح داخل جسد الانسان، وأن يذكر ما فيه من أمراض بدقة أدهشت اصدقاءه الاطباء الذين كانوا يلجأون إليه أحياناً. وهو لا يكتفي بتحديد الأمراض، بل يصف ايضاً أسلوب معالجتها دون أن تكون له أية علاقة بالطب، ويذكر أسماء الادوية اللازمة وكيف يجب التعامل معها!!

وقد ملأ الدنيا وشغل الناس هذا المتنبئ إلى أن توفي عام ١٩٤٥ بيد أن شهرته لا تزال قائمة، بين تنبؤاته (أن مدينتي لوس أنجلوس وسان فرانسيسكو ستدمران وستلحق نيويورك بهما.

سيحدث هذا بعد جيل كامل). كذلك تنبأ أدغار بأنه (فيما بين سنتي ١٩٥٨ و ١٩٩٨ ستحدث أنقلابات وأحداث خطيرة، مثل الهزات الأرضية وطفغيان البحار وغير ذلك تبدل من طبيعة قشرة الكرة الأرضية، ويبدأ هذا ببطء ثم يتزايد بسرعة ابتداء من سنة ١٩٦٨ أو ١٩٦٩).

وحيث كانت هذه المواعيد تقترب كان (الايحاء) يجعل من علماء الطبقات الأرضية يؤكدون أن ذلك سيحدث، وهذا ما يشغل مساحات من صفحات المجلات والصحف للتحديث عن عواقب ذلك.

لا بل كان يتوقع للكل المصاعب والكوارث:

بالنسبة لكاليفورنيا توقع أدغار أعصاراً رهيباً يجتاحها عام ١٩٧٨ أو ١٩٨٠ (ولم يحدث ذلك) ولليابان توقع أنزلاقاً أرضياً إلى البحر (ولم تتحقق هذه النبوءة)

أما لأمريكا فتوقع حرباً أهلية بين الملونين والبيض في قرنا الحالي (وهذا لم يحدث إلى الآن) وتوقع للعالم مجاعة شاملة (ربما كان هذا التوقع صحيحاً، أو أن يكون أدغار قد قرأ نظرية مالثوس) ويعرج أدغار على روسيا وبالتحديد على عصر غورباتشوف حين يقول (عبر روسيا سيأتي الأمل للعالم. ستنتهي الشيوعية، ستشرق شمس الحرية التي يعيشها كل انسان من أجل صديقه، ستنتطلق مبادئ الحرية الصحيحة من روسيا).

قلنا في البداية أن صاحبنا ادغار كان يفرق بـ(غيبوبة مغناطيسية) وهي إحدى الهلوسات التي تصيب الانسان فتجعله لدى البعض متنبئاً ولدى الناس الآخرين (عالمات) بالمستقبل.

ومن هذا القبيل ما روى على أثر إحدى غيوباته المغناطيسية من انه (رأى قبراً مملوءاً بالوثائق، وكان القبر داخل أحد الاهرامات الصغيرة. أما الوثائق فانها تحتوي على معلومات لا تقدر بثمن من مصر القديمة وعن الاطلتيس، وهي القارة المفقودة. ويوجد الاهرام الصغير تحت الرمال قرب قائمتي أبي الهول وسيتم اكتشافه سنة ١٩٧٨).. (وبالطبع لم يكتشف أي شيء إلى ساعة كتابة هذا الفصل).

أما الام شيتون فهي معروفة جيداً في أنكلترا منذ قرون عديدة حتى كادت تصبح اسطورة. فقد تنبأت بين ما تنبأت، بأن (أنكلترا ستعرض للغزو، وبعد ذلك ينتهي العالم في سنة ١٩٩٤).

وفي هولندا تجسدت السيدة العذراء لفتاة شابة ٤٦ مرة بين شهر آذار ١٩٤٥ ونهاية سنة ١٩٥٤ وبين ما نقلته الفتاة على لسان العذراء:

- * ستأتي شعوب من الشرق، من فارس، من العرب، سيتمزق العالم إلى اثنين.
- * ستكون هناك مآس كثيرة وبؤس كثير
- * في القدس ستخفي شعوب الشرق وجوهها بأيديها، ستقول: التعاسة لمدينتنا.
- * في القدس وحولها وقربهاستدور معارك عنيفة (هل هي معارك حرب ١٩٦٧).
- * من سائر الظلال أكثرها سواداً يخيم على الشرق.
- * يجب أن تعلموا أن أخطاراً ضخمة تهدد أوروبا والعالم.
- وأشارت السيدة العذراء إلى الشرق وأضافت:
- * سيأتي نزاع كبير بين روسيا وأمريكا.. أنه يقترب
- * هولندا أيضاً تبدأ طريقها إلى المنحدر
- * كنيسة روما في صراع ضخم. قبل سنة ٢٠٠٠ ستبدل أشياء كثيرة في الكنسية والطائفة.
- * الويل لك أنكلترا
- على أوروبا أن تكون حذرة وأن تحذر شعوبها
- * الشرق ضد الغرب.. أحذري يا أوروبا.

ومن التنبؤات المشيرة ما قدم عام ١٩٦٠ إلى قداسة البابا حنا الثالث عشر مغلف مغلق يتضمن النبوة الثالثة التي عرفت بأسم نبوءة فاتمه. وفاتمه هي قرية صغيرة في البرتغال تجسدت فيها السيدة العذراء ست مرات لثلاثة أطفال بين ١٣ أيار و١٣ تشرين الاول ١٩١٧. وفتح قداسة البابا المغلف في الوقت المحدد لفتحه وقرأه ثم احتفظ به سراً. لكن تردد في سنة ١٩٦٣ أن البابا بولص السادس الذي خلف يوحنا الثالث عشر، أرسل جزءاً فقط من النبوءة السرية - على سبيل المعلومات - إلى كل من واشنطن وموسكو ولندن، لكي تدرك هذه العواصم أي منحدر رهيب ينزلق العالم فيه بسبب التطورات النووية. ثم تردد أن في هذا الجزء ما يلي: (أن الحرب الكبرى ستنشب في النصف الثاني من القرن العشرين. أن النار والدخان سيسقطان يومها من السماء، وسينهار كل شيء مغتصب، وسيفقد الملايين والملايين من البشر أرواحهم بين ساعة وأخرى. والذين سيقون على قيد الحياة سيحسدون الاموات، وسيعم البؤس والالام كل البلاد والامصار).

★ ★ ★

النبؤات أو التنبؤات كثيرة ويختلط الحابل بالنابل بها بشكل قد يكون المتنبئ صاحب

هلوسات أو ممن يملكون حساً فائقاً للأحداث المقبلة، أو أن يكون الأمر مجرد كلام لشغل الناس والتحدث عن المجهول من حياتهم، فالإنسان دائماً عطش إلى معرفة المجهول من العالم حتى ترتاح نفسه لذلك.

ويمكن تناول التنبؤ بما يحلله لنا علم النفس!

والسؤال الذي يدور هنا هو:

ما تحليل الصورة الذهنية التي نستعيد بها شيئاً كنا قد رأيناه أو سمعناه في لحظة سابقة من حياتنا يجيب الدكتور واطسن على هذا السؤال بقوله أن الذي يحدث عندئذ هو أحد أمرين، فإما أن تعود إلى شبكية العين نفس الآثار التي كانت قد حدثت لها فيما سبق عندما كانت تتلقى المرئي ساعة رؤيته، وبذلك تكون العملية العضوية واحدة في حالة الحس الفعلي وفي حالة التصور الذهني على حد سواء، وإما أن يكون ما نستعيده مقتصرأ على صورة لفظية، ومعنى ذلك أن الألفاظ تتمثل في حركات بدنية حقيقية ولكنها خفيفة، ولو ضخمت تلك الحركات وطال أمدها لأدت إلى نطق صحيح مسموع لتلك الألفاظ، والذي يحدث عند اكتساب الإنسان لخبراته المرئية واللموسة الخ، هو أن تلك الخبرات ترتبط بكلمات، فإذا ما حدث فيما بعد أن تحرك البدن بالحركات التي تقتضيها كلمة معينة جاء في أثر تلك الحركة البدنية ما كان قد أرتبط بها من تغيرات عضوية في العين أو في الأذن.

وهذا الترابط يكون بين مؤثرين، بحيث إذا أقرنا كان كل منهما كافياً وحده أن يحدث رد الفعل الذي يستحثه المؤثر الآخر، ومن ذلك أيضاً أنه إذا تأثرت العين بأثر ضوئي في نفس اللحظة التي تتأثر فيها الأذن بأثر صوتي، لكان الصوت وحده فيما بعد كفيلاً أن يحدث في العين نفس الاثر الذي كانت تأثرت له عند رؤية الضوء. مثال ذلك أن من طبيعة إنسان العين أن يضيق للضوء الشديد، فإذا ما أقرن هذا الضوء الشديد بصوت مرتفع، ثم أحدثنا هذا الصوت وحده فيما بعد ضاق إنسان العين كما لو كان الضوء واقعاً عليه، هذه حقيقة تجريبية لا سبيل إلى أنكارها، ويمكن، في رأي السلوكيين، أن تفسر الصور الذهنية على هذا الأساس، فأفرض أنك قد شهدت منظرأ معيناً في إيطاليا، ثم حدث لك فيما بعد أن جلست في دارك وأغمضت عينيك وأرتسمت في ذهنك صورة لذلك المنظر، فالحقيقة هنا هي أن لفظ (لبنان)، وهو أثر سمعي، قد أهتزت به الأعضاء البدنية الخاصة بنطق الألفاظ، وإن تكن قد أهتزت هزة خفيفة لم تبلغ أن تكون صوتاً مسموعاً، ولما كانت هذه الاهتزازة الحركية اللفظية مرتبطة بأثر معين على شبكية العين، وفي عصب الابصار - وهو أثر كان قد تم حدوثه

عندما أبصرت المنظر المذكور .. فإنك عندئذ ستكون في حالة عضوية تشبه حالة من يرى المنظر قائماً بالفعل أمام عينيه. وقد يستتبع هذا الاثر العضوي أثراً آخر كان قد أرتبط به، فاثراً ثالثاً فرابعاً، فتتصور بذلك أنك تستعيد صوراً ذهنية لرحلة طويلة قمت بها. مع أن الذي يحدث لك فعلاً هو حركات عضوية خفيفة هي نفسها الحركات التي كانت تحركت بها حواسك وأعصابك عند ممارسة الاحساس في زمانه.

إن الفكرة التقليدية في مبدأ الترابط أنه ترابط بين الافكار، ثم جاء السلوكيون فحوروه اذ جعلوه ترابطاً بين الحركات، أي بين أجزاء السلوك، وبهذا ترتد الأفكار نفسها إلى وحدات سلوكية. فالمدرجات الحسية تنحل إلى مجموعات من حوادث تختلف عن الأشياء الخارجية المدركة التي تكون تلك المدرجات الحسية مدرجات عنها، ولا ترتبط الأولى بالثانية إلا بالروابط السببية ولهذا فليس ما يمنع أن يكون الترابط في قطاع الحوادث - التي هي قوام المدرجات الحسية - شبيهاً في أثره بالترابط الذي يحدث في مجال العضلات والغدد، وبعبارة أخرى ليس هنالك ما يسوغ لنا انكار ما كان يسمى من قبل (بترابط الافكار) على الرغم من أن التغيرات الجسدية هي الأخرى تترابط، وإذا كان لا بد لترابط الأفكار من أساس عضوي نقيمه عليه، فيجوز لنا أن نقول أن ترابط الأفكار يحدث في المخ، فحالة المخ التي تؤدي بنا إلى نطق كلمة هتلر تكون مرتبطة بحالة المخ التي تؤدي بنا إلى رؤية (صورة) هتلر، وبهذا يمكن للكلمة والصورة أن تستدعي احدهما الثانية.

ومن جهة أخرى فإن بعض هؤلاء المتنبئين كانت لهم غيوباتهم المغناطيسية، وهو نوع من الصرع يعاني المصابون به من تغير ذاتي قبل أن تأتيه النوبة بأيام أو ساعات، فيشعر بالتوتر وسرعة التهيج والغضب، أو بالصداع والحمول والكآبة، وغالباً ما يكون هذا التغير مؤلماً وشديداً الوطأة على المصاب، حتى أن بعضه -وبنتيجة التجربة - يتمنى لو جاءته نوبة الاختلاج والاعماء ليتخلص من تلك الفترة المؤلمة، كما أن البعض الآخر يلجأ إلى أحداث الألم في جسمه لكي يؤخر أو يمنع النوبة، وعلى العكس، يلجأ آخرون إلى الاسراع في حدوث النوبة بالإثارة والتحفيز، ويكتشف المصاب بالتجربة تلك الحوافز التي تعجل في حدوث النوبة. فمنهم من يحدث تغيرات سريعة متلاحقة من الضياء والظل عندما يقف أمام الشمس بتحريك أصابعه أمام عينيه بسرعة وانتظام. فكأنه يختلق نوعاً من الاشعاعات المتناوبة والموجات المتلاحقة التي يشها التلفاز أو اعلانات النيون الضوئية السريعة. وهذا التحفيز البصري يعجل في حدوث النوبة عند بعض المصابين.

أما (النسمة) التي تسبق الاختلاج والاعماء فقد تتخذ صوراً عقلية وحسية معقدة وغريبة أشبه بالأحلام والرؤيا. فقد يشعر المصاب أنه في عالم آخر، أو تراءى له بعض الأماكن والوجوه وكأنها معروفة لديه منذ زمن سحيق (التذكر المسبق)، أو على العكس تبدو الأماكن والوجوه الاليفة وكأنها غريبة جديدة (التذكر المتأخر). وبالإضافة إلى التخييلات البصرية، فإن حواساً أخرى ينتابها الاضطراب كالشم والتذوق واللمس. وقد يتغير شكل الموجودات والمرئيات بالنسبة للمصاب فيرى الأشياء تنقلص وتصغر (رؤية مصغرة) أو تتضخم (رؤية مكبرة).

وفي مرحلة النسمة أيضاً تراود المصاب أفكار قسرية تخترق ذهنه بقوة وأصرار. ويقال أن هذه التغيرات المعقدة المختلطة مع بعضها تشبه ما يصفه بعض المتصوفة والدرأويش والكهنة من تجارب وأنكشافات وراء الحجب، ويقال أيضاً أن بعض هؤلاء كانوا فعلاً مصابين بمرض الصرع وأن الأفكار القسرية والرؤيا والخبايا التي أنكشفت لهم كانت من صنع هذه المرحلة من نوبة الصرع. ويجب التأكد ههنا على أن هذا الافتراض لا يشمل الجميع بل لقلّة منهم. ويذكر بعض الباحثين في الغرب أسماء قديسين وقديسات كانوا مصابين بالصرع فعلاً.

الاتفاق العارض

تبدو قدرة حواسنا خارقة ومتعددة الوجوه، وقد جرى الخلط بينها وبين الكثير من أمور الحياة، حتى أن من يشيخ لمذهب ما من مذاهب علم النفس قادر على أقناع القارئ برأيه من خلال معرفته بخلفية هذا القارئ ومن ثم أيهامه بما يريد.

وقد أثارت الاحداث التي جرت نتيجة الاتفاق العارض الكثير من اللغز والحيرة، وذهبت التخمينات في كافة الاتجاهات، ولكن تبقى الصدقة في كل ذلك هي بالتأكيد التي تصنع أشياء غريبة.

من ذلك أنه أستبدل في العام ١٩٦٧ رقم هاتف إحدى مفوضيات الشرطة في مدينة لندن، بحيث أصبح ٤٠١١٦ وقد طلب أحد الموظفين الذي كان يعمل في هذه المفوضية من أحد أصدقائه أن يخبره هاتفياً أثناء عمله في مساء اليوم التالي، ولكنه أعطى الصديق الرقم ٤٠١٦٦ دون أن ينتبه لخطأه إلا في الغد أثناء تسلمه وظيفته. وفي هذا المساء بالذات، وفيما كان يتجول مع زميل له في أحد الأقسام الصناعية، لاحظ ضوء يسطع من خلال نافذة أحد المصانع، فدخل إلى المبنى لأستطلاع المكان. وفي اللحظة التي دخل فيها إلى الغرفة المضاعة، قرع جرس الهاتف، فرفع الموظف السماعة، وكم كانت دهشته كبيرة عندما سمع على الطرف الثاني من الخط الشخص الذي أعطاه الرقم الخاطئ، لم يكن رقم الهاتف مسجلاً على سنترال الهاتف داخل المصنع، كما لم يكن مسجلاً في الدليل، لكن ادارة المصنع أكدت في ما بعد أن هذا الرقم ٤٠١٦٦ .

ويصف آرثر كوستلر هذا النوع من المفارقة بأنه (لعبة كلمات مصيرية) ثم يروي قصة فتاة ريفية يعود تاريخها إلى القرن الماضي، وقد جاءت هذه الفتاة إلى لندن لزيارة شقيقتها اليزابيث ماري باركر التي كانت تسكن المنزل ذا الرقم (٣٦ - ايتون بليس) وفي طريقها إلى المكان، خانتها الذاكرة وضلت الطريق، وبدافع خيبة الامل قرعت على الرقم ٣٦ من شارع كان يبدو لها أنه يحل الاسم نفسه. وسرعان ما وجدت نفسها أمام سيدة تدعى اليزابيث ماري باركر

وتسكن في هذا البيت. لم تكن هذه السيدة شقيقتها، لكنها أستطاعت أن تساعد الفتاة، لأن أخطاء عدة من البريد قد حصلت، بسبب تشابه الاسماء ثم قالت للتائهة أين تجد شقيقتها.

إن هذا النوع من المفارقات يصفه ارثر كوستلر بأنه يثقف ويشير الذهن، ويجذب الانتباه نحو ميل (العناصر السمبائية) كما يقول الطبيب اليوناني أيوقراط، مشيراً هكذا، إلى آلية تختبئ وراء قوانين الطبيعة. فلنفكر قليلاً في المأزق الذي يعيشه شخص يبحث عن صديق في مدينة كبيرة، فإن لديه آمال ضعيفة في أن يلتقيه صدفة في الشارع. إن القيام بتقصي منتظم لأرجاء المدينة عن طريق تفحص كل الاسماء المسجلة على الابواب، يمكن أن يؤدي إلى نتيجة، ولكن ذلك يتطلب الكثير من الوقت. الطريقة الوحيدة الصالحة هي في محاولة حذف أكبر عدد ممكن من البدائل الممكنة. وهكذا فإن معرفة رقم المنزل ٣٦ تقلص الخيارات. يبقى من الافضل معرفة أسم الشارع، لكن الجمع، كما رأينا، بين أسم الشخص المطلوب، ورقم المنزل وقليل من الحظ يكفي.

وفي الاحلام نرى ما يتحقق في اليوم التالي أو بعد أسبوع، أو بعد شهر بحذافيره، فندش بادئ الامر، ثم نهز كتفينا. وفي ذلك روى أحد القراء أنه منذ أسبوعين رأى فيما يرى النائم، أنه خرج من البيت وأتجه إلى السلم، فأعترضته طفلة شقراء جميلة، وأبتسمت له، ثم جاء وراءها رجل طويل القامة أسود الشعر، فحياه بلطف، وأخبره أنه والدها، وأنه قطن في المبنى نفسه، ودعاه لزيارته، وبعدما ودع الرجل، ربت على خد الطفلة، نزل السلم، فما كاد يصل إلى قرب نهايته، حتى أنزلق وتدحرج من ارتفاع أربع أو خمس درجات، فهرع ابن البواب وأنهضه، وأضطر للعودة إلى البيت لينظف ثيابه مما علق بها.

وبعد ثلاثة أيام من هذا الحلم، كان خارجاً من البيت، فرأى الطفلة نفسها، ولم يكن قد رآها من قبل، ثم رأى والدها، وكان ايضاً بالأوصاف نفسها، وقال له ما سبق أن قال في الحلم، ولما ودعه ونزل السلم، كان شديد الحذر، حريصاً على ألا ينزلق الانزلاق الذي حلم به، لكن ما كاد يصل إلى قرب نهاية السلم حتى شعر بأن قدمه وطأت مادة لزجة لم يتبينها، فلم يستطع تفادي الانزلاق والسقوط. وقد جرت العادة أن البواب-الاب- هو الذي يقف على مدخل المبنى يومياً، لكن في ذلك اليوم كان ابنه هو الواقف، وهو الذي هرع اليه وأنهضه. وهنا قرر، مغيضاً، الا يحقق الحلم كاملاً، فلا يعود الى البيت لينظف ثيابه، إلا أنه ما وصل إلى رصيف الشارع، حتى لحق به ابن البواب وأستوقفه، ثم همس في أذنه قائلاً: أن مقعد بنطاله ممزق، فأضطر للعودة إلى البيت ، بالرغم من أن التمزيق هو الشيء الوحيد الذي لم يراه في الحلم.

كما قرأت القصة التالية بصدد الاتفاق العارض.

كان الشخص مستغرقاً في النوم في بيته، حينما سمع قرعاً عنيفاً على الباب، فلما نهض وفتح الباب لم يجد أحداً، لكنه ما كاد يعود إلى سريره، حتى سمع القرع يتكرر أعنف من المرتين السابقتين، فلم تسعفه قواه. كان الذعر قد أستولى عليه، وصور له أن الشياطين أو الجن التي تقرع الباب! إلا أنه مالبث أن سمع صوتاً يناديه. فلم يصدق أذنيه. ثم ما لبث أن عرف الصوت، فهو لشقيق له مقيم في أمريكا الجنوبية. وكان الذي جرى الحادث معه مقيماً في إحدى ضواحي العاصمة الفرنسية. وعندما تأكد من أن الصوت هو صوت شقيقه وأستعاد روعه، نهض وفتح الباب، فلم يجد أحداً أيضاً، وقد قضى بعد ذلك وقتاً طويلاً يتوقع قرع الباب من جديد، لكن القرع توقف، وساد المكان هدوء مثير، حتى اذا غلبه النعاس أستلقى على فراشه ونام.

بعد مضي ثلاثة أيام على هذا الحادث، تلقى الشخص برفية تنبئه بوفاة شقيقه. وتأكد فيما بعد أن الوفاة حدثت ساعة كان يسمع القرع العنيف على الباب!

ونشرت الصحف الهندية مرة، قصة رجل أندونيسي جاء إلى دلهي الجديدة ولم يكن قد جاء إليها من قبل، كما لم يكن قد جاء إلى أية مدينة هندية. وفي أثناء تجواله في أحد شوارع المدينة مع مواطن له مقيم في دلهي، توقف الرجل فجأة، وأمسك بذراع مواطنه وقال له: هذا الشارع أعرفه جيداً، فرد عليه صاحبه: مستحيل.. أنا واثق من ذلك.. وأعتقد أن في الشارع الفرعي هذا سواًشار إلى شارع صغير متفرع عن الشارع الرئيسي - مطعماً، وإلى جانبه داراً للسينما.. وإلى جانب دار السينما بائع أحذية.

ونظر صديقه مشدوهاً وسأله: هذا صحيح.. لكن كيف عرفت؟ فأجاب: لا أدري.. إنما أحسست فجأة بأنني أعرف.. كما لو كنت مررت بهذا المكان عدة مرات!

إن القصص من هذا القبيل كثيرة، ولكنها مشوقة ويطمح القراء إلى قراءة تفسيرها بما يروي ظمئهم، حتى أن مثل هذه الحوادث قد تكون من اختراع الخيال أو الصحافة لإثارة القراء ووضعهم في عالم التشويق والمجهول!!

واليكم قصة أخرى حول هذا الموضوع.

نهض احد ركاب الطائرة وأتجه إلى المضيئة في المقدمة، وأخذها جانباً، وهمس لها (أنني أشعر بخطر قريب! أرجو أن تتأكدي من قائد الطائرة، هل كل شيء سليم؟) فضحكت المضيئة، وطمأنت الراكب، ورجته العودة إلى مقعده، لكن الراكب أصر وألح، حتى أصاب المضيئة بعدوى الخوف.. فذهبت إلى قائد الطائرة وروت له ما حدث. فضحك بدوره، لكنه

لم يتردد عن ألقاء نظرة فاحصة على الأجهزة والعدادات أمامه، واطمأن إلى أن كل شيء سليم، وليس من المتوقع حدوث شيء.. فقال للمضيفة: عودي إلى الراكب واخبريه أن لا شيء يدعو إلى القلق، وأن الطائرة في حالة جيدة. وفعلت المضيفة ما أوصى قائد الطائرة به، وعاد الراكب إلى مقعده، لكن الشعور بالخطر لم يفارقه.

بعد قليل، وثب ثلاثة ركاب من الطائرة نحو غرفة القيادة، وما لبث القائد أن أعلن عن اختطاف الطائرة، ووجه الرجاء إلى الركاب بوجوب الاحتفاظ بهدوئهم وبضرورة ضبط اعصابهم.

وأذكر أنني قرأت مذكرات قاض لبناني ذكر حادثة أنتحار حملت الابنة بها ان والدها قد أنتحر وتأكد ذلك تماماً في الصباح الباكر. وقد وقعت الحادثة في قرية جردية معزولة في أعالي الجبال. وكان المختار قد أعلم السلطة بهذه الواقعة فتوجه محقق وطبيب شرعي إلى تلك المنطقة. وحين دخل المحقق بيت المنتحر وجد صبية متشحة بالسواد ومعها شقيقاها الصغيران. تهيّب المحقق الموقف فأمامه صبية حلت بها وبأخويها مصيبة كبرى هي فقدان الوالد بعد وفاة الوالدة في العام الماضي.

حيا المحقق أصحاب البيت ثم قدم تعازيه للصبية وجلس على كرسي في الدار وجلس حوله رفاق الرحلة. قامت الصبية لتحضير القهوة فمنعها المحقق وطلب منها الجلوس أمامه لإستيضاحها عن ظروف موت أبيها. وهنا ظهرت وقائع غريبة عجيبة حار المستنطق في تفسيرها، قالت الصبية:

كنا نعيش في هذه البيت المتواضع عيشة هنية رغم الفقر. كانت والدتي كل شيء في هذا البيت، فهي الزوجة الوفية والام الحنون وصاحبة الرأي والتدبير، عملت مع والدي في الحقل بجد وأخلاص لتأمين لقمة العيش وصبرت على الحرمان الذي تعاني منه بصدق وأيمان، وكان لوالدي نعم الرفيق في رحلة العمر فأحبها حباً جماً نظراً لوفائها ولكن الدهر لا يبقى على أحد ولا يدع أحد يرتاح، فقد خطفها من بيننا يد المنون فجأة في السنة الماضية فحزن أبي عليها حزناً أدى به إلى اليأس واسلمه إلى مرض السويداء فصار يشكو من ألم شديد في رأسه ثم بدأ يهذي وأخيراً صار يحب العزلة والابتعاد عن الناس فعملت جهدي كي أواسيه وحاولت ان أخفف من لوعته ولكنه بقي مسترسلاً في أحزانه ويأسه وسويدائه.

في الليلة الماضية، نام في غرفته كالعادة ونمت مع أخوتي في هذه الدار. وبعد منتصف الليل رأيت فيما يرى النائم حلماً مزعجاً أستيقظت منه مذعورة، فلقد شاهدت أن والدي قام

من فراشه وفتح باب غرفته ودخل الدار التي ننام فيها وأشعل قنديل الكاز وحمله ثم فتح الباب الخارجي وسار في الظلام. ورأيت نفسي أتبعه في الظلام وأناديه، وسألته مراراً إلى أين يا أبي؟ فلم يجبني بكلمة واحدة بل تابع سيره وأعدت السؤال بحرقه وبصوت يكاد يكون صرخاً فلم يجبني بل تطلع إلى الأفق البعيد كأنه أضاع شيئاً ثم حث الخطى وهو يحمل القنديل وتبعته مسافة كيلو متر تقريباً بعدها رأيته يصعد في الطريق المؤدية إلى هذه الصخور العالية فلاحقت به، ولما وصل إلى أعلى الصخر المطل على الوادي السحيق وضع القنديل على الأرض ثم تتمم يضع كلمات ورمى نفسه من هذا العلو الشاهق منتحراً وذعرت للمفاجئة وصرخت بكل قواي. فوجدتني في الفراش وقام اخوي على صراخي فرويت لهم حكاية المنام وساورتنا الظنون فأشعلنا شمعة وقمنا نبحث عن والدنا في الغرفة فلم نجده بل وجدنا بابها مفتوحاً، وكذلك الباب الخارجي تماماً كما شاهدتهما في المنام.

وسرنا نحن الثلاثة في الظلام على ضوء الشمعة في الطريق الموحشة التي سلكها والذي في الحلم حتى وصلنا إلى الصخرة العظيمة التي كلمتكم عنها. صعدنا جميعاً إلى أعلى هذه الصخرة فشاهدنا القنديل، قنديل الكاز وقد أطفأته الرياح. وأطلقنا على الوادي وكانت أنوار الفجر بدأت تظهر في الأفق فشاهدنا وبألهول ما شاهدنا، رأينا جثة والدنا في الوادي مسجاة كما رأيته في المنام تماماً، وخلاصة القول أن ما رأيناه في اليقظة ما هو إلا نسخة صادقة عن الفيلم الذي شاهدت تفاصيله في المنام ولا أعرف كيف حدث هذا، وقد حكيت لكم القصة كما وقعت.

دهش المحقق لما سمع وقام الجميع إلى المكان الذي ضم رفاة الأب المسكين بعد أنتحاره فوجدوه مهشم العظام ميتاً. أجرى الطبيب الشرعي فحص الجثة وبين أسباب الوفاة ثم عادت القافلة إلى بيت المرحوم ولم يعد من حاجة لتوسيع التحقيق. فقد جزم الجميع بما فيهم الطبيب الشرعي أن ليس في القضية جريمة بل إنتحار، خصوصاً وقد بانَت أسبابه فعاد المحقق وصحبه بعد وضع تقرير شامل عن الحادث إلى مقر عمله.



هل يتدخل الاتفاق العارض بين العبقريّة وتاريخ الولادة؟

يرجح البعض من العلماء ذلك. وقد يدخل الامر ضمن الاتفاق العارض!

فإذا تعاون علماء الكيمياء والطبيعة والاعذية والاحصاء على البحث عن العلاقة بين العبقريّة والتاريخ الذي يولد فيه الانسان لأستطاعوا على الأرجح أن يتحكموا في مصير الجنس

البشري وفي الاكثار من العباقرة وأصحاب العقول الكبيرة. فقد أثبتت الاحصاءات أن أشهر الشتاء هي أخصب الاشهر لكثرة ما يولد فيها من النوابغ وأصحاب العقول الكبيرة. وهي في الوقت عينه في مقدمة الأشهر التي تكثر فيها المواليد من المجانين والذين تصاب عقولهم بمس من الخلل. وقد يظن القارئ أن في هذا القول شيئاً من التناقض، ولكن اذا تذكرنا ما يقوله الكثيرون من أن بين الجنون والعبقرية صلة حقيقية زال ذلك التناقض.

وقد يخيّل إلى القارئ أن محاولة إيجاد علاقة بين صفات الانسان ومزايه وقواه العقلية من جهة وتاريخ ولادته من الجهة الاخرى رجوع إلى التنجيم الذي لا يعترف عليه العلم. والحقيقة خلاف ذلك فليست المسألة مسألة تنجيم ولا بينها وبين التنجيم والخيال أية علاقة، إنما المسألة صدق أو لا تصدق؟

والفضل في (اكتشاف) ذلك إلى أحد علماء البيئة، حيث ألقى الدكتور (فرى) منذ أكثر من خمسين سنة وهو من أساتذة جامعة نيويورك القدامى خطبة أمام (جماعة هواة علم الفلك) التابعة لمتحف التاريخ الطبيعي الأمريكي أورد فيها احصاءات وحقائق تأييداً لوجهة نظره.

يقول: اذا درست سيرة مائة ألف من العظماء الذين نبغوا في العالم منذ خمسة آلاف سنة إلى اليوم رأيت أن الجانب الأكبر منهم كانوا من مواليد فصل الشتاء - أي من مواليد كانون الثاني وشباط ونصف آذار، يلي هذه الاشهر في كثرة النوابغ أشهر آب وايلول وتشرين الاول.

فهل هذه الظاهرة من قبيل العرض والاتفاق أم أن لها ما يعللها ويكشف عن سببها؟ أن الاحصاءات - في أميركا وأوروبا - ولا سيما الإحصاءات التي قام بها طائفة من العلماء السويسريين - تؤيد الحقيقة التي نحن بصددتها تأييداً تاماً لا تدع مجالاً للقول بأن هذه الظاهرة من قبيل (المصادفة) هذا على الأقل رأيها وكما ننقله من وجهة نظرها.

وما يصدق على النوابغ يصدق أيضاً على المجانين فإن أكثرهم هم كما تقدم من مواليد فصل الشتاء ايضاً. ولا عجب فإن بين العبقرية والجنون صلة قد أثبتها العلم، ففي كليهما يكون العقل خارجاً عن الحد الطبيعي. ويشير هؤلاء (العلماء) إلى احصاءات تدل ايضاً على أن مواليد أشهر الصيف هم ذوو قوى عقلية مستقرة غير مضطربة بخلاف مواليد فصل الشتاء فإن قواهم العقلية في حركة واضطراب مستمرين هما سبب العبقرية والجنون في آن واحد. ولعل أحسن تعليل للظاهرة التي نحن بصددتها يقوم على نظرية تأثير الغذاء كيميائياً في الجنين قبل أن يولد. ولا يخفى أن بعض المواد الغذائية يكثر وبعضها يقل في فصل الشتاء. ففي هذا الفصل تقل البقول الطازجة والفواكه وتغذي الابقار والاغنام بمواد معينة لا شك أنها تؤثر في لحومها

وبالنها تأثيراً معيناً. الام الحامل تغتذي في أشهر الشتاء بلحوم كثيرة ويقول طازجة قليلة. فإذا كان فصل الصيف أقلت من أكل بعض اللحوم وغيرت نظام تغذيتها، أفليس من المعقول أن يكون تأثير المواد الغذائية هو سبب كثرة من يولد من العباقر والنوابغ في أشهر الشتاء؟

وقد تساءل هؤلاء: اذا صدق هذا التعليل أفلا يكون في وسع الانسان أن يتحكم في ولادة العباقر والنوابغ فيتخذ ما يمكن من الالهة للإكثار من مواليد فصل الشتاء ولتوفير المواد الغذائية المعينة لهم؟

وكان جوابهم أنه من المحتمل أن يكشف علماء الكيمياء سر تأثير بعض المواد الغذائية في بناء القوى العقلية والخلقية. وفي هذه الحالة يستطيع تنشئة النوابغ حسب الطلب وذلك بالتحكم في تواريخ ميلادهم وإعطائهم المواد الغذائية التي تصلح دون غيرها لبناء صرح العبقريّة.

إن الارقام والتعليقات التي أدلى بها هؤلاء (العلماء) وعلى رأسهم الدكتور فري تدخل ضمن خانة الاتفاق العارض ليس أقل أو أكثر من هذا التعريف.

* * *

وعلى الصعيد البيولوجي نرى الكثير من الحوادث قد تفسر بأنها ناشئة عن الاتفاق العارض، بيد أن العلم يضع لها مسبباتها بعد أن أصبحت البيولوجيا علماً لا بد منه لمناقشة جميع العضلات الانسانية. وسواء كانت هذه العضلات تعود إلى النظام الاجتماعي أو الاخلاقي أو الفلسفي، فإن أي معضلة منها لا يمكن تناولها دون الاستعانة بالمعارف الايجابية التي تقدمها البيولوجيا لنا. إن هذه الأخيرة تمكننا من أن نحدد في المملكة الحية منزلة نوعنا الانساني المتعجرف الذي لا يقبل إلا أن يعزو لنفسه مكانة مختارة. فهي تظهر لنا كيف أن الانسان يرتبط بسائر العالم، تجعلنا نستشف العمليات التي بها أفضت الطبيعة إلى هذا المخلوق الفريد الذي تتخطى فيه كل وجودها وتنكر ذاتها. وهي كذلك تفيدها علماً بالإنسان - الفرد: ما هي الاسباب التي يرجع إليها التنوع والتفاوت بين الناس؟ ما هو النصيب الحاسم الذي يرجع إلى الوراثة في تكوين شخصية الفرد وما هو نصيب ظروف البيئة؟ ما هو التأثير الذي تحدثه حالة الحضارة في الحيوان الإنساني؟ تلك هي بعض المسائل التي نعالجها هنا.

أمن المستطاع أن نستخرج من البيولوجيا نتائج اجتماعية أو سياسية؟ إن ذلك غير ممكن مباشرة، بمعنى أنها لا تستطيع أن تفرض بل ولا أن توحى بأي مذهب. فهي تعلمنا مثلاً أن الناس يختلفون في الاصل وراثياً، ولكن ليس لها ما تقوله فيما يجب عمله لمعالجة هذا التفاوت

الطبيعي. فلأسباب نفسية أو اجتماعية، يمكننا أن نتقبل مجتمعاً لا تتساوى فيه الافراد كمجتمعنا، يحتل لنفسه مكاناً بين ضروب من التفاوت المصطنع - أو أن نتمنى مجتمعاً لا تتساوى فيه الافراد فلا يقيم وزناً إلا للتفاوت الطبيعي - أو أن نتمنى أيضاً مجتمعاً يعامل فيه الناس على قدم المساواة ولا يراعى هذا التفاوت فيه.

ومن المعروف أن الولادة البسيطة هي القاعدة السائدة في النوع الانساني، ولكن هناك أيضاً الولادات المتكثرة التي يتراوح عدد الأولاد في البطن الواحد فيها من اثنين إلى ستة. بل أن الولادات المزدوجة (التوائم) هي نسبياً كثيرة الوقوع، إنها تحدث بنسبة ١/٩٠ تقريباً في مجموع الولادات. وفضلاً عن ذلك فإن معدل التوأمية يختلف باختلاف البلاد.

ففي حين يشير معدل النسبة المئوية للولادات المزدوجة والثلاثية في الدنمرك على التوالي (١,٥٩) و(٠,٠١٨٥) يكون في الولايات المتحدة (١,١٥) و(٠,٠١٢١) وفي كولومبيا (٠,٤٠) و(٠,٠٠٦٢)، كما ذكر ذلك ريمون بيرل في كتابه التاريخ الطبيعي للسكان.

وتأتي التوائم تارة من بيضتين تخرجان معاً (من مبيض واحد أو مبيضين) تلقح كل منهما بحيويين منوي واحد: وهذه هي التوائم الكاذبة أو التوائم الاخوية، وتأتي تارة أخرى من بيضة واحدة تلقح بحيويين واحد، فهذه البيضة كانت في وقت من أوقات نموها قد أنشطرت شطرين نتج عن كل واحد منهما مضغة تخلقت على حده. هذه هي التوائم الحقيقية أو التوائم المتحدة الاصول.

واذ تتلقى التوائم الكاذبة من الابوين تركات وراثية مختلفة، فكل واحد منها إنما هو بكل بساطة عبارة عن ولدين ينموان في وقت واحد من رحم الأم: فقد لا يكونان من جنس واحد وقد يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً كبيراً، كأبي أخوة أو أخوات. وأما التوائم الحقيقية فهي على العكس من ذلك: فإنها اذ تتلقى من الأبوين نفس التركيبة الوراثية لا بد أن تكون احادها دائماً في نفس الجنس ويبلغ التشابه بينها غاية، حتى في جزئيات طابع اليد وبصمات الاصابع.

إن التوأمية الكاذبة هي دائماً أكثر شيوعاً من التوأمية الحقيقية، وهناك بعض العوامل التي تؤثر في شيوع هذه التوأمية أو تلك. فمثلاً أن ضعف النسبة المئوية في التوائم لدى اليابانيين والاناميين مرجعها مجرد ضيق حوض النساء الذي لا يلائم الحمل المزدوج كثيراً. وهناك عوامل أخرى تؤثر في التوأمية الكاذبة فقط، وهي توأمية تتوقف على عدد البويضات التي ينتجها المبيض. و(التوأمية) الكاذبة - لا الحقيقية - تزيد كلما تقدمت الأم في السن. وهي تبدو أكثر شيوعاً على نحو محسوس في بعض الاسر، وهذا برهان على أنها وليدة عوامل

وراثية. فهناك عائلات تكثر فيها التوائم الكاذبة، ولكن لا يوجد على ما يبدو عائلات تكثر فيها التوائم الحقيقية. ونحن نجهل الشروط التي تكون سبباً لها، ومن يدري فلعل أنشطار البيضة هو أحياناً نتيجة تسمم في صميم الخلايا الوراثية، أو نتيجة تأخر في النمو. وكذلك لا ندري في أي وقت يحدث أنشطار البيضة، فمن المحتمل جداً على ما يظن إنه يحدث عقب تكون القرص الجنيني. ومع ذلك فلا بد أن يحدث في وقت أبكر من ذلك قليلاً أو كثيراً تبعاً للحالة: فعندما يقع في وقت مبكر، يكون لكل شطر توأمي أغشيته الخاصة ومشيمته.

وعندما يقع في وقت متأخر يكون لهما جنين واحد ومشيمة واحدة. وإذا وقع الانشطار في وقت متأخر عن ذلك أيضاً لم ينفصل الفردان إلا على نحو ناقص، فهما عندئذ أخوان أو أختان في جزء من البدن. ويلاحظ غالباً - لدى التوائم الحقيقية - لا سيما في حال الانفصال المتأخر أن النصف الأيمن لأحدهما يشابه النصف الأيسر للآخر غاية التشابه! فكل فرد من التوأم يماثل صورة الأخرى في المرأة.

وفي حالة الولادات الثلاثية فهي أشد ندرة من الولادات المزدوجة بكثير، وأندر من ذلك بكثير أيضاً إنما هي الولادات الرباعية والخماسية، وبالقياص إلى مجموع الولادات، فإن نسبة التوائم الثلاثية هي تقريباً واحد من ثمانية آلاف ونسبة التوائم الرباعية هي واحد من نصف مليون.

ويمكن تفسير الولادات الثلاثية سواء بالتوأمية الكاذبة، أو التوأمية الحقيقية، بكليتهما معاً بانها قد تكون نتيجة نمو ثلاث بيضات متميزة في وقت واحد، أو نتيجة نمو بيضتين أنشطرت أحدهما شطرين، أو نمو بيضة واحدة أنقسمت لثلاثة أقسام. وكذلك الولادات الرباعية، فهي قد تكون نتيجة نمو أربع بيضات متميزة في وقت واحد، أو ثلاث بيضات أنشطرت أحدها شطرين، أو بيضتين أنشطرت كل واحدة منهما شطرين أو أنقسمت أحدهما لثلاثة أقسام، أو نتيجة نمو بيضة واحدة أنقسمت لاربعة أقسام. وهكذا الحال في الولادات الخماسية فهي قد تكون نتيجة نمو خمس بيضات متميزة، أو أربع بيضات أنشطرت أحدها شطرين، أو ثلاث بيضات أنشطرت اثنتان منهما شطرين أو أنقسمت أحدهما لثلاثة أقسام والأخرى قسمين، أو بيضة واحدة أنقسمت لخمس أقسام.

هذا ما خص الولادات التوأمية أو الثلاثية أو الرباعية، وهناك خواص عديدة - كطول القامة ولون الجلد العنصري وشكل الجمجمة الخ - هي نتيجة فعل عدة مورثات بعضها مع بعض، ومن هنا التعقيد الكبير في طريقة الانتقال، ولا سيما إذا كانت المورثات الممايزة، موجودة في سبغيات مختلفة. مثلاً أن لون الجلد لدى الزنجي رهن بثلاثة أنواع من المورثات على الأقل،

تنتمي إلى ثلاثة أزواج صبغية مختلفة. ويقوى بعضها عمل البعض الآخر. فكيف يكون الزيجي تام السواد لا بد أن يحمل صبغياته ثلاثة أزواج من مورثات السواد. فإذا تزوج بامرأة بيضاء تحمل ثلاثة أزواج من مورثات البياض، فإن أعقاب هذا الزواج يحملون في صبغياتهم ثلاثة أزواج من المورثات يتكون كل زوج منها من مورث السواد ومورث البياض، فتكون جلودهم ملونة تلويحاً خفيفاً، وذلك لأن مورثات السواد لا تسيطر على مورثات البياض، بل هي تتعاون معها لتحديث لوناً وسطاً، لون (القهوة بالحليب). وفيما يخص المورثات المسؤولة عن تكوين الجلد هناك ثمانية أمزجة صبغية محتملة في الخلايا المولدة لهذه الأعقاب الخلاسية. وإن مزيجاً واحداً فقط من هذه الأمزجة يشتمل على مورثات السواد الثلاث، ومثاله الخلية المولدة للزيجي، كما يشتمل مزيج واحد فقط منها على مورثات البياض، ومثاله الخلية المولدة للرجل الأبيض. فإذا تزوج خلاسيان كان هناك ٦٤ (٨ × ٨) مزيجاً صبغياً ممكناً يختلف الواحد منها عن الآخر. إن مزيجاً واحداً فقط منها - وهو يحمل ثلاثة أزواج من مورثات البياض - يعقب فرداً أبيض (وهو ذلك الذي يكون نتيجة تلقيح بويضة ذات مورثات البياض الثلاث بحيويين منوي ذي ثلاثة مورثات بياض). كما أن مزيجاً واحداً فقط منها وهو الذي يحمل ثلاثة أزواج من مورثات السواد - يعقب فرداً تام السواد (وهو ذلك الذي ينتج عن تلقيح بويضة ذات ثلاثة مورثات سواد بحيويين منوي ذي ثلاثة مورثات سواد). وأما الأمزجة الباقية الأخرى الاثنان والستون المشتملة على نسب مختلفة من مورثات السواد والبياض، فإنها تعقب أفراداً متفاوتين في ألوانهم بين السواد والبياض.

وعلى ذلك يكون من النادر جداً أن يعقب الزواج بين خلاسيين اثنين زنجياً خالصين أو بيضاً خالصين. وهذا النوع من الوراثة ينطبق على كثير من الخواص (طول القامة، الاستعداد للتعمير.. الخ) التي هي رهن بمورثات متعددة، فشأنها كشأن لون الجلد العنصري.



تحفل القصص والحوادث التي رويناها بالعديد من الاحداث المتناقضة والغريبة مما تحتمل تأويلات وتفسيرات كثيرة، تبعاً للجهة المحولة إليها. فالبعض يعزو تلك الحوادث إلى انتقال للأفكار، أو إلى سر من أسرار الأرواح؟ أو مظهر من الظواهر الخارقة للطبيعة، أو إلى الشدوذ في العوامل البيولوجية. لا بل نشرت بعض الصحف (تصريحات) لعلماء يقولون بها عن نظرية غريبة تتضمن أن في جو الكرة الأرضية وفي الفضاء الكوني، موجات غير مسموعة، ولا يمكن ألتقاطها بأي جهاز من الأجهزة المعروفة، مهما كان متقدماً، هي التي تنقل الأفكار، وتسبب ماأصطلحنا على تعريفه بأنه مصادفات. وأن ما نسميه عادة (مصادفة) هو في الحقيقة ظاهرة

التعقيد لدينا من الاشعاعات الغامضة التي لم يتوصل أحد بعد إلى معرفة كنهها، والكشف عن أسرارها، فأكتفينا بتبسيطها.

في عملية الإتفاق العارض يلعب الإحساس والإدراك في الحوادث الأولية التي روينها دوراً مهماً. ذلك أن الإحساس هو تلك العملية التي يتم عن طريقها اكتشاف المثيرات، وتحديداتها وتقديرها. ويقتصر دور الإحساس على تزويد الفرد بالمعلومات بينما يقوم الإدراك بتفسير هذه المعلومات. وجدير بالذكر أن نعرف أن الإنسان يقوم بقدر من عمليات الإحساس أكثر مما أعتدنا التحدث عنه، فعلى الرغم من أن الكثير ممن تحدثوا عن عمليات الإحساس لدى الناس قد ذهبوا إلى وجود (خمس حواس أساسية) إلا أنه قد يكون من المناسب أن نقر بوجود (سبع حواس أساسية) للإنسان يبدو أن كلاً منها ينقسم إلى عدة حواس فرعية. وهذه الحواس السبع هي: الابصار، والحاسة الجلدية أو اللمس، والذوق، والشم، والتوازن، والإحساس بالحركة.

وتقع معظم المستقبلات الحسية في أماكن محفوظة نسبياً داخل الجسم (فجميع المستقبلات الحسية توجد على مسافة من سطح الجسم ومن ثم يصعب أصابها ولا يستثنى من ذلك إلا بعض المستقبلات الحسية الجلدية). فعلى سبيل المثال لا توجد مستقبلات الابصار على سطح العين فحسب، وإنما توجد في مؤخرة مقلة العين، ومن ثم فهي تحفظ جيداً بواسطة مقلة العين نفسها وكذلك الأنسجة، والعظام، والشعر المحيط بها.

كما أن لكل عملية حسية مداها المحدود في الاستقبال، وعلى الرغم من أن الامكانيات الحسية لدى الإنسان تعتبر جيدة بصورة عامة - إلا أن الإمكانيات الحسية عند بعض الكائنات الحية الأخرى قد تفوقها. وجدير بالذكر أن الكائن الحي لا يحس بالمثيرات التي تحدث خارج مدى استقباله الحسي. فمثلاً على الرغم من اقتراب الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء من مدى إحساس الإنسان، إلا أن الفرد لا يمكنه رؤيتها إلا إذا استخدم أجهزة خاصة تحول هذه الأشعة إلى مدى رؤيته، حيث أن مدى رؤية الإنسان يقتصر على منطقة الطيف المرئي.

ويطلق مصطلح العتبة على مستوى الشدة حتى تحدث عملية الاستقبال. وقد تم التمييز بين العتبات اللازمة للإحساس بوجود أو غياب مثير معين، وتلك اللازمة لاكتشاف ما قد يحدث من تغير في قيمة المثير. وقد تكون الاثارة - في بعض الأحيان - بمستوى غير عادي إذا ما قورنت بالظروف المعتادة، ويبدو أن في وسع الإنسان أن يقوم ببعض التكييفات وتبني نموذج سلوكي يمكنه من التعامل مع معدل الاثارة الجديد الموجود، ويطلق على عملية التعامل هذه التواء الحسي. وتتضح عملية التواء الحسي بصورة جلية لدى الفرد حديث الزواج، الذي يضع خاتم

الزواج في أصبعه لأول مرة، حيث يبدو الخاتم - في أول الأمر - لافتاً للنظر وربما يسبب بعض المضايقات للفرد، وقد يحاول الفرد أن يدير هذا الخاتم حول أصبعه أو يلهو به بصورة غير منتظمة. ومع ذلك فإنه بمرور الوقت يتكيف الفرد لهذه الاستثارة (الجديدة) ويقل انتباهه للخاتم على الرغم من بقاء الاثارة الحسية الفعلية. ولكي نتفهم عملية استقبال المثيرات الحسية بصورة كاملة أو شاملة يتعين علينا معرفة المقصود بمصطلح تحول الطاقة، فعندما يتلقى عضو الاستقبال المثير (الآلي، أو الكيميائي، أو الاشعاعي.. الخ) فإن طاقته تتحول إلى أمكانية فعل. وتتم أمكانية الفعل هذه بسلسلة من الأحداث تؤدي إلى تسجيل الاحساس في المخ، وهذا التحول في الطاقة إلى طاقة فعل يسمى بتحول طاقة الإشارة، وبالطبع فإن مستوى طاقة المثير لا بد وأن تكون على الأقل عند مستوى قيمة العتبة المطلقة حتى يمكن حدوث عملية تحول الطاقة.

وقد ذهبت النظريات المبكرة عن الاستقبال الحسي إلى ضرورة وجود قيمة دنيا لا تتغير للعتبة المطلقة لكل مثير، كما أن ما يحدث من تغير فيه حتى يصل إلى عتبه الفارقة لا بد وأن يتم بمقدار أو نسبة ثابتة. بينما تذهب النظريات الحديثة إلى أن مثل هذه المفاهيم تعتبر ساذجة نسبياً، حيث أن قيم العتبة المطلقة والعتبة الفارقة قد تتغير بتغير عدد من الظروف. وقد تمت دراسة ثلاثة من هذه الظروف باستفاضة ويبدو أنها أكثرها أهمية وتتمثل في: الدافعية، وأحتمالية حدوث المثير، والمتغيرات العارضة. لقد أوضحت الدراسات في هذا المجال أن قدراً معيناً من الثواب (المكافأة) أو العقاب (الخسارة) يمكن أن يؤثر في أحكام الفرد المتصلة بوجود المثير أو غيابه، أو فيما يتعلق بما حدث من تغير في مستوى المثير، وتشير الأدلة - بصورة عامة - إلى أن قيم العتبات يمكن أن تختلف باختلاف الدافعية، وما ينتج عنها زيادة حساسية الفرد للإستثارة أو أنخفاضها. ويمكن تمثيل ذلك أنه إذا أخذت بعض ملابسك إلى المغسلة، وقد تم ذلك عقب تناولك وجبة الإفطار مباشرة فسوف لا تهتم كثيراً في هذه الحالة بلافئات المطاعم، وربما ينصب اهتمامك على لافئات محلات التنظيف بحيث إذا ما وجدت أحدها تكون قد وصلت إلى ما تريد، أما إذا لم تتمكن من العثور على المغسلة فإنك سوف تقضي وقتاً أطول و طاقة أكبر في محاولة العثور على المكان المناسب (المغسلة). وعلى ذلك تكون حساسيتك أقل بالنسبة للافئات الأخرى (عتبة مرتفعة جداً).

وفي معظم ما تمدنا الخبرة السابقة بمعلومات حول مدى احتمال حدوث مثير معين في المستقبل مرة أخرى، ومع ازدياد قوة احتمال حدوث المثير نتوقع أن تزداد قدرة الفرد على اكتشاف المثير، بينما إذا انخفض هذا الاحتمال فربما يعني ذلك أن الفرد قد يوجه طاقاته إلى مثيرات أخرى ويتجاهل ذلك المثير بالذات. وهكذا تتغير قيمة العتبة تبعاً لتغير احتمالية

حدوث المثير. وغالباً ما نتعرض للعديد من المثيرات في حياتنا اليومية، وقد يكون بعض هذه المثيرات على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لنا، وقد يكون البعض الآخر دخيلاً أو غير مناسب أو غير مرتبط بأهدافنا. وغالباً ما تتصف هذه المثيرات غير المرتبطة والدخيلة (بالضجيج)، وربما تؤدي زيادة (الضجيج) إلى ارتفاع قيم العتبات ومن ثم زيادة صعوبة اكتشاف أو الاحساس بالمثير الذي ننشده. أي أن ما قد يعتبر (ضجيجاً) في أحد المواقف قد لا يعتبر كذلك في موقف آخر، فصياح المشجعين قد يكون مقبولاً في مباراة لكرة الباسبول بينما يعتبر غير مرغوب فيه ومشتتاً في مباراة للجولف، حيث أن قدرة لاعب الجولف على اكتشاف المثيرات (مثل مدى أنطلاق الكرة أو ((تعدي)) الخط الأخضر) قد تختلف بزيادة درجة أو كمية الضجيج الناتج عن المشجعين.

أما الإدراك فهو العملية التي يقوم الفرد عن طريقها بتفسير المثيرات الحسية، حيث تقوم عمليات الاحساس بتسجيل المثيرات البيئية، بينما يضطلع الإدراك بتفسير هذه المثيرات وصياغتها في صور يمكن فهمها. لنفرض أنك تركب طائرة تحلق على ارتفاع آلاف الأقدام فوق الأرض، وكان الجو صافياً، حينئذ ستبدو لك السيارات، والطرق، والمنازل، والأشجار وكأنها في حجم الدمي أو اصغر من ذلك (وهذا يمثل احساساً)، ورغم ذلك فانك تدرك وجودها بحجمها العادي (وهذا ادراك). ويبدو أن الإدراك في معظمه دالة للخبرة، بمعنى أنه سلوك متعلم. وتشير نتائج البحوث إلى أن الفرد الذي تحدد خبرته الإدراكية أو تهمل لن يستطيع تنمية استجابات ادراكية عادية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الشخص الذي يحرم أو لا يمكن من التفاعل مع مثيرات البيئة لن يظهر بالتالي نمواً ادراكياً عادياً. ويتأثر الإدراك بمجموعتين من العوامل هما: المؤشرات الخارجية (خاصة بالمثير) والمؤشرات الداخلية (خاصة بالفرد نفسه)، ويؤثر كل من المؤشرات الخارجية والداخلية في طريقة انتباه الفرد لمثير معين أو الاهتمام به حيث يتحتم على الفرد أن يعير المثير بعض الانتباه حتى يحدث الإدراك.

إن المؤشرات الداخلية ما هي إلا وظيفة للعمليات المعرفية للفرد - على سبيل المثال - وخبراته السابقة، أو توقعاته خلال فترة زمنية معينة، يمكن أن تعتبر جميعها بمثابة مؤشرات داخلية. فغالباً ما يتأثر ادراك الفرد بدافعيته. وقد ينتج ذلك عن حالة الفرد الفسيولوجية، أو خبرته الاجتماعية، وقد يتعلم الفرد تركيز انتباهه على المثيرات التي تعزز أو تشبع دوافعه، بحيث إذا لم يدفع الفرد إلى ادراك مثير معين (بمعنى أن ادراكه لهذا المثير لا يلقي مكافأة أو تعزيزاً) فسيميل إلى تجاهله، وقد أوضحت الدراسات التي أجريت على حيل الدفاع الإدراكية، أن بعض الأفراد قد يدركون المثيرات التي تقدم إليهم على أنها مثيرات (مقبولة) أو (نظيفة) رغم أنها قد تكون في الواقع

مثيرات (غير مقبولة) أو (قدرة). (فعلى سبيل المثال، عندما يقرأ الفرد قصة تحتوي على مواقف أو كلمات نائية فإنه يدرك كلمات ((حميدة)) أو مقبولة بدلاً من الكلمات النائية). وبالمثل فقد أوضحت البحوث التي أجريت على اليقظة الإدراكية، أن الفرد قد يدرك المثيرات ((غير المرغوبة)) أو ((القدرة)) حتى إذا لم تتواجد هذه المثيرات في الواقع.

كل ذلك يدع مجالاً للإتفاق العارض كمنحى يربط بين الاحساس والادراك مع المؤشرات الداخلية التي هي وظيفة للعمليات المعرفية للفرد.

حالات الوعي المتغيرة

يتميز بعض الناس بحاسة قوية جداً، كحدة البصر عند زرقاء اليمامة، وشدة حساسية براعم الذوق عند ذواقي النبيذ الذين يستطيعون أحياناً من مذاق نبيذ ما تحديد المنطقة التي زرع بها العنب المستخدم في صنعه، بل وتحديد المزرعة نفسها وسنة الصنع. وقد لوحظ أن الذكور يستطيعون بشكل أفضل من الاناث، التمييز باللمس بين مختلف قطع النقد المعدنية. وقد قيل في تفسير ذلك أن الذكور يحملون قطع النقد المعدنية في جيوبهم، ولذا تتدرب حاسة اللمس عندهم على التعرف على تلك القطع، واختيار اللازم منها دون حاجة للنظر، أما الاناث فيحملن قطع النقد المعدنية في حافظة نقود يفتحنها ويخترن القطع النقدية المناسبة بالنظر لا باللمس.

والناس يسكنون عالماً مليئاً بالأجسام والأشياء والحوادث التي يتعين عليهم فهمها والتعرف عليها وتصنيفها والحكم عليها، ومع ذلك يميلون إلى اعتبار قدراتهم الحسية أقل قدراً من حواس الانواع الحيوانية المتعددة. وصحيح أن الصقور ترى لأبعد ما يراه الانسان، والكلاب تشم الرائحة بشكل أحد منه، والخفافيش تسمع بشكل أفضل منه، إلا أن أعضاء الحس عند الانسان، بشكل عام، تقوم بعمل ممتاز في تنبيهنا لما يحدث حولنا. فالإنسان يستطيع رؤية ضوء الشمعة على مسافة ٣٠ ميلاً في ليلة ظلماء صافية، كما يرى أجساماً مضيئة بتوهج أكثر من الشمعة بعشرة ملايين مرة، ويمكنه أن يشم قطرة عطر منتشرة في بيت مكون من ثلاث غرف، ويسمع دقة ساعة جيب على بعد عشرين قدماً. ويتذوق حلاوة السكر حتى عندما يذاب ملء ملعقة صغيرة منه في غالونين من الماء.

ومنذ أرسطو والناس يقولون بأن لديهم خمس حواس (البصر والسمع والشم والذوق واللمس)، ولكنهم مع ذلك يملكون حواس أخرى منها: حاسة وعي وضع الاطراف، ووعي درجة التوتر العضلي، وحركة أكثر من مائة مفصل، وهذه الحاسة حيوية لجعل الانسان قادراً

على الوقوف منتصباً والمشي والامساك بالأشياء والتحرك ضمن حدود البيئة. كذلك هناك حاسة الجاذبية الأرضية والتوازن التي تعتمد على خلايا حسية في أعماق الأذن الداخلية. بالإضافة لحاسة اللمس توجد في الجلد ثلاث حواس أخرى على الأقل هي: حاسة الألم وحاسة الحرارة وحاسة البرودة.

وهناك بعض العقاقير التي تسمى كاشفة العقل (وتعمل على زيادة حدة الوعي الحسي ويصاحب ذلك أحياناً تشويه في الإدراك وهلوسة وأحاساس بالسعادة الكاذبة أو اليأس، وهي من نوع المخدرات أو المسكرات). وقد أستعمل الناس مثل هذه العقاقير والمسكرات منذ آلاف السنين وفي مختلف الثقافات والحضارات بهدف تغيير الوعي. وأقل هذه العقاقير شدة في أثرها (الماريوانا) الذي يحصل عليه من العشب المعروف باسم القنب الهندي. وقد أستعمل هذا العقار منذ زمن طويل كمخدر مسكر في المجتمعات الآسيوية، اذ عرف أستعماله منذ سنة ٢٧٣٧ قبل الميلاد على الأقل، فقد ذكره أمبراطور صيني في كتاب عن العقاقير. ويختلف تأثير الماريوانا باختلاف الأشخاص وأيضاً باختلاف الجلسة التي يتعاطى فيها. وأكثر التأثيرات شيوعاً هو تضخيم الاحاسيس بحيث تبدو الألوان صارخة ويبدو مذاق الأكل ألد وأمتع، والنغمات الموسيقية أجمل وأكثر رنيناً والتجربة الجنسية أكثر عمقاً وأمتعاً، وهذا كله يعطي المرء شعوراً بأن العالم أكتسب معاني أعمق وأجمل. ولكن الخطر في أستعمال الماريوانا يكمن في انها تضخم التجارب غير السارة كما تضخم التجارب السارة. وعلى ذلك فقد يجد الناس الذين يعتدل في نفوسهم الحزن والأسى أو الخوف أو القلق هذه المشاعر مضخمة نتيجة تعاطي الماريوانا.

كما أن هناك عقارات أقوى بكثير من الماريوانا في أثرها على متعاطيها، ويبقى المرء في حالة الوعي المتغيرة هذه من عدة ساعات الى أكثر من نصف يوم، والتأثيرات العاطفية تتراوح بين الاحساس بالسعادة الكاذبة وذعر لا تمكن السيطرة عليه، مع حدوث هلوسة مع أي من الاحساسين، ويصبح العالم فجأة خارج نطاق سيطرة الفرد، كما تنقسم نفس المتعاطي الى شقين: شق مراقب، وشق مشارك في أي عمل.

ان نوع الثمالة التي ينشدها المرء باستعمال المخدرات لا يشبه السعادة دائماً، وقد تكون هذه الثمالة من الطراز الصوفي ترجيحاً في بعض الاحوال. وهذا ما نشاهده مثلاً في الـ(بيوتية)، وهي ديانة جديدة ذائعة ذيوماً كبيراً لدى بعض قبائل الهنود

الامريكية. ويتألف الطقس الرئيسي في هذه الديانة من تناول صبارة صغيرة هي الـ(بيتول) التي يطلق الهنود الحمر عليها بصورة دارجة اسم (الويسكي - الجاف) وهي تحتوي على عدد من شبه القلويات أشدها تأثيراً هو الـ(مسكالين)، وهم يأكلونها أو يشربون نقيعها. وتتفاوت النتائج بتفاوت الكمية المستهلكة. وهي تتفاوت من مجرد التهيج العصبي الى درجة الهلوسات. وبين هذين الحدين توجد النشوة الخارقة المصحوبة بنشاط حسي غير مألوف. وقد قام الكاتب الانكليزي الكبير الدوس هكسلي، وهو دائم الفضول لمعرفة كل ما يتصل بعلم النفس، قام ذات يوم بتجربة المسكالين وبلغ الدرجة الثانية من درجات التسمم، ووصف انطباعاته وصفاً متميزاً في كتاب ذي عنوان مرح (أبواب الادراك). وقد بدا له العالم بشرة تفاصيل لا نهاية لها، وكان ينسى شخصيته الخاصة وهمومه ويستغرق استغراقاً تاماً في رؤيته الدقيقة للأشياء. ومن أهم ما يترتب على المؤمنين بعبادة الـ(بيوت) هو بلوغ أقصى الدرجات، بلوغ الدرجة التي يمنع (المسكالين) الدماغ من غذاء (الكلوكوز) واذ ذاك تظهر الهلوسات. وليس بمستغرب اذا أنطلقنا من الجو الشعائري الذي يكتنف تناول الهنود للبيتول أن نجدهم يؤمنون بأن لديهم كشفاً خارقاً للطبيعة وأنهم يتصلون بالآلهة.

ومثل هذا الأمر نجده عند الابتدائيين فلهم عادات مماثلة ذائعة غاية الذيوع، وهم يستخدمون أساليب شتى للوصول الى نشوة دينية. من ذلك مثلاً أن سكان غينيا الجديدة يتلعبون خلال الحفلات فطراً يسمى (نوندا) فيصابون بهجنون مؤقت. ولا ريب أن من الواجب ان نميز، كما ميز مثلاً عالم الاجتماع فيليب دي فليس، التصوف الحقيقي عن (الأشكال الدنيا) للتصوف. وعلى الرغم من ذلك، يظل من الثابت أن الجنات المصنوعة تنتج عن وسائل تحدث، في ظروف أخرى، وهم الاتصال بواقع خارج عن الواقع الانساني.



ومن بين العناصر الأكثر ذيوعاً في وصفات النشوة نجد ذلك العنصر الذي يبدو أنه أكثرها تواضعاً من حيث نتائجه، ولكنه يظل من أكثرها شيوعاً وانتشاراً، على الرغم من الموانع الطبية: التبغ. وباعتبار نتائجه النفسية، ليس سوى منبه خفيف، فمن الجائز، من وجهة النظر المذكورة، أن ننظر الى القهوة والشاي والمثمة على أنها من زمرة التبغ ذاتها. بيد أن التدخين شيء، والشراب شيء آخر. ونحن لا نكاد نعرف حقاً ما الذي يعجب الانسانية ويسحرها في التدخين، أهو المنهج العصبي البسيط الناجم عن

(النيكوتين) كما يبدو؟ أم أنه بالأحرى الحركة، أو الاحساس التي ترافقها، أو أوهام الاسترخاء؟ أنظروا الى مدخن الغليون، أنظروا الى هيئته كفيلسوف، أو الى منظره كمنظر النوتي المقدام الراضي كل الرضى بعد مكافحته لأمواج اليم. وسواء أحتفظ بالاداة في فمه، أم أمسك بفرن الغليون في راحة يده، فانه يبدو وكأنه عثر على سر الحكمة وقبض تماماً على زمام قدره بيده، أما محب السيجار فانه، على ما يبدو، يتذوق رفاها أغنى، ويلبي شهوة بريئة من التعقد والخيلاء: في هذا السيجار الذي يحترق سعادة أعظم من السعادة التي يهبها الحب لهذه المدينة.

أما السيجارة فلها دلالات أرهف، فهي تساعد على قبول اثاره عصبية حامية أو أن تضيف عذوبة الى عذوبة لحظة حلوة.

وهنود أميركا هم الذين اخترعوا هذه اللذة بجميع أشكالها: الغليون، السيجار، السيجارة، لفافات دخان، ونشوق. أنهم يستخدمون التبغ في طقوس كثيرة، ويستخدمونه أحياناً لمجرد السرور. وقد أخذت دهشة عظيمة البيض الاوائل الذين أكتشفوا (العالم الجديد) عندما رأوا السكان الاصليين (يسحبون دخاناً من عشب يضعونه في فمهم). وفي القرن السادس عشر حمل (جان نيكون) سفير البرتغال، حمل التبغ الى بلاط فرنسا، ولكنهم لم يستعملوا التبغ بادئ ذي بدء الا لأغراض طبية. ولم تنتشر عادة التشوق أو التدخين الا بعد مرور زمن طويل. ولكن الحركة الاولى ما أن أنطلقت حتى تلاها توثب صاعق وكأن البشرية بأسرها كانت تنتظر هذا الكشف.

وفي أفريقيا ينشر عشب (نيكوت) لواءه في كل مكان تقريباً. ويقول البرت شويتزر أن النساء في (لامبارينه) يذون الرجال في التدخين وأن هذه المنطقة هي (بلد التسمم المزمع بالنيكوتين). ويذكر (ليس) أيضاً مثال (كافيروندو) في شرق أفريقيا حيث تباع السجاير في حزم رباعية لأن أهل (كافيروندو) يدخنون أربع سيجارات بأن واحد، فيضعون سيجارة في كل جانب من فمهم، وثالثة ورابعة في منخري انفهم وفي (الشرق الاوسط) و(الشرق)، يولع الناس بـ(غليون الماء)، (النارجلية)، ولبعض أشكالها أنابيب كثيفة تتيح التدخين الجمعي.

والسؤال هو كيف نفسر هذا الانتصار العالمي لاختراع أتى به الهنود الحمر وكان، لوجه الاجمال، غريباً بالاحرى، ولم يكن الرواد الاوائل أنفسهم ينتظرون له مثل هذا الذبوع على ما يبدو؟

ربما يكون من اليسير باسراف أن نجيب بأن العضوية الانسانية تعتاد على بعض الالهواء التي سرعان ما تغدو طاغية مهيمنة. وهذا حق بالتأكيد، ولكنه ليس صحيحاً في مجال التبغ

وحسب، بل بالنسبة للكحول والافيون والمورفين أيضاً. أجل ان من العسير الخلاص من عادة الادمان بعد أن يألفها المرء، ولكن السؤال هو أن نعرف، بوجه الدقة، لماذا أعتنقها من قبل؟

اننا لا نجنّي معلومات نافعة اذا ما طرحنا هذا السؤال على الصعيد الفردي (لماذا تدخن؟). أبحث في ذكرياتك فقد تكتشف أن رفيقاً في المدرسة الثانوية قد قدم لك سيجارة فقبلتها حتى لا تبدو أحمق أمام غيرك ثم لم تشأ عندما وجدتها سيئة أن تعترف بعدم استعدادك وبقيت حتى اللحظة التي، وبالأأسف، أصبت بها بعادة التدخين. ولعلك وجدت من المسلمي مخالفة النظام. والبعض بدأوا التدخين أثناء الحرب عندما كانت السجائر نادرة. فالزي، والتعاطم، وأستعظام الثمرة الحرام، كل ذلك يعود بناء آخر الامر، الى (تبريرات) اجتماعية. وبقول وجيز، اذا أقتصرنا على الارشادات النفسية والقردية وجدنا أننا ندور في حلقات مفرغة، ولذا فان من الأفضل أن نتناول الامر الرئيسي مباشرة: ان الانسانية تدخن لأنها بوجه الاجمال، تلقى في التدخين شيئاً يوائمها.

وربما تكون هذه الاسباب اسباباً كثيرة، ولكن ذلك لا يمنع، من ناحية أخرى، تفرعها عن أصل مركزي.

يبقى أن نقول، ان التبغ، الا في أحوال استثنائية قصوى، لا يستهدف الثمالة ولا ما يماثلها. وربما ساعد، باعتبار أنه محوّل بسيط، على تحمل الهموم، لا على نسيانها. ومن الجائز أن يؤثر الدخان نفسه، بصورة غامضة، على التخيل اللاشعوري، من حيث قيمته الانموزجية القديمة، مما يجعل اقتراناته بالحلم اقتراناً بدهياً.

ان المدخن الذي ينفذ الدخان من فمه، ويتبع تبدد حلقاته الحلزونية بعين شاردة قد يشعر بانطباع أنه هو نفسه يخف، ويصبح مادة حلم. ويكاد الاحساس بالسعادة لا يمضي بدون بعض مشاركة في عالم الاحلام.



ونأتي الان الى الكحول أو المسكرات والسؤال الحائر فيما يجب اعتبارها من المهيجات السوية أم من وسائل الوصول الى الجنان المصنوعة؟

ان ذلك، بالتأكيد، يختلف باختلاف الاستعمال، واننا نلفي التفاصيل الدقيقة للجائزة كلها، من الثمالة التامة الى مجرد الدوار البسيط الذي يشعر المرء بال(بسط). وقد تبارت شعوب الارض قاطبة، في جميع الاحوال، وبذلت براعتها في صنع المشروبات الروحية، بعضها يصنع

الخمر من العسل، أو التمر أو الحبوب أو الصبار أو العنب، وبعضها، كالمصريين القدامى، يصنع الجعة باستقطار الكحول من السكر بإضافة النشاء.

وحتى نقدر نتائج الكحول ونعرف مقاصد محتسبه وجب علينا هنا أن نحدد أحوالاً أكثر من الاحوال التي نميزها في ميدان المخدرات بالمعنى الصحيح، هذه المخدرات المستعملة اما بانتظام في شعائر سحرية-دينية، وأما لدى من الفوا رذيلتها فاستعملوها استعمال الفة وأعتياد. ففي مجال الكحول أيضاً يوجد أولاً الاستعمال الشعائري الذي يتألف تارة من مجرد أنخاب وقربان هادئ، أو يتألف تارة أخرى من طلب ثمالة تبلغ درجة الانتشاء والرؤى به الامتلاك. وقد يلجأ بعض المتصوفة الى هذه المشروبات لجوءهم الى المخدر، فلا يحتسون الخمر على نحر شعائري تماماً وإنما على اعتبار أن الخمر وسيلة سهلة لبلوغ حال من الوجد والسمو نحو المطلق.

ومن ناحية أخرى، اذا نظرنا الآن الى استعمال الكحول استعمالاً علمانياً وجدنا كذلك تفاصيل دقيقة وجد متنوعة. فهناك المدمنون على الخمر، وهم يتلفون صحتهم ويتعلقون بشرابهم تعلق مدمن الافيون بمخدره. ولا بد من أن نميز، من ناحية أخرى، المدمن على الكحول الذي لا يشمل أبداً وإنما يسمم نفسه على نحو بطيء، عن المدمن الذي يشمل كل يوم، وهناك أيضاً الذين لا يعتبرون مدمنين حقيقين من الزاوية الطبية ولكنهم، كما يقول العامة (ياخذونه وجبة) من وقت الى وقت، بل وغالباً تقريباً. وأخيراً، هناك سائر الآخرين الذين لا يعتبرون مدمنين وهم لا يتنشون البتة، أو في النادر جداً. ولكنهم أحياناً، بل وغالباً تقريباً في بعض الظروف، يحتسون قدراً من الشراب يزيد قليلاً عما ينبغي بدون أن يبلغوا درجة فقدان الرقابة على أنفسهم فقداناً تاماً، ولكنهم يجرعون ما يكفي للشعور بمرح يجاوز الحد قليلاً.

وفي وسعنا أن نكرر هنا، باعتبار، ما ذكرناه في صدد الأدمان على المخدرات، ولكن المسألة تختلف الى حد ما من زاويتها الاجتماعية: أولاً، أن تجارة الكحول حرة في معظم البلدان الغربية، باستثناء البلدان ذات الحكم الاسلامي.

أجل أن حظراً منتشراً تؤيده الدعاوة التي تنهض بها بعض المنظمات، يرين على الافراط في الكحول. ولكن استهلاك الخمر والمشروبات الشهية والمشروبات الروحية لا تتسم بالصفة السرية أتصاف تناول المخدرات في كل مكان تقريباً، بل أن استهلاك الكحول ينتشر انتشاراً واسعاً في طبقات الشعب كافة.

وفي وسعنا أن نذكر الى جانب الروادع الاخلاقية والطبية، الأقوال الماثورة والشعارات

الدعائية التي تحث على الخمر: (أشربوا الخمر، تحيوا سعداء).. (الحقيقة في الخمر). وقد جعل أدب الخمریات منذ (أناكريون) و(هوراس) موضوع الخمرة ذائعاً، وهو يقرنه بالحب في أغلب الأحيان. وعملت العادات الاخلاقية على تشجيع أنتشاره حتى أنها جعلته عنصراً من عناصر الحياة الاجتماعية. وتكاد لقاءات الاصدقاء والمآدب والامسيات العصرية أو الغزلية لا تخلو من بعض قرايين تُرفع إلى آله الخمر (باخوس). وما تزال ثقافة الجمهور ماضيه باطراد في اعتبار نمط البطل المقاتل الشهم الذي يتمتع من الويسكي قوته، أعتبره نمطاً شعبياً.

وتشير التحريات التي تناولت مشكلة الكحول في البلدان النامية أنها ذاخرة بالمعلومات، فعندما تنهار البنيات الاجتماعية والدينية التقليدية ينتشر الوباء انتشاراً أقوى حقاً. والكائن البائس الضال الذي حرم من مثله الجمعية الحركية العليا هو الذي يفرق في خضم هذه الرذيلة. ويكاد داء الكحول لا يصيب في الولايات المتحدة قبائل الهنود، ومثلاً قبيلة ال(بوبلو) التي أستطاعت الاحتفاظ بحيوية ثقافتها السابقة لظهور (كولومبس). وعلى العكس، أصيبت القبائل، مثل قبيلة ال(آباش) التي عجزت عن الحفاظ على أشكال حياتها الاجتماعية القديمة، أصيبت بالادمان على الخمر اصابة تدعو إلى القلق.

ترى هل ينشد أفراد هذه الجماعات المنبوذة السعادة بالمعنى الصحيح عن طريق ثمالة مزمنة؟

الاصح أن نقول أن سقوطهم يجعلهم أعجز من أن يتطلعوا إلى مثل هذا السمو. وإن داء الكحول ليقابل في الغالب موقفاً دفاعياً، أو بالحري موقف الضيق عندما يبدو أن سائر المنافذ الاخرى مغلقة. وفي بعض الأحيان نستطيع أن ننعت ذاك السلوك بأنه أنتحاري، بيد أن ذلك هو حد أقصى. والأمر المألوف هو أن يعبر عن صعاب الحياة وعن الامل، عن محاولة حل المشكلة بطريقة سدى، بسد الطريق أمامها حتى تبلغ درجة الشعور الجلي. وليس ذلك به(تقنية) سعادة، بل وسيلة سهلة ليضع المرء نفسه خارج هذه الشروط ذاتها.



إن حالات تغير الوعي لا تحدث جميعها بفعل العقاقير، بل تولدها أيضاً اليوغا والتأمل ومثيلاتهما. وقد أستعملت هذه منذ زمن بعيد كأسلوب حياة في بعض الثقافات الاسيوية حيث يعتقد كثير من الناس أن الوعي المضخم يعقب أسترخاء الجسم والعقل. وفي مفردات اللغة السانسكريتية (أحدى لغات الهند القديمة) حوالي ٢٠ اسماً مرادفاً لكلمة (وعي)، وفي هذا دليل على الأهمية التي يوليها بعض شعوب آسيا لمثل هذه الامور. وحتى وقت قريب لم يكن العلم قد درس طبيعة التأمل. رغم قدم الظاهرة نفسها. ربما لأنها كتجربة وصفية لا يمكن

تفحصها بموضوعية. ولكن الابحاث التي بدأت في اليابان في الخمسينات من هذا القرن أظهرت أن الكهنة البوذيين الذين يدخلون جلسات تأمل تحدث لهم تغيرات جسمية يمكن قياسها، كأن تحدث تغيرات ملفتة للنظر في النشاط الكهربائي للدماغ: فالكهنة الذين كانوا منغمسين في التأمل وعيونهم مفتوحة زادت عندهم موجات ألفا الدماغية حتى طغت على غيرها. وهذه الموجات لا تبرز بشكل ملحوظ عادة إلا عند الفترة التي تسبق النوم حين يغمض المرء عينيه ويكون مسترخياً مستريحاً. وبالإضافة لتغيرات أخرى في نشاط الدماغ لوحظ حدوث انخفاض ملحوظ في معدل الأيض في الجسم.

وهناك نزاع جدلي حول ما اذا كان بالوسع القول بأن (التأمل المتسامي) يعطي نفس النتائج، علماً بأن هذا النوع من التأمل لا يحتاج إلى سنوات عديدة من التدريب والمران للسيطرة على الجسم والعقل كما تحتاج ذلك اليوغا والرهبة البوذية. وقد فشلت دراسة حديثة في اكتشاف أية تغيرات بيولوجية - كيميائية هامة أثناء التأمل المتسامي، كما لم تجد الدراسة أية فروق بيوكيميائية رئيسية بين المشاركين في التأمل وغيرهم من الناس المسترخين فقط. على أن دراسة أخرى أظهرت تغيرات أيضية هامة مختلفة عن تلك التي تنتج من النوم أو التنويم المغناطيسي. فحالة المتأملين المتراخية لدرجة كبيرة هي نقيض الحالة المميزة لبني الانسان منذ أن خلقهم الله، وهي حالة رد فعل (قاتل أو أهرب) التي تجند كل الجسم للقتال أو الهرب بزيادة ضغط الدم وسرعة نبض القلب وكثرة تدفق الدم إلى العضلات، وأستهلاك الأكسجين. ورد الفعل هذا مازال متمركزاً في تركيبنا الوراثي حتى ولو أنه قد فات زمنه وأصبح غير ذي موضوع في عالم مزدحم معقد لا بد للناس من أن يتكيفوا مع الظروف الجديدة، إذ لا جدوى، في المجتمعات الحديثة، من القتال ويكاد يكون الهرب مستحيلًا. ويعتقد كثير من العلماء أن الاثارة المستمرة لأجهزتنا العصبية بهذه الطريقة، مصحوبة بضعف الفرصة للاستجابة جسدياً للضغط هي المسؤولة عن شيوع الاصابة بارتفاع ضغط الدم والأمراض المشابهة. وإذا كان الامر هكذا فإن التأمل الذي هو أسترخاء وليس تنشيطاً للجهاز العصبي - يمكن أن يكون تكييفاً ذا قيمة للحياة في العالم الحديث.

لقد كانت حالات الوعي المتغيرة حتى وقت قريب، نادرة في الثقافات الغربية، فأكثرها كان بتأثير الثقافات وبعض الديانات الآسيوية.

وقد أجريت في السنوات الاخيرة في الدول الغربية وبخاصة الولايات المتحدة تجارب عديدة على الطرق التي تغير الوعي. وكانت هناك ادعاءات عن أن (ل.س.د) وغيره من هذه

العقائير المخدرة كاشفة العقل توسع الفكر بكفاءة عالية وأنها لذلك يمكن أن تكون علاجاً لمشكلات الانسانية!! ولما أنتهى الاهتمام بتلك العقائير الى لا شيء أستبدلت بها أشياء أخرى مثل موجات ألفا والرجوع الى الدين القديم التصوفي ومختلف فئات التأمل وحتى الطيران الشراعي. ورغم اختلاف هذه في المعتقدات والأساليب، فإنها تشترك في أمر واحد هو الانصراف عن الدنيا والتحول عن البيئة الخارجية للبحث عن الذات الداخلية.

وواضح أن هناك أعداداً كبيرة من الناس الذين تحيرهم وتذهلهم المجتمعات الحديثة المعقدة التي لم ينجحوا في التكيف معها، ولذا فإنهم يكونون في حالة (أنسحاب تام) من استعمال العقل، ويحرمون أنفسهم من التمتع بحياة العقل الغنية التي هي من أهم خصائص النوع الانساني وأفضل ميزات الانسان قاطبة.

ولا أستطيع أن أترك مناقشة وظيفة حالات الوعي المتغيرة على هذه الحالة من النقص، دون أن أشير اشارة سريعة إلى عامل آخر له دلالة العظمى، وأنا لا أقصد شيئاً كان في كثير من الاحيان من أكبر الاعتراضات التي وجهت الى منهج فرويد، وهو تكريس كل هذا الوقت والجهد لشخص واحد. وأعتقد أنه لا توجد شهادة بعقريه فرويد أعظم من نصيحته بأن يكرس الوقت الكافي حتى لو أستغرق ذلك سنين عديدة لمساعدة شخص واحد على تحقيق الحرية والسعادة. وهذه الفكرة تضرب بجذورها في روح عصر التنوير الذي توج الاتجاه الانساني في المدنية الغربية، بأن أكد على كرامة الفرد وتفردته على كل شيء آخر. ولكن، أياً كان الاتفاق الوثيق بين هذه الفكرة وتلك المبادئ، فإنها مناقضة الى حد كبير للمناخ الفكري في عصرنا، فنحن نميل الى التفكير في حدود الانتاج بالجملة وأدوات الانتاج. وقد أثبت هذا التفكير أنه مشر الى أقصى حد طالما فكرنا في أنتاج السلع. ولكن اذا أنتقلت فكرة الانتاج بالجملة وعبادة الآلة الى مشكلة الانسان وإلى ميدان الطب النفسي، فإنها تحطم الاساس الذي يجعل من أنتاج مزيد من الأشياء بصورة أفضل - أمراً جديراً بالجهد والعناء.

الاحلام كقوة للأستدلال

أحد رموز سيكولوجية قوة الاستدلال هو الحلم، ذلك أن للأحلام أهميتها من الناحية العقلية، اذ تهيء لنا طريقاً سريعاً ندخل منه الى بعض مشكلات الفلسفة والبحث الروحي، ولعلها تهيء لنا كذلك أسرع السبل المؤدية الى تلك المشكلات التي تتصل بأعجب مناطق العقل البشري.

والانسان منذ البدء كان يميل الى البحث والتنقيب، ويهوى التوغل في مجاهل الغابات التي لم تطرقها قدم، والغوص في أعماق البحار التي لم تقع عليها عين بشر، كما يشغف بتسلق ذرى الجبال العالية، ويتقصى كهوف الارض حيث يعثر في أركانها القصية على أطلال مساكن من سبقه من الناس، وعظام مخلوقات أندثرت من فوق ظهر الارض منذ زمن بعيد. ومع ذلك فان كلاً منا يحمل في ذات نفسه رواسب من عهود مضت توغل في الماضي آماداً تتجاوز عصور التاريخ المعروف، وتفوق مدى خيال البشر، ويتمس في أغوار اللاشعور أسراراً أشد فتنة وأخلب لللب مما يمكن أن يصادفه المرء في الكهوف البعيدة مما يعتبر بقايا متخلقة من سلف بعيد، وأساليب في التفكير عتيقة، وعالماً من الخيال يطوي من الامكانيات ما يفوق كنوز الملك سليمان.

إن مثل ذلك يتجلى لنا ليلة بعد ليلة في أحلامنا، فتجدنا نضرب في أعماق البحار أو غابات أمريكا الجنوبية أو في سهول أستراليا لكي ندرس سكانها الاصليين، ولكننا في ذلك الخليط من خيالات أحلامنا، وأطيافها، وأوهامها المختلفة الالوان والأشكال، نواجه الليلة بعد الليلة رؤى أكثر أمعاً في الغرابة والعجب مما يمكن أن نصادفه في شعائر تلك القبائل وطقوسها. فنحن نجد أنفسنا على توالي الليالي وجهاً لوجه أمام مواقف مشيرة نصيد فيها الحيوان الكبير الذي يفوق في ضراوته وحوش افريقيا، وما أسعدنا أن نقلت آخر الأمر دون أن نكون نحن الفرائس المصيدة، وذلك لأن تلك المخلوقات التي تخطر في أحلامنا تحاول دائماً اختراق حوائل العقل

اللاشعوري كي توقظنا من نومنا هلعين. أما اذا كنا نبغي الهرب من سأم حياة النهار التي تجري على وتيرة واحدة مملة، ونتوق الى ركن سعيد نأوى اليه، فان الأحلام توفر لنا رؤى ملؤها البهجة، وتحقق لنا من المتعة والنشوة ما تقصر دونه ليالي ألف ليلة وليلة، وتتيح لنا الخطوة بنصيب من خبرات لم تنهياً لنا من قبل، بل ولا يحتمل أن نستمتع بها قط، ولكنها لا تلبث أن توقظنا من نومنا، وتردنا كرة ثانية الى حقائق الحياة اليومية. ومع ذلك فإن تلك اللحظات التي تفوق الوصف تمنحنا مهلة نستجم خلالها، وتسمح لنا ولوالى حين أن نتلمس الطمأنينة والسلم في واحة نرحب بها ونتعطش اليها أكثر مما نتعطش الى واحة الصحراء، وبذلك نمضي قدماً في حياتنا اليومية ونحن أسعد حالاً وأكثر بشراً شاقين درب الحياة برضى وطمأنينة.

ولقد قسم بعض المؤلفين الأحلام الى نوعين: النوع الاول ما يرتد أصله الى حياة المرء الحاضرة، أو الماضية، وهو لا يكشف شيئاً عن المستقبل. والنوع الثاني ما يمكن أن يكشف عن المستقبل، ومنه النبوءة المباشرة التي تنزل على النائم في نومه، والتنبؤ بأمر سوف يقع، ثم الحلم الرمزي الذي يتطلب أيضاً وتأويلاً. وقد شاع ذلك الرأي عصوراً طويلة، آمن الناس خلالها بأن في الأحلام من المعاني المخبوءة ما يكشف عن حجب المستقبل إذ استطاعوا لها تأويلاً.

لا يوافق فرويد الرأي الفسيولوجي الذي ينفي أي معنى نفسي للحلم ويربط حصوله بمثيرات خارجية أو داخلية، تؤثر على بعض أجهزة البدن أو عليه كله، فتؤدي الى ظهور الحلم. ويقول أن كثيراً من الأحلام هي نشاط نفسي خالص ينبغي تفسيره تفسيراً خاصاً به. وبهذا توفر فرويد على دراسة الأحلام عن طريق (التداعي الحر) فميز بين الشكل الظاهر للحلم، وبين محتواه الكامن، أي بين الحلم كما يظهر لنا، وكما نحكي بعضه، وبين الافكار المخبوءة التي تؤدي الى هذا الشكل الظاهر، والتي نستطيع أن نصل اليها بتحليل تفاصيل الحلم بواسطة التداعي الحر. ويقول فرويد أن المحتوى الكامن ينتظم انتظاماً متناسقاً معقولاً، ثم يتخذ مظهراً خارجياً ندركه، لكن هذا المظهر الخارجي لا يحصل إلا بعد أن تتحول الافكار الكامنة، تحولاً مجازياً رمزياً يخضع لبعض القوانين السيكلوجية التي يقوم على تنفيذها الرقيب الذي يتبع القوانين الاساسية التالية في تحويل الحلم:

- ١ - التكيف: مثل أخراج شخص من عدة أشخاص أو رسم من أسماء مختلفة
- ٢ - النقل: وهو الصاق الاهمية الوجدانية لأمر ما بغيره من الأمور في الحلم الظاهر
- ٣ - الوضع المسرحي: وذلك بإيضاح الماضي والمستقبل مع الحاضر مع فترة واحدة، وباصطناع أفانين التمثيل والتصوير المختلفة في أخراج القصة.

٤- الرمز: وهو تنكير الصور في شكل يخفي أدراكه على الشعور

هذا الى بعض القوانين الثانوية.. مثل تفصيل الامور التافهة وأصطناع حادثات الطفولة

والامثلة التي توضح ذلك كثيرة كل الكثرة، طريفة كل الطرافة (سنأتي على بعضها في نهاية هذا الفصل) كثيراً منها مقبول معقول. وعلى كل يؤكد فرويد وأتباعه أن الحلم لا يختلف عن أفكار الصحو، في أنه أكثر منها أهماً وخطأً ونقصاً، ونسياناً وبعداً عن المنطق فحسب، بل في أنه أمر، يختلف من حيث الكيف اختلافاً تاماً عن تفكير الصحو حتى لا تتمكن الموازنة بينهما، على أي وجه من الوجوه.

ولقد ذكر ليفي بريل في هذا الشأن أن الهندي الاحمر ينظر إلى الاشياء نظرة جد عملية، فهو يعتقد أن للانسان روحين، أحدهما لا تعدو أن تكون المبدأ الحيوي للجسد، وهي تفنى بفنائه، أما الاخرى فهي تحل في الجسد ولكنها ترحله عند الموت. وهذه الروح هي ملاكه الحارس، ومصدر ألهامه، والقائمة على حراسته، والهه الشخصي، وعبقريته التي يعتمد عليها، ومن ثم فهو مسؤول عما تفعله روحه هذه في احلامه.

إن ولع الناس بتفسير الأحلام قديم منذ فجر التاريخ، كما أن تاريخ الثقافة يبين لنا أن القوم كانوا في العصور السالفة، أكثر عناية بتأويل الرؤى منا في هذا العصر، حتى ليتمكن أن يقال، أن الفرد العادي منهم، كان أكثر فهماً لها من مثيله اليوم، ويكفي للتثبت من ذلك، ذلك الدور الكبير الذي لعبته الرؤى في حياة قدامى الاغارقة، أو قيام شيشرون بتأليف كتاب عنها أو امتلاء التوراة بالرؤى التي ورد ذكرها فيه، هذا الى أن رؤى التوراة قد أولت فيه تأويلاً يتميز بالفطنة والمهارة، أو هي قد وردت فيه وروداً، دون تفسير لها كأنه كان من المفروض أن يفهمها الكل فهماً صحيحاً، تواضعوا عليه، ويكفي أن نذكر حلم يوسف (اذ قال يوسف لأبيه يا أبت أني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين قال يا بني لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيداً ان الشيطان للانسان عدو مبين) ((سورة يوسف ٤ و ٥)) وكيف فهم أخوته تطلعه الى السيطرة عليهم، وبيتوا له، حتى باعوه إلى عزيز مصر.

وهناك حلم فرعون عن سبع بقرات سمان تأكلهن سبع عجاف، وهو ما فسر يوسف بسبع سنوات سخاء ورخاء تتلوها سبع كلها مسبغة ومجاعة. ومن ثم عمد يوسف الى اقامة صوامع الغلال يودع فيها القمح خلال سنوات الخير فتجنب بذلك أضرار المجاعة، وأرتقى الى أسمى مكان في البلاد، وكان في ذلك تأكيداً لنبوءة وردت في حلم سابق ليوسف رأى فيه أخوته يطأطئون الرؤوس لحزمة حصاده مما كان يعني في التأويل أن أخوته سيخضعون له. وقد

حمل أخوته هذا الحلم محمل الجد كله لدرجة أنهم وقد أدركوا بحدسهم مفاد الرؤيا، ألقوا به في غيابة الجب أملاً في ألا يتحقق الحلم. ومع ذلك فقد صدقت الرؤيا بالفعل عندما قدم أخوته إليه في سنوات الجذب والتمسوا منه الخنطة دون أن يميزوا فيه أخاهم الذي ظنوا أنهم أغتالوه من زمن بعيد، ومثل هذه الاحلام تعتبر أحلاماً تنبؤية فيها تحذير ونذير لما سيحدث.

هذا إلى أن في أهازيج الشعوب، على بعد هذه الثقافة عن تلك، ما يفهم منه أن الاحلام كانت تؤخذ وسيلة للبيئة والبرهان. وكان المصريون والاغارقة يممون شطر معابدهم، يبتغون أن يروا في ظلال رهبتها من الاحلام المقدسة، ما يهدي خطاهم في مقبل أيامهم، بل أن هنود أميركا، ما زالوا، يلجأون إلى التطهر والصيام، والاعتسال بالماء الحار، التماساً للرؤى المقدسة التي تنير لهم السبيل، وتحل لهم المضلات.

ويكاد يكون إيمان الرجل البدائي بأن المنام حق، إيمان قوى راسخ، فقد حدث أن هندياً أمريكياً رأى في منامه أن رجل الإرسالية الدينية سرق ثمرة من حقله فذهب ورماه بالتهمة صراحة، ولم يتزحزح عن إتهامه رغم ما قيل له من أن الإرسالي المتهم كان وقت السرقة المزعومة على بعد مائتي ميل من حقله، هذا إلى أن الثمرة كانت فعلاً في الحقل لم تغادر مكانها. ومع ذلك فلم يمنعه هذا من أن يطالب بالتعويض بدعوى أن الإرسالي كان لا بد سيسرقها لو أنه كان موجوداً في ذلك المكان اذ ذاك. هكذا كان البدائي يعتقد في دلائل حلمه اعتقاداً لا تزعزعه شواهد الحس والعقل التي تخالف ما هو معروف لديه.

لعله من أكثر الاحلام كشفاً عن المستقبل وأوسعها ذيوعاً في عالم الادب، الحلم الذي سرده شيشرون عن الشاعر سيمونيدس.

فقد قيل أن سيمونيدس وجد مرة جثة أنسان مجهول، ملقاة في عرض الطريق، فعنى بتكفينها، ومواراتها التراب في حفل لائق. فحذره شبح ذلك الرجل بعد ذلك من سفرة في البحر كان الشاعر يعتزم القيام بها منبأً آياه بأن اليم سوف يبتلعه أن قام بها. فتخلف سيمونيدس عن الارتحال، ولاقى جميع رفاقه حتفهم في تلك الرحلة، وسمع الناس نبأ ذلك الحلم، فكان له أثر عميق في الناس جميعاً، تناقلوه خلفاً عن سلف عصوراً طويلة وزادهم إيماناً بما في الحلم من أمور تكشف عن حجب المستقبل. لكن أدلر يفسر تلك القصة بالتالي:

إن السفن في ذلك الحين كانت كثيرة التعرض لخطر الفرق، ولهذا كان القوم قبل ركوبهم متن البحر يواصلون التفكير فيه، ويشفقون مما سوف يتعرضون له من أهوال. وكثيراً ما كان يعرض مثل ذلك لهم في أحلامهم، فليس لحلم سيمونيدس من قيمة خاصة، إلا أن

الصدفة التي أدت الى تحققه، بلغت من الروعة حداً كبيراً وبقي أثرها بالغاً في عقول الناس زمناً طويلاً فآمنوا بها تبعاً لخوف الانسان الدائم من المجهول ورغبته في تفسير مالا يدرك بالقوى الغيبية والعلل المغلقة. ويقول ادلر أننا لو أردنا تأويل ذلك الحلم، لأمكن أن نقول أنه يحتمل أن صاحبنا الشاعر لم يكن صادق الرغبة في القيام بتلك الرحلة خوفاً من أهوال البحر وعناء الطريق، وخوفاً من أخطاره، فلما اقتربت ساحة الرحيل، كان يعتصر ذهنه لالتماس سبب يبرر تردده وأشفاه من الارتحال فلم يكن منه إلا أن يطلب الى صاحب الجثة التي وراها الثرى أن يعبر له عن عرفانه للجميل، فدفعه ذهنه الى الظهور في نومه يحذره من القيام بتلك الرحلة، ويحدثه عن النبوة التي كان سيمونيدس يتشوق لتلقي مثلها، كي يبرر تخلفه عن الرحيل دون أن يتهم بالقعود والجبن.. ولو أن السفينة لم تفرق، لما سمعنا نبأ رؤياه، ولذهبت نسياً كما ذهب غيرها لأن العقل لا يولع إلا بما يعثه على القلق والتطلع والدهشة ولا يشده إلا الحديث عن الحكمة المخبوءة بين السماء والارض، تلك الحكمة التي تبدو لنا أكثر وأشد سطوة مما يدركه عقل أو يفهمه انسان.

لقد كان البدائي يعتقد في أحلامه أكثر مما كان يؤمن بأدراكه الحسي، ويتلمس منها الهداية والارشاد في شؤون حياته اليومية. فإذا رأى أحد هؤلاء الناس البدائيين في منامه أنه أستولى على شيء يملكه غيره ثم أنبأ صاحب الشيء بما رآه فان الأخير يقول له: (خذ، فإنه لك!) هذا ولا يتحمل الناس مسؤولية ما يراه غيرهم عنهم في أحلامهم فحسب، بل أن الشخص الذي توجه اليه التهمة يكون على استعداد لان يقبل راضياً مسؤولية الأعمال التي رآه الحالم يقترفها في حلمه. وإذا رأى رجل في الحلم أنه يغازل زوج آخر، وعرف عنه ذلك، فانه يعتبر كما لو كان قد ارتكب هذا العمل بالفعل، وعندئذ يوقع العقاب ويتقبل هو من جانبه الاثم والعقاب كليهما على أنهما أمران يستحقهما - وربما لم يكن ذلك بدون مبرر!

ويعقب أدلر على ذلك بقوله (إذا كان القوم قد آمنوا على مر العصور بالغموض الذي يلف الاحلام، وسيطر على قلوبهم اليقين بما فيها من كشف عن حجب المستقبل لو أستطاعوا لها تأويلاً، فليس ذلك في صميمه، سوى جانب من الحقيقة لا يتجاوز النصف. فالحق أن الحلم يصل بين المشكلة التي تعترض من الحالم والغاية التي يتشوق الى تحقيقها. ولهذا كثيراً ما يصدق الحلم، لأن الحالم يفيد من حلمه درجة، يقنعه على القيام بدوره في حل المشكلة، وتهيء الطريق لصدق حلمه).

ومما يؤخذ على ذلك المنوال القديم من التأويل، الذي ما زال أغلب الناس به مولعين، هو التماس ما في الحلم من قوى غيبية، تخلع من المعاني والتنبؤات ما يحل طلسم

المستقبل، ويكشف عن مقبل الوقائع والحادثات.. لكن أدلر يقول: أن ذلك كله لا يجد ما يؤيده من الناحية العلمية، ويذكر أنه رأى منذ مطلع أشتغاله بتفسير الاحلام، أن النائم أقل توفيقاً في ألتماس الحلول من المستيقظ، كما رأى أن الاحلام لم تكن أكثر نجاحاً في تفسير المستقبل، من التفكير العادي، بل هي أكثر تعقيداً، ومثار لتعقيد الأمور. إذ أن الأمر كله لا يعدو أن القوم يحلمون، لأنهم يلمسون في الحلم حلولاً، يسرون على هديها في نشاطهم المقبل، ومن ثم كان من البين أن هذه الحلول لن تبلغ من التوفيق ما يبلغه التفكير العادي، الذي يلم، أن أبتغى حلاً صحيحاً للمشاكل، الماماً شاملاً بأطراف المعضلة، التي تعرض له، وبوقائع الحياة الملموسة، وأوضاعها المتعارفة، بدلاً من الاسراف في التعمية والرمز وغيره.

يذكر الفيلسوف دلبوف الحلم التالي وقد سجله فرويد

((رأى حربائين (دلبوف صديق للحيوانات) وقد جمدا من الصقيع فأواهما في حجره ووضع لهما عشب، عرف في الحلم أنها آسبليوم روتاموراليس، وما أن آواهما، حتى زادا، وكثرا، إلى أن أصبح الشارع كله يعج بالحرباءات)).

عندما أستفاق كان كثير الحيرة، فهو لا يعرف العشب، ولا يذكر أن ذلك مر عليه، وبقي حائراً في سر هذا الحلم ستة عشر عاماً (الحلم عام ١٨٦٢)

وفي عام ١٨٧٨ كان في زيارة أحد أصدقائه، ورأى على المنضدة كتباً تناول واحداً منها، وإذا به مجموعة للنباتات المجففة (آلبوم) وكانت دهشته كبيرة إذ رأى اسم آسبليوم روتاموراليس مكتوباً بخط يده، واذ ذاك تذكر أن أخت صديقه إذ كانت في زيارته مرة ومعها هذه المجموعة أحب أن يعرف اسم النباتات فاستعان بأحد علماء النبات من أصدقائه وكتب عنه الاسم باللاتينية بخط يده على المجموعة.

وسجل أدلر عن أحد مرضاه ما يلي:

كان يزيع عن كل عمل شريف يرتزق منه، ولعا بالمقامرة في الاوراق المالية، وأنه كان يقامر تبعاً لما يراه في أحلامه، مسرفاً في ذلك يوماً بعد يوم، مبرراً سلوكه بأن النحس كان يلاحقه كل مرة، لا يطيع فيها هاتف أحلامه، مع أن من الواضح أنه لم يكن يحلم إلا بما كان يملأ ذهنه في حالات الصحو وأنه إذا كانت الفرص قد واثته ربحاً من الزمن، فقد أدى به الامر طبعاً الى أفلاس جحد فيه أحلامه، وكفر بها ككفر لا رجعة فيه، ومن ذلك نرى أنه لم يكن في الامر من قبل معجزة ما، لأن ما وفق اليه أول أمره، وما نزل به آخره، هو ما يلحق أمثاله في مختلف نواحي الحياة، سواء بسواء، لأن الفرد اذا أشد ولعه بأمر ما أخذ عليه جماع تفكيره وأنحدر

معه آناء الليل. حتى يمكن القول أن بعض الناس لا تلحق أذهانهم أو عيونهم سنة من النوم، يتابعون التفكير في مشاكلهم، سيراً على الاقدام أو سباحاً في عالم الكرى.

يذكر العلامة ماوري أنه في طفولته كان يمر فوق جسر تعهد والده ببنائه حيث كان مهندساً، وذلك في مدينة ميوس حيث يوصل الجسر هذه البلدة بـ(تريلبورت) البلدة المجاورة. رأى بعد ثلاثين عاماً أنه في تريلبورت كطفل يلعب مع الاطفال، وفي أثناء اللعب، اقترب من رجل فسأله عن أمسه فقال إنني (س) وأنا حارس الجسر. فأفاق متعجباً: أنه لا يذكر، لا الاسم ولا الرجل، فرجع الى البيت وسأل إحدى الخاديمات القديمات عما اذا كانت تعرف رجلاً بهذا الاسم، واذا بهاتجيب على الفور: طبعاً أنه حارس الجسر أيام أليك حين بنى جسر تريلبورت.

ونقلاً عن بوسسار كونشتام المريضة في إحدى تجاربه بعد أن أرجعها سنين طويلة الى ما قبل الولادة عما تشعر، فقالت (أنها لا تشعر الان بأن ((لاشعور)) ها في تلك السعة لا يخصصها بل يخص غيرها)

مما يقرب الى الازهان قبول هذه الحوادث، ما عرف أخيراً عن اللاشعور الجمعي الذي كان ليونغ الفضل في اكتشافه. وهو يدل على أن الخبرات النفسية والانفعالية تمتد الى أكثر بكثير من حياة الشخص حتى تصل أجداده الاقدمين.

واذا كان أصحاب السيكولوجية الفردية يعترفون بما كان لفرويد من فضل مقيم في تفسير الاحلام ويحيون فيه الشجاعة الوافرة، التي دفعت به الى العمل على تأويلها تأويلاً علمياً، وأعتبرها ظاهرة هامة من ظاهرات الحياة النفسية، ينبغي التوفر على دراستها، والعمل على تفهم طرائق نشاطها، وأساليب بيانها، فان أدلر وأتباعه، يقررون شاكرين أنهم أخذوا عن فرويد كثيراً من طرائق التأويل، الا أنهم يعيبون عليه، أنه أبعد الاحلام، وتأويلها عن نطاق العلم، لأنه أخذ يقول بوجود هوة بين عمل العقل في أثناء النهار وعمله في أثناء الليل، أي أنه يقيم حاجزاً، ويؤكد تناقضاً، بين الشعور واللاشعور يؤدي الى أن تخضع الاحلام لقواعد تناقض التفكير العادي، بينما يناقض أدلر الضرب من التفرقة، وينقدها نقداً حاداً، مقررراً أن لا تناقض هناك بين النوم واليقظة، أو بين أفكار الاحلام وأفكار الصحو، أن كل منها إلا مراتب من نشاط عقلي واحد لا ينفصل.

إن البعض أخذ على فرويد رأيه في تشبع الاحلام بالميل الجنسية تشبعاً يترها عن ضروب النشاط اليومي، وعن الاوضاع المألوفة للحياة، ويقول أنه لو كان ذلك صحيحاً لكانت الاحلام

تعبيراً لا عن الحياة النفسية في مجموعها، بل عن جانب منها فحسب. ومع أن أدلر يرى أن الاحلام حقاً وسيلة لالتماس الحلول السهلة لمشاكل الحياة وتخفف من الخشية المقيمة في نفوس الافراد من الدنيا، حين تعوزهم الشجاعة لمواجهةها، فهو يرى أن فرويد قد أسرف أسرافاً كبيراً في المجاز والتشبيه، منعه عن أدراك أنعكاس الشخصية كلها في الاحلام، ويقول أدلر أنه اذا كان فرويد، قد وفق في الوصول الى كثير من القواعد الهامة لتأويل الاحلام، الا ان ما يعوز التحليل النفسي، هو الركن الهام لاقامة علم النفس، أي النظر الى شخصية الفرد متكاملة، وتأمل الفرد وحدة، وان. اختلفت أشكال النشاط التي تصدر عنه ومن ذاته.

قلنا في البداية أن الاحلام تمثل جانباً هاماً من سيكولوجية قوة الاستدلال وشرحنا ابعاد ذلك من خلال السطور أعلاه. لهذا نرى أن التطور في الصورة النفسية يسير على مراحل وبالإمكان مراقبته في الاحلام (فالحلم هو تنمة عمل نفسي في اليقظة على رأي فرويد) وهو شبيه بعملية هضم تنتهي بتمثل الحركة. ويضع أحد العلماء تشبيهاً لذلك فيقول (اذا دخلت شوكة تحت ظفرك فلا يمضي وقت طويل حتى تبرز قوى لا نعرفها ولا نراها فتحارب الجرثوم الدخيل الى أن تقضي عليه) وما يجري في الحلم لا يختلف عن هذا.

ولكي يراقب هذا العالم هذا التطور ظل يراقب عدداً من أحلام الناس من حين لآخر، حتى يتم تمثيل تلك الاثارة. وقد رأى ان ذلك يتم في ١٢ مرحلة أطلق عليها هذه الاسماء: ١- العرض ٢- الربط ٣- اليقظة ٤- الحزم ٥- القبول بالامر الواقع ٦- الابعاد ٧- النفي ٨- التطور المفاجئ ٩- التحقق ١٠- التنقية ١١- التوافق ١٢- التمثل.

يشير هذا العالم السويسري الى هذا التطور ومراحله في أحد كتبه، فيرى ابتعاداً أو عزلة عن العالم - تماماً كما يحدث في وحيدة الخلية في تجربة ألفرده س عندما أثرت بحبيبة كورامين-سوفي الرجوع الى العالم يكون قد تغلب على الاثارة التي أبعدته فيرجع عن عزلته الى عالم الناس والحياة. ويضرب مثلاً لتأييد نظريته، هو قصة مهندس مريض، بقي في المعالجة ثلاثة أعوام، وكان عدد الاحلام التي سجلها ٨٢٣ حلماً، فكان تطور السير مترافقاً مع تطور الشفاء: فالمرض هو عناية مع فقدان الرغبة الجنسية فقداناً تاماً ثم ضيق الصدر وكآبة. والمريض في الثانية والاربعين من عمره، يؤكد أنه لم يحلم في حياته ولو حلماً واحداً، باستثناء حلم رآه قبل أن يبدأ بالعلاج يومية (رأى نفسه في طابق أرضي مظلم، ليس فيه الا بعض نور بطيء، يأتي من نافذة بعيدة، لا يصل اليها، فهي في أعلى الجدار. وقد استرعى نظره ان شبك الحديد الذي أحاط بالنافذة كان في دقته وصناعته مما يوجب الانتباه، وأستغرب أن يكون موضعه في ذلك المكان، كما أذهله أن القضبان الناعمة التي صنعت منها النافذة كانت تمثل بأشكالها أرقاماً رياضية وأشكالاً هندسية).

في خلال الاشهر الستة الأولى لم يكن يرى في أحلامه إلا آلات، وما يمت إليها كسيارات وجارات حديدية وما شابه ذلك. وفي الأسابيع الثلاثة من هذه الأشهر، رأى ثلاث مرات أنه بهذه الآلات، كأنما يحاول أن يعبر جسراً، ولكنه في كل مرة يمر فوقه يجد أنه، قبل الوصول الى الجهة المقابلة، قد خرب. ولأول مرة، بعد ستة أشهر رأى (الحياة) في أحلامه، اذ رأى نبتة مغروسة في طبق من فخار. وفي الأسبوع نفسه بدأ يحلم بأشجار خضراء وورود حمراء، غير أن هذه الورود كانت تحوي في جذورها ديداناً ويرى أوراقها ذابلة.

مضت أربعة اشهر على هذا الحلم حيث بدأ يرى الحيوانات: هي ديدان من تلك التي تعيش تحت الأرض، كحشرات سامة، وقد أستمريت أحلام هذه الحشرات مقدار ستة أشهر أخرى، رأى فيها الزواحف والضفادع والافاعي، وفي الوقت نفسه كان لا ينفك يرى الآلات والنباتات، والحيوانات التي كان يراها كانت بلون الآلات، رمادية.. وفي إحدى الليالي ارعبته رؤيا أفعى هائلة بطولها وثخنها.

بعد هذا كان أول ما رأى من حيوانات الدم الحار، هو الفار. وفي المرة الاولى، رآه يتفرس فيه من ثقب ثم ينهزم. بعد ذلك، بدأ برؤيا الخنازير، الوحشية منها والاهلية، ودام هذا زمناً حتى ضج من هذه (الخنزرة)، وكان أن أنقلمت الرؤيا الى سباع.. وجياد.

اما الانسان الاول الذي رآه فقد كان بعد مرور عامين تامين. الانسان الاول كان امرأة عجوزاً، أغمي عليها وهي في ثياب طويلة حمراء، هذه العجوز كانت تسبح في بحيرة قد تجمدت، وقد ارتعد لهذا وأسرع يطلب النجدة.

بعد نصف عام من هذا، رأى نفسه يراقص فتاة حسناء في عيد للعمال، وهي تلبس البسة حمراء قانية، وشعر بأنه يحبها حباً جماً.

ومنذ ذلك الحين رجعت اليه حياته الجنسية على أتم وجه.

اذا كان الناس يريدون الكشف عن أحلامهم ومعرفة قوة الاستدلال بها، فقد فاتهم المرمى من نسيانها وصعوبة تأويلها وفهم معناها. وقد أخذت هذه المسألة على أدلر جماع تفكيره، منذ مطلع اشتغاله بتفسير الاحلام حتى وصل أخيراً الى أن ليس في الاحلام مناقضة للحياة العادية، لأنه اذا كانت السيطرة غاية قوية، تأخذ بزمام حياتنا بالنهار، فهي تمسك بها أيضاً خلال الليل، وليس الحلم سوى محاولة لحل مشاكل الحياة، وتكملة للجهد العنيف الذي نبذله للوصول إلى الغاية التي نتوق للوصول اليها من القوة والسمو. فليس الحلم اذن سوى نتاج لأسلوب المرء في حياته، يؤيد منهاجها، ويمهد السبيل للمرء فيها، غير أنه اذا كان ذلك هو القصد من الاحلام، فكيف يصح ذلك القول

وغيابة النسيان تفرق الجانب الأكبر مما يعرض لنا من الأحلام، فلا صورة تبقى، ولا أفاصيصة تقرر الذهن، فإن بقي منها شيء لم يكن سوى نذير يسير، يتعسر علينا فهمه! يجيب على ذلك أدلر بقوله: أن الحلم وسيلة وأداة لاستشارة الأحاسيس والانفعالات، والغاية منه الحصول على الحالة الوجدانية التي يخلفها وراءه، ذلك لأن الانفعالات التي يستشعرها المرء لا بد أن تتسق وأسلوبه في الحياة، لأن الفرق بين تفكير النوم وتفكير اليقظة ليس فاصلاً باتاً. فمع أن الحلم يتر كثيراً من علاقات الفرد بالعالم الخارجي، ويباعد بينه وبين الحقيقة إلا أنه لا يسير في ذلك أشواطاً كبيرة، فإذا ازدحمت أياماً بالمشاكل، لاحقنا ذلك في النوم، وبكفي أن نذكر، كما يقول أدلر، أننا نتحاشى السقوط في أثناء النوم، ونتخذ الوضع الذي نستشعر فيه الراحة والدعة، حتى يتضح لنا أننا نستمسك ونحن نيام بعالم الواقع، ولو أن النوم يخفف عنا كثيراً من قيوده ومن أوضاع الجماعة التي نعيش في كنفها.

إن الباحثين قد فشلوا إلى الآن في الإجابة بوضوح عما يستدرجنا كل ليلة من أعمالنا ونشاطاتنا الترفيهية والجلوس إلى عائلاتنا وأصدقائنا إلى عالم النوم الموحش؟ ذلك أنه من الصعب أن نتصور أن بني الإنسان يقضون ثلث حياتهم في حالة لا وظيفة لها. ومع ذلك فقد بلغ الأمر بأحد الباحثين العلميين حداً من التشاؤم من إمكان أيجاد وظيفة محددة للنوم، جعله يتساءل ان كان للنوم وظيفة أصلاً. ولكن قبل أن أقدم بعض الوظائف المحتملة التي قد يؤديها النوم أود أن أشرح بشيء من التفصيل ماهية النوم.

وقد كان ذلك في عام ١٩٥٢ وبالصدف، حين كلف طالب حديث التخرج بمراقبة أجفان متطوعين نائمين ليرى ان كانت الاجفان تتحرك خلال النوم. ولاحظ أنه في أوقات معينة أثناء الليل تتحرك عيون النائمين في محاجرهما حركة نشطة بينما تبقى الاجفان، المكلف بمراقبتها، مسدلة ساكنة. ولم تكن حركة العيون متوقعة لأن الفكرة السائدة منذ أمد هي أن النوم عبارة عن فترة هدوء وكمون وليست فترة ينشط فيها الدماغ بحيث يحرك العيون بسرعة أكثر من حركاتها في فترة الصحو. ومنذ ذلك الوقت فهم الكثير عن هذه الحركة السريعة أثناء أطوار معينة من النوم. وتكون تلك الاطوار مصحوبة بطرزميمية من الموجات الدماغية وازدياد في تدفق الدم إلى الدماغ وبالتالي ازدياد حرارة الدماغ وتنفس غير منتظم وتقلصات عابرة في عضلات الوجه والانامل وغير ذلك من المظاهر. ويكون النوم في هذا الطور نوماً نشيطاً - حتى ولو أن العضلات الكبيرة في الجسم تكون مسترخية تماماً. والنوع الآخر من النوم هو طور معاكس للطور الاول في أن حركة العيون السريعة لا تحدث خلاله. ومن مظاهر هذا الطور أن يكون التنفس منتظماً وحركة العضلات في الجسم متوقفة ونشاط الدماغ قليلاً، وفي هذا الطور يحدث الشخير.

وفي بدء النوم تحدث أمور غريبة، كأن يحس الشخص الذي يكون على وشك النوم بصدمة كهربائية أو ومضة ضوء أو صوت رعد. على أن أكثر الاحاسيس شيوعاً هو الشعور بالطفو في الهواء أو السقوط خلاله إلى أسفل. والحادثة التي تحدث لكل أنسان في بدء النوم ((على الرغم من أن كثيرين لا يذكرونها (لأنها لا تعيد الانسان دائماً إلى صحوه)) هي حركة أنتفاضة فجائية في الرأس أو أحد الاطراف أو حتى الجسم كله. ويظن معظم الناس أن بدء النوم هو عبارة عن أنزلاق تدريجي نحو النسيان والاسترخاء الكامل، ولكن بدء النوم لا يكون تدريجياً البتة، بل يحدث فجأة في لحظة قبلها مباشرة كان المرء مستيقظاً وبعدها مباشرة يكون نائماً.

وتكون دوماً، أول مرحلة من النوم، فترة هدوء (أي مرحلة عدم حدوث حركة العيون السريعة) وتتألف من أربعة أطوار في كل منها على التتابع يتعد النائم أكثر فأكثر في البيئة ومؤثراتها على الحواس.

وعلى سبيل المثال، فإن الاطفال حين يصلون الى الطور الرابع يصبح أيقاظهم صعباً، وعندما نوقظهم، بعد لأي، يبقون في حالة لا وعي عدة دقائق قبل أن يعودوا الى وعيهم. وفي هذا الطور الرابع المتميز بعمق النوم يحدث تكلم النائم وسيره (دون أن يعي ذلك) كما تحدث الكوابيس والاحلام المرعبة وفيه يول الاطفال في فراشهم. وبعد البقاء فترة في الطور الرابع العميق يعود النائم أدراجه الى الطور الثالث فالثاني فالأول حيث يكون النوم سطحياً خفيفاً.. ويكون التحول من بدء النوم (الطور الاول) الى النوم العميق (الطور الرابع) تحولاً ينزل في النائم سطحياً خفيفاً.. ويكون التحول من بدء النوم (الطور الاول) الى النوم العميق (الطور الرابع) تحولاً ينزل في النائم من طور الى طور أنزلاقاً تدريجياً، بينما تكون عودته من الطور الرابع إلى الثالث فالثاني فالأول في قفزات غير منتظمة. وبعد الطور الأول يدخل النائم في مرحلة النوم النشط (أي مرحلة حركة العيون السريعة). وقد وجد أن النائم يمضي حوالي ٧٠ إلى ٨٠ دقيقة في مرحلة النوم العميق بأطوارها الاربعة، أما في مرحلة النوم النشط فيمضي حوالي ١٠ دقائق، أي أن دورة النوم كاملة من بدء النوم بالطور الأول للنوم العميق نزولاً الى الطور الرابع ثم رجوعاً الى الأول فالنوم النشط تستغرق ٩٠ دقيقة في المتوسط، وفي أشخاص تكون قصيرة أي حوالي ٧٠ دقيقة فقط بينما في آخرين تكون طويلة تصل إلى ١١٠ دقائق. ورغم أنهما يختلفان عن بعضهما البعض أختلاف حالة النوم عن اليقظة، يستمر نوعا النوم السطحي (النشط) والعميق (الهادئ) في التعاقب في دورات كالتالي ذكرنا طول فترة النوم. ولكن مع اكتمال كل دورة تطول تدريجياً فترة النوم السطحي النشط (نوم حركة العيون

السريعة) حتى تصل الى ٦٠ دقيقة (بدلاً من ١٠ دقائق في بداية النوم) وذلك قبل الاستيقاظ مباشرة، وبالمقابل تقصر تدريجياً فترة النوم العميق (نوم عدم حدوث حركة العيون السريعة) الى درجة ملحوظة، والكبير البالغ الذي يمضي سبع ساعات ونصفاً نائماً، يصرف منها ساعة ونصفاً الى ساعتين في نوم نشط معظمه عند نهاية فترة النوم.

لقد تبين أن المفهوم الجديد للنوم، الذي تبلور في العقود القليلة الماضية من تجارب مختبرات علمية عديدة، أنه ليس كما صورته شكسيير على أنه (موت مزيف)، كما أنه ليس كما كان سائداً في الازدهان من أنه (اختفاء شيء من مظاهر اليقظة)، بل بالاحرى هو حالة فاعلة لا يهدأ الدماغ فيها عن النشاط. وقد تبلورت نظرية تسند الى كل نوع من نوعي النوم وظائف مختلفة: فالنوم العميق: كما يبدو، يعمل على تمكين الجسم من النمو وأصلاح ما تلف من أنسجة الجسم وتركيب البروتينات. وعلى ذلك يكون هذا النوع من النوم ضرورة بيولوجية، وبدون ذلك ينهار الانسان من وجهة حيوية، وقد لوحظ أنه اذا حرم انسان من النوم فترة فان أول ما يعوضه، عندما يتاح له النوم، هو النوم العميق، والى أن يتم التعويض عن ذلك يظل المرء يشعر بالتعب والكسل والتبلد ويكون أقل قدرة ونشاطاً من عادته على القيام بالأعباء الجسمية.

ويبدو النوم السطحي أنه يجدد العمليات العصبية التي هي قاعدة الوعي، وهي عمليات فكرية لا جسمية، والناس الذين يحرمون منها لا يشعرون بالكسل والتبلد بل يكونون سريعين الاثارة عاطفياً، ويكون أداؤهم في اختبارات التركيز الذهني والتعلم ضعيفاً، وهذا النوع، كما يبدو، ضروري لتكامل فهم ما تعلمه المرء حديثاً وحفظه في الذاكرة. ولذا فان الطلبة الذين يسهرون طول الليل أو معظمه محاولين دراسة أو استذكار مادة ما لامتحان سيعقد في اليوم التالي لا يكون أداؤهم جيداً بقدر اولئك الذين قضوا ليلهم ساهرين يدرسون قد تعلموا دون ريب عدداً من الحقائق الجديدة. ولكن هذه الحقائق لا يمكن أن تتذكر وتفهم تماماً ما لم يتم تكاملها وحفظها في الذاكرة. وهذا لا يتم إلا في حالة النوم السطحي. كذلك يبدو أن النوم السطحي يساعد الناس على تحمل الضغوط النفسية اليومية. وقد أظهرت التجارب أن المتطوعين الذين تعرضوا لحالات ضغوط نفسية ازدادت حاجتهم للنوم السطحي، كما أنهم خلاله تكيفوا مع الحالات النفسية الضاغطة وتقبلوها أو تعايشوا معها.

من كل ذلك يتضح أن الاحلام والنوم هما من عوامل الاستدلال في الانسان، وإن كانت عملية النوم هي المهيمنة لذلك وتأتي الاحلام متوجة لها.

الحدس المتنبئ

يمكن أن يقال الحدس المتنبئ عن مثل التنبؤ بالخطر الداهم الذي يمنع شخصاً من السفر في سفينة معينة أو قطار معين، سواء أكان ذلك في الجو أو في الحلم، وليس من المنطقي أن نرفض رفضاً قاطعاً إمكان التنبؤ حتى يتوفر لنا مزيداً من العلم بما نعينه بالزمان، ومزيداً من العلم بطبيعة العقل دون الشعوري ووظائفه. ثم أن هذه ليست باستحالة وقوع أشياء معينة كسيق العلم على سبيل التمثيل.

وليس لنا إذا قبلنا بوجهة النظر هذه أن نجعل من أحلامنا وتنبؤاتنا هي التي تسير وقضايانا ومشاكلنا، أنه عرض باطني لمشاكلنا أو أُنذار في هذه الصيغة أو تلك. ومن الخطأ الشائع بالنسبة للحقائق أن ننظر إلى العدد الكبير من الاحتمالات باعتبارها تنهض دليلاً وبرهاناً في ذاتها، على حين أنها قد تكون قائمة على مغالطات تفسدها. إن بضع حالات لا يرقى إليها الشك، إذا كان بالوسع إثباتها، تساوي في قيمتها عدداً كبيراً من الحالات التي تفتقر إلى البرهان، مهما بدت صادقة في ظاهرها. وهذا هو السبب في أننا في العلم يتعين علينا أن نجتمع عدداً كبيراً من الحالات الصادرة الثابتة لكي نبرهن على وجهة نظر معينة. وفي الوقت نفسه ليس يكفينا عدم إقامتنا البرهان العلمي على أمر من الأمور الدالة على أنه غير صحيح. فالاعتقاد قبول حقيقة أفترضية في غيبة الدليل والبرهان. إن هناك بعض الناس الذين يعتقدون في التجاوب العقلي عن بعد، والتنبؤ التحذيري، والوجود الروحي، وإن لم يقتنعوا بعد بأنها أمور ثبتت بالدليل العلمي، هذا فضلاً عن أن من حقهم أن يعتقدوا في هذه الأمور، إذ أن اعتقادهم هذا قد ثبت في يوم من الأيام.

ومن الأمور الواضحة أن بني الإنسان لا يمكنهم اعتبار الحواس بأنها دوماً مرآة دقيقة، تعكس صورة العالم، ويزيد الوضع تعقيداً أن كل أنسان يخلط مع الأحداث الحسية خبراته الخاصة وشخصيته وأحتياجاته وخوافزه وتوقعاته الثقافية. ولإيضاح ذلك، وبخاصة التوقعات

الثقافية نقول، أن المحارب الهندي الاحمر يعتزل الناس، في فترة من حياته، وفي بقعة منعزلة موحشة محاولاً طلب (رؤيا) معينة. وفي العادة يعود من فترة الاعتزال وقد حصل عليها بسبب أنه كان قد شحن نفسه الى أن وصل الى حالة عاطفية شديدة التركيز، جعلته على استعداد لتصوير رؤياه وتحقيق التجربة التي توقعها هو ومجتمعه. وهناك آخرون ممن سعوا للحصول على رؤى خارقة بهذا الاسلوب الصوفي، نذكر منهم النساك البوذيين والرهبان المسيحيين والنساك الصوفيين اليهود ودراويش الذكر المسلمين. ومن الواضح أن الطرق المتعددة، التي يفسر بها البشر الانطباعات التي تنهال عليهم من حواسهم تتطابق وتنسجم مع توقعاتهم الثقافية وشخصيات الافراد الخاصة. ويكون بنو الانسان فكرة عن الاشياء من خلال المعلومات التي يحصلون عليها من حواسهم، ولكن هذه المعلومات تتأثر تأثراً عميقاً بما يعرفونه، أو يظنون أنهم يعرفونه، عن تلك الاشياء، وفي قصة مشهورة لأدغار آلان بو ورد أن أحداً لم (ير) الرسالة المسروقة رغم أنها كانت على مرأى من الجميع بسبب توقع معظم الناس أن يكون الشيء المسروق مخبأً. ولذا يصح القول بأننا لا نعتقد بما نرى فحسب بل ونرى ما نعتقد في باطننا.

ومن ذلك يمكن القول أن هناك بون شاسع بين العالم الحقيقي، كما تحدده وتقيسه أجهزة علم الفيزياء، والعالم كما يعرفه الناس، بإستخدام حواسهم المجردة في فهمه. وهذا الفرق الهائل يستند الى ثلاث حقائق واقعية واضحة:

الأولى- انه يمكن للحوادث أن تؤثر في الحواس دون أن تلاحظ لسبب أو لآخر

الثاني - ان حوادث عديدة تقع خارج نطاق الحواس المجردة، فكثير من الاصوات التي تصدر باستمرار نتيجة اهتزاز المادة تكون إما ضعيفة أو عالية التردد، بحيث لا تستطيع الأذن الانسانية سماعها، وكذلك لا تستطيع العين المجردة رؤية الاشياء الصغيرة جداً مثل الكائنات الحية الدقيقة التي تنتشر على سطح كل جسم وشيء في هذا العالم. كما لا يملك بنو الانسان أعضاء حس قادرة على أكتشاف مدى واسع من الطيف الكهرومغناطيسي يشمل أشعة غاما والأشعة السينية وموجات الراديو والأشعة تحت الحمراء.

الثالثة - أن الناس لا يعقلون بشكل كامل الحادثة التي تتجلى للحواس، اذ كثيراً ما تغفل العينان بعضاً من ملامح الجسم المرئي أو تضيف اليها أو تشوهها وبذا يتولد خداع بصري، كثيراً ما يضللنا.

إن ثقة بني البشر بأنفسهم، وهم يتجولون في أرجاء بيئتهم، غريبة نظراً لقلة المعلومات عن البيئة التي تصل أدمغتهم عن طريق حواسهم، فالناس ينظرون الى منزل من الخارج ويعرفون رأساً

دون أن يدخلوه أن به غرقاً. وللأطفال نفس حواس الكبار وتعمل بنفس الكفاءة ولكن الطفل الصغير لا يستطيع تصور ما في البيت بدقة من مجرد رؤيته من الخارج. ولا يرجع ذلك الى اختلاف الاحاسيس التي يحس بها الصغار، ولكنهم يتعلموا بعد كيف يفسرون المعلومات التي تنقلها اليهم تلك الاحاسيس. أما الاطفال الأكبر سناً فيكونون، مثل الكبار، وقد تعلموا كيف يترجمون المؤثرات الحسية بعملية تعرف باسم (الادراك) الى خبرات وتجارب منظمة، أو ما يعرف بالمدرجات، ويميز معظم علماء النفس بين الاحساس والادراك، ويضعون نقاطاً لذلك:

فالأحاسيس تكون نسبياً بسيطة مثل صوت عال يصدره مولد يهتز. أما المدرجات فهي نتاج ترابط وتداع معقد بين أحاسيس عديدة، كما يحدث عندما يفهم صوت عال كصرخة أستغاثة، ويكون عندها مصحوباً بأحاسيس رائحة الدخان ورؤية السنته اللهب ولسعة حارقة في الأنف، مما يسبب سلوكاً معقداً قد يتمثل في اندفاع الشخص الذي أحس بتلك الاحاسيس الى داخل المبنى المحترق لينقذ انساناً من اللهب.. وتسبب الاحاسيس ذاتها نفس المؤثرات في الفرد: ففي أي مكان في العالم تضاء فيه إشارة المرور الحمراء يرى المرء ضوءاً أحمر. ولكن المدرجات من ذلك تختلف بدرجة كبيرة حسب ما كان المرء قد تعلمه طول حياته وحتى آخر مرة رأى فيها ضوء مرور أحمر.

وعلى ذلك فالأدراك عملية نفسية ينظم بها بنوالانسان ويفسرون الأدلة التي جمعتها لهم الحواس عن البيئة. ويعتقد كثيرون بأن الادراك يتم تلقائياً ودون جهد أو تفكير متعمد، إلا أن التجارب أثبتت أن المدرجات يستغرق تكونها وقتاً، وصحيح أنه في بعض الاحيان لا يزيد ذلك الوقت عن بضعة أجزاء من ألف من الثانية، ولكنه في أحيان أخرى، يصل الى عدة ثوان بالنسبة الى شكل هندسي بسيط. أما للأمور الأكثر تعقيداً، التي تكون فيها الاحاسيس غامضة أو غير كاملة فان المدرجات تحتاج الى وقت طويل حتى تكون جاهزة. والملفت للنظر بشأن الادراك هو أن الناس، بعد أن ينظموا المعلومات التي يحصلون عليها عن طريق الحواس بالسرعة التي يستطيعونها، يستمرون في إعادة تفسيرها في ضوء أية معلومات جديدة تتوفر لهم، ويستمر الناس في أدراكهم للعالم كنظام ثابت مرتب على الرغم من أن المعلومات التي تجمعها الحواس عنه تدل على أنه متغير وغير منظم. وهذا يعني أن العقل يهمل الدليل الواضح الذي تقدمه الحواس لأن التجربة والخبرة السابقة قد تركت فيها أنطباعاً متغيراً.

ويرى بيتر فارب أن معظم الناس يميلون لتنظيم ما يصل الى أدمغتهم من مؤثرات بصرية في عدد محدود من طرق متشابهة، ولذلك فان بعض الادراك يعتمد إلى حد كبير على

أختلاف المدركين في ميزاتهم الفردية، ومما يؤثر في الإدراك تأثيراً عاماً واضحاً أن الناس يرون ما يتوقعون رؤيته، وهذه التوقعات نتيجة مباشرة لخبراتهم السابقة ومستوى تعليمهم وحوافزهم. ففي تجربة تقليدية قسم عدد من المتطوعين الى ست مجموعات، أفراد كل مجموعة متجانسون يشتركون معاً في اهتمام مشترك كالدين والاقتصاد.. الخ. ثم عرضت على شاشة صور وكلمات مختلفة، وطلب الى المتطوعين تسجيل الكلمة أو الصورة التي أدركوها أولاً، فوجد أن أفراد المجموعة الواحدة المتشابهين في الاهتمام كان اختيارهم في الغالب متشابهاً، فالذين كانوا يهتمون بالدين كانوا أول من أدرك كلمة (مقدس)، والاقتصاديون أدركوا قبل غيرهم كلمة (دخل) أو (ربح).. وقد عرف قبلاً أن الجائع يرى في بقعة خبز لا معنى لها شكل غذاء وأشياء ذات صلة بالغذاء. وكثيراً ما يرى الأطفال صور الحلوى في شكل لا صلة له بالحلوى إطلاقاً. كما أثبتت تجارب أجريت على أطفال فقراء، بأن طلب اليهم أن يرسموا موضوعاً يتعلق بالنقود، أنهم كثيراً ما يبالغون في حجم قطع النقد المعدنية التي يرسمونها.

وقد تعلمنا من خلال تجاربنا أنه تحدث اختلافات واضحة في الإدراك لا بين الأفراد المختلفين فقط بل أيضاً عند الشخص نفسه عندما يحدث الإدراك عنده في أوقات مختلفة. والاعتقاد الشائع بأن الناس يدركون العالم بشكل مختلف في كل طور من أطوار حياتهم - من الطفولة حتى الكهولة والهرم - صحيح، وقد تأكد بتجارب مختلفة.

كما أثبتت تلك التجارب أنه بتقدم العمر يحدث تصلب في التوقعات عند المرء. فكلما زاد الأطفال عمراً ونضجاً زاد اعتمادهم على الثوابت الإدراكية كشكل باب أو طبق طعام. ومع ازدياد التعلم والخبرة في تكوين المدركات بأزدياد العمر، يصبح الناس أكثر استعداداً للوقوع ضحية بعض أنواع الخدع البصرية. فمثلاً، إذا كانوا قد تعودوا على رؤية زوايا قائمة في بيئتهم، كما في الابنية والشوارع وتخطيط المدن والمزارع.. الخ، كان من السهل خداعهم بخدعة بصرية مبنية على أدراك الزوايا القائمة. ويبدو أن هناك اختلافات في الإدراك بين الجنسين، ولكن ليس من المؤكد ما إذا كان السبب متعلقاً بالاختلافات البيولوجية بينهما أم أنه بسبب اختلافات أدوارهما المفروضة عليهما بسبب جنسيتهما في المجتمعات المختلفة. وقد وجد أن الذكور في أمريكا الشمالية، مثلاً، يكونون في تفهمهم للأحاسيس (مستقلين عن المجال) بدرجة أكثر من الإناث، بمعنى أنهم أقل تأثراً منهن بالأطوار العام الذي تحدث ضمنه الاحاسيس (مستقلين عن المجال) بدرجة أكثر من الإناث، بمعنى أنهم أقل تأثراً منهن بالأطوار العام الذي تحدث ضمنه الاحاسيس. فمثلاً لو وضع مثل هؤلاء في غرفة صممت خصيصاً بحيث لا يكون فيها أي مرجع محسوس يعطي فكرة عن المستوى العمودي والافقي، كأن

كانت كروية وكل الاثاث فيها دائري الشكل وغير مستقيم، فانهم يستطيعون أن يقيموا قضيباً بحيث يكون عمودياً تماماً. ويمكن تفسير تفوق الذكور في مثل هذه الاختبارات بأنه ناتج عن أساليب تربية الطفل في أمريكا الشمالية التي تشجع الذكور على المبادرة والمغامرة، وليس عن أية اختلافات بيولوجية أو نفسية بين الجنسين ذات أثر في أدراكهما للمدركات.

إن المشكلة التي تطرحها ظاهرة الادراك بغير الحواس هي أنه لا توجد لدينا حتى الان أية وسيلة عملية لتقويم هذه الظاهرة، ومع ذلك فقد جرت محاولات لإخضاع هذه الظاهرة للبحث على أسس علمية، غير أن علينا أن نلاحظ أن عمل ذلك أسلوب علمي صعب جداً، لأن التجارب هذه لا يمكن أن تتكرر كما يتطلب الاسلوب العلمي للتأكد من نتائجها. ولا يمكن القول، في الوقت الحاضر، ما اذا كان الادراك بغير الحواس موجوداً أم لا في النوع الانساني بعامة أو في عدد قليل من الاشخاص الموهوبين. ومما لا شك فيه أن هناك حالات محيرة تظهر أن بعض الناس يملكون قوى لا يمكن تفسيرها في الوقت الحاضر بمفاهيم القوانين الفيزيائية المعروفة. ومع ذلك لم يكن ممكناً تصميم تجارب محكمة لأختبار الأفراد الخارقين ومقارنة نتائجهم بالناس العاديين ولايجاد تفسيرات بديلة يمكن أن تنطبق مع أي من القوانين والمبادئ العلمية المعروفة التي تحكم الكون. وواضح أنه لا يمكن التهرب من اعتبار ظاهرة الادراك بغير الحواس قوة ممكنة في النوع الانساني، غير أنه لم يتم اثباتها والبرهنة عليها حتى الان. وهذا الوضع ليس شاذاً في العلم وتاريخه، فنظرية كوبرنيكوس بأن الارض تدور حول الشمس استندت الى ظاهرة ازاحة مواضع النجوم كما يبدو لعين الرائي، مع أن الفلكيين لم يثبتوا تلك الظاهرة الا بعد مرور قرنين من الزمان. كذلك أفترض وجود الذرات قبل ألفي سنة، ولكن لم يبرهن على أن من الممكن فلق أنوية الذرات إلا عندما أنتشرت سحابة (عيش الغراب) فوق الاموجوردو في مكسيكو الجديدة عام ١٩٤٥ والمعروف أن الانفجار النووي يولد سحابة لها ساق وقرص منتشر أعلى الساق شبيهة بشكل فطر عيش الغراب، والاشارة هنا الى الانفجار النووي التجريبي الاول.

وقبول فكرة العلم السابق ينطوي، في المقام الاول، على أن المستقبل كله، أو أجزاء منه، يعتبر سابق التدبير، كما ينطوي، في المقام الثاني، على أننا قادرون على العلم بها سلفاً، أننا قد نرفض الامر باعتباره خرافة شعبية، إلا أن عدداً متزايداً من العلماء أصبحوا يوجهون اهتمامهم الى الامر، والعجيب أن ثمة بعض علماء الفيزياء، ولا نقول علماء النفس، ممن يرون أن الاعتقاد في سبق العلم لا يتعارض كلية مع نظريات الزمان والمكان الحديثة.

وفي ذلك يقال أن علينا أن نثبت تماماً من حقيقة ما قبل أن نلجأ الى أية نظرية يمكن تقديمها لتفسير مدى إمكان حدوث أمر كهذا، فلا تكون عندئذ ثمة ضرورة يعتد بها لجمع الشواهد والادلة على وقوعه فعلاً. وكلما كان تفسير (الحقائق) بسيطاً، قلت الحاجة الى تحقيقها بالتفصيل، فاذا أخبرنا شخص بأنه سافر من القاهرة الى الاسكندرية بالقطار في ساعة ونصف من الزمن، فأننا قد نتقبل هذه الحقيقة دون بحث، لأننا نعلم أنها ممكنة. ولكن اذا كانت الحقائق لا تقبل تفسيراً معروفاً، أي اذا كانت من نوع يتجاوز المؤلف، فإنه يصبح من الأهم عندئذ أن نجمع أكبر عدد ممكن من الحالات، وأن نخضعها للفحص الدقيق، ثم نفسرها أن أستطعنا بمقتضى أبسط فرض ممكن



إن مادة الاحلام هي إحدى الظواهر التي تتناولها قوة الاستدلال في الحدس المتنبئ، وخاصة التحقق مما اذا كانت الاحلام تسفر عن أي دليل يؤيد الاتصال العقلي عن بعد، أو التنبؤ والتحذير السابق.

وقد وضع ج. أ. هادفيلد أنواع ثلاثة من الحالات لمثل هذه الاحلام وهي:

أولاً: تلك الحالات التي تبدو في ظاهرها (تلييائية)، أي التجاوب العقلي عن بعد، أو تنبؤية، ولكنها على غرابتها يمكن تفسيرها على نحو أكثر بساطة.

ثانياً: ثم تلك الحالات التي يبدو فيها الحالم وكأنه يتلقى أنباء صادقة عن أمور تحدث في نفس الوقت، كموت قريب على مبعدة، مما لا يمكن التوصل اليه عن طريق الحواس المعروفة، أو أستنتاجية من علم سابق، ولكنه يفسر طبعاً لظاهرة التجاوب العقلي عن بعد اذا كنا نقبلها.

ثالثاً: ثم تلك الطائفة من الاحلام والخبرات الغريبة التي تبدو في ظاهرها تنبؤية، والتي لا يمكن تفسيرها طبقاً لأية قوانين معروفة، أو بالتلييائي، ومن ثم فهي لا تجد لها في الوقت الحاضر أي تفسير كاف.

وسوف أضع للقارئ هنا رسالة تلقيتها من أحد الاصدقاء يطلب مني تحليل حلمه وكيف صدق، وهاكم مضمونه.

لهذا الصديق ابن عم يخدم في الجيش على حدود العدو، وقد حلم في يوم من الأيام أن قريه قد قتل، ولم ينم تلك الليلة من شدة القلق، وفي اليوم الثاني تحقق من الامر فكان حلمه صحيحاً وأن ابن عمه قتل تماماً في الوقت الذي حلم به بذلك.

إن الكثير من أمثال هذه الأحلام قد تضمنها كتابنا (الأحلام: تحليل مائة حالة نفسية) وكان تحليلنا في الغالب أن هذه الأحلام هي من وحي الصدفة، وتدعيماً لهذا الرأي يقال أن المئات قتلوا في ذلك البلد في الوقت ذاته، هذا إلى أن الفكرة لا بد وأن تكون قد خطرت في بال المريض بأن ابن عمه يمكن أن يقتل. وهذا حق، ولكن لندخل في اعتبارنا أن الفكرة كانت أبعد ما تكون عن مجرد خاطر عابر، أو حلم مألوف لديه، إذ أن هذه المناسبة كانت الوحيدة التي حدث له فيها حلم من هذا القبيل، ثم أن وقوع الحلم في ذلك الصباح بالذات، بل في نفس الساعة على وجه التحديد، يكاد يكون أمراً ملفتاً للنظر، وأنه كان حلماً حياً إلى حد ما، وانها توحى بأن ثمة أمراً يتجاوز المألوف له صلة بها. ومع ذلك فإن حلماً هذا شأنه يمكن تفسيره على أنه من قبيل التجاوب العقلي عن بعد، إذا كنا نعتقد حقاً في هذه الظاهرة.

وفيما يتعلق بمشكلة أنتقال هذه الرسائل، إن كانت كذلك، فثمة نظرية جذابة تقول بأن هذه الرسائل تنتقل عن طريق موجات مخية فيزيائية، لأنه أصبح الآن من الثابت الوطيد أن المخ يبعث موجات تتفاوت في قوتها وشكلها وحجمها. والواقع أن قياس هذه الموجات وتسجيلها قد أصبح أسلوباً مألوفاً في إجراءات التشخيص الطبي المعتادة. ولكن المسافة التي تعبرها هذه الموجات، التي كثيراً ما تعبر الشقة البعيدة بين طرف العالم والطرف الآخر، وقد أمتدت في حالة الجندي الذي ذكرناه، هذه المسافة الشاسعة تستبعد هذا الاحتمال فيما يظهر، وثمة حجج أخرى تناقض هذه النظرية أوردها (تيريل) ولا بد من إيجاد تفسير آخر لهذا الانتقال لا يذهب في المادية مذهب نظرية موجات المخ إلا أن تفسيراً هذا شأنه ما زال في عالم الغيب.

تحفل مجلدات أعمال جمعية البحث الروحي^(*) بوقائع أحلام كثيرة من تليياثية واندازية منها هذا الحلم الانذاري: صادف أن كانت السيدة ك تعيش مع خالها الذي كانت تنزله من نفسها منزلة الأب. وحلمت ذات مرة أنها كانت جالسة في حجرة الاستقبال بيته ومعها أختها. وكان يوماً بديعاً من أيام الربيع، وكانت الحديقة عامرة بالأزهار الكثيرة، ولكنها رغم ذلك كانت مكسوة بطبقة رقيقة من الثلج. وقد علمت في الحلم أن خالها عثر عليه ميتاً إلى جوار طريق تمر به الخيول ويبعد عن البيت ثلاثة أميال، وأنه كان مرتدياً حلة قائمة صنعت من غزل يدوي، وكان جواده واقفاً بجواره. وعلمت كذلك أن الجنة كانت في طريقها إلى

(*) كتب الدكتور وليم جيمس الفيلسوف وعالم النفس الشهير في شأن هذه الجمعية قائلاً: (إذا سئلت أن أدل أمرئ على مجلة علمية يتمثل فيها التزم والشك الذي لا يففل عن مصادر الخطأ أكمل تمثيل، فأني أعتقد أن من واجبي أن أحيله إلى مجلة أعمال جمعية البحث الروحي). ورد ذلك في كتاب جيمس (إرادة الاعتقاد، لندن ١٨٩٧).

البيت، محمولة على عربة ريفية يجرها حصانان، وقاع العربة مغطى بقش الحصاد. وكان الجميع ينتظرون وصول العربة تحمل الجثة الى البيت. ثم رأت العربة في الحلم تصل الى باب المنزل، ورأت رجلين تعرفهما جيداً يحملان الجثة ويصعدان بها الدرج بصعوبة كبيرة، حيث كان الخال رجلاً ربة بديناً، وفي أثناء ذلك كانت اليد اليسرى للجثة متدلية، فأصطدمت بحاجز الدرج في أثناء صعود الرجال بها، ولشد ما راعها هذا حتى أستيقظت.

ولما أطل الصباح أحست باضطراب شديد، فأخبرت خالها بالأمر، وتوسلت إليه أن يعدها بالأمر في هذا الطريق بمفرده، فوعد بأنه سيتلمس دائماً الأسباب لاصطحاب السائس معه كلما عن له أن يركب في هذا الطريق في المستقبل. ثم عفا النسيان بالتدريج على ذكرى هذا الحلم، ولكنه ما لبث أن عاودها بعد عامين في جملة وتفصيله. وأتهمت السيدة ك خالها بأنه أدخل بوعده، فصارحها بأنه كان يفعل ذلك حقاً بين الفينة والفينة. ثم تزوجت السيدة بعد ذلك بأعوام أربعة، وغادرت بيت خالها، وأقامت في لندن تنتظر ولدها الأول. وفي الليلة السابقة على الوضع وقع لها الحلم مرة أخرى، مع تغيير مفاده أنها كانت في حجرة نومها في لندن، ولم تكن في حجرة الجلوس ببيت عمها كما كان الحال من قبل. ومع ذلك فقد كان بوسعها أن تدرك المنظر كله. كما حدث في المرات السابقة. ثم أستجدت نقطة أخرى، حيث حضر شخص يرتدي ثياباً سوداء كاملة، ولم تكن تستطيع رؤية وجهه، ووقف بجوار فراشها، وأخبرها بأن خالها قد توفي، فصحت من نومها وقد غمرتها الكآبة، ولكنها نظراً لما كانت عليه من مرض، فإنها لم تشغل بالها كثيراً بهذا الحلم. وبعد بضعة أيام سمحوا لها بأن تكتب لخالها بضعة أسطر قليلة بالقلم الرصاص، وقد وصلته الرسالة الموجزة قبل وفاته يومين اثنين.

كانت دهشتها كبيرة، في فترة النقاهة، أنها لم تعد تسمع عنه شيئاً، حتى جاءها ذات صباح نبأ بأن زوج أمها كان راغباً في رؤيتها، فأدخلوه عليها في الغرفة، وكان يرتدي ملابس سوداء، ووقف بجوار فراشها، فصاحت السيدة ك قائلة (لقد مات الكولونيل، أني أعلم كل شيء عن هذا الأمر، لطالما حلمت بذلك).

ويقول كاتب التقرير أن التحقيقات التي تلت ذلك دلت على أن الحلم تحقق في كل صغيرة من تفصيلاته حتى ما كان من أمر يد الجثة اليسرى التي كانت ترتطم بحاجز الدرج. ثم أن الرجال الذين حملوا الجثة كانوا هم بالذات الذين رأتهم في الحلم. أما النقطة الوحيدة التي لم تصدق فهي المتعلقة بالأزهار المكسوة بطبقة من الثلج، ولكن السيدة تبينت أن أحلام الأزهار والثلج كانت ترمز في اعتبار أفراد أسرتها الى الموت.

إن تفسير هذا الحلم متعدد ويتبع ذلك من الذي يفسره ولمن يتبع في المدرسة التحليلية، بيد أن تعليق المجلة كان أنه حلم يمتاز على العموم بأنه ملفت للنظر مثير للاهتمام بصفة خاصة. لا لأن تفاصيل الحلم السابق كانت كاملة ومتعددة فحسب، ولكن لأن تكرر وقوع الحلم للحاملة جعل منه حلماً ملفتاً للنظر، هذا فضلاً عن كونه مثلاً على التنبؤ البعيد المدى، إذ أن الحلم الأول حدث قبل وقوع الوفاة بست سنوات.

ويعلق ج. إ. هادفيلد على مثل هذه الحالات من الأحلام التي تتوفر فيها مجموعة كبيرة من التفاصيل الدقيقة الصادقة، ومن بينها أمر له طابع غير مألوف (يد الميت التي تصطدم بحاجز الدرج حيث كان محمولاً إلى أعلى) يصبح القول بالاتفاق والصدفة مسألة مشكوكاً فيها!! وهكذا فإن الحدس المتنبئ له صفات ترد من ضرورات باطنية كما تأتي من قدوة خارجية أو إحاء خارجي، وهي كلها تشكل قدر عظيم من المعرفة الذي نملكه عن التطور المعقد لفكرة الخالق.



ليس من السهل المرور على الأحلام التنبؤية ونحن في سياق حديثنا عن الحدس المتنبئ، فذلك الشأن من الاعتقادات الشائعة في اعتقاد الكثيرين، حتى أن الإنسان البدائي كان يؤمن بهذه النظرية إيماناً راسخاً مطلقاً. ويعتبر حلم فرعون عن البقرات السمان والعجاف ورؤيا يوسف عن حزم القمح والنجوم من الأحلام التنبؤية. وكثير من الناس في أيامنا هذه يدعون أنهم يرون أحلاماً تنبئ عن النجاح أو الموت أو الكوارث. ولكي تصبح هذه النظرية مقبولة لدينا في مجموعها يجب علينا بالطبع أن نؤمن بأن المستقبل ثابت محدد لا يتغير. ليس هذا فقط، بل يجب أيضاً أن نكون مؤمنين بأن من المستطاع أن نحيط به خيراً، وكلاهما افتراض فلسفي إلى حد بعيد، وأن لم يكن هناك بالضرورة ما يمنع من صحتها. ويرى البروفيسور (دون) أننا إذا احتفظنا بسجل لأحلامنا التي تحدث في بضعة شهور يتبين لنا أن نسبة كبيرة من هذه الأحلام قد حققتها الأيام. إن مناقشة نظرية كهذه تخرج عن نطاق بحثنا هذا، ومع ذلك فمن الحق أن نشير إلى أن كثيراً من العلماء، حتى علماء الطبيعة أنفسهم، يعتقدون الآن أن التنبؤ عن طريق الأحلام أمر ممكن الحدوث.

ومهما يكن الأمر، وسواء أكانت هذه النظرية صادقة صدقاً موضوعياً أم لم تكن فمما لا شك فيه أن التنبؤ حقيقة سيكولوجية، طالما أمكن أن نستطلع المستقبل، الذي لا تراه أعيننا، بالهامنا وبطريقة شبه شعورية. فأنت قد تثق في دنيا الواقع بشخص ما ولكنك تراه في الحلم

يمكر لك ويسيء إليك، ويرجع هذا الى أنك وأن كنت تعتبره لا بأس به فان حدسك والهامك وفطنتك يتلمس فيه الماكر الخداع. ونحن نعرف هذا الحدس بأنه استنتاج شبه شعوري، أي استنتاج مستمد من دلالات خفيفة عابرة لا ندركها أدراكاً شعورياً. وأمثال هذه الاستنتاجات كثيراً ما تكون مقبولة تماماً وقد تهىء لنا أحكاماً وآراء في الناس والحوادث تفوق في دقتها ملاحظتنا الشعورية واستدلالتنا العقلي.

إن الحلم الذي يفصح عن عمل منطقة شبه الشعور في العقل قد يعطينا بصيرة نافذة ندرك بها أخلاق الناس أو اتجاه الأحداث فيتحقق صدقها فيما بعد، وعلى أي حال فليست هذه العملية بالأمر الشاذ غير المألوف: فقد ينبئك بعض الناس بأن الطقس سيكون جميلاً دون ان يستطيعوا تعليل نبؤتهم هذه أو يبينوا كيف علموا هم بها، ولكنها الدلالات الصغيرة العابرة التي سجلوها من خبراتهم السابقة فيستقرئون معانيها بطريقة شبه شعورية. ولعل ما مر بيوسف عندما أتى الى مصر غريباً جعله يدرك عبر السنين ما لم يتهياً لأهل البلاد إدراكه- ألا وهو أن السنين تدور بين حصاد طيب في آن وحصاد رديء في المقابل.

وعلى هذا، يمكن القول بأن الالهام ومن بعدها الاحلام يمكن أن تعطينا أُنذار بما يجري في نفوسنا. فقد يشعر رجل بمنتهى الثقة بنفسه في عمله في حالة اليقظة ولكنه يحلم بالفشل في هذا العمل في نومه وعندئذ يخدع نفسه بأن الاحلام تفسر على نقيض فحواها على الدوام. ثم لا يلبث فيما بعد أن يخفق في عمله دون أن يتوقع ذلك، وبهذا تعتبر الرؤيا التي أرتأها من النوع التنبؤي، وهي كذلك حقاً، بمعنى أن الهامه كان يلفت نظره محذراً بأنه قد أسرف في الثقة بنفسه، وهو أمر يصح أن أصدقاءه صارحوه به، وأن هذا الاسراف أعمى بصيرته عن نواحي النقص فيه. وواقع الامر أن فرط وثوقه بنفسه لم يكن إلا ستاراً يخفي وراءه نقصه بل وأفراطه في التعويض عن هذا النقص. ولعل أحساسه بهذا القصور وما يصاحبه من غرور التعويض كانت هي العوامل الفعالة في انحطاط مستواه. فالحلم يطلعه على حقيقة أمره ومن ثم يبين له أنه لو أسترسل في هذا الاتجاه المفرط في الثقة فانه لا محالة فاشل، وهذا هو ما حدث تماماً. وحقيقة الامر أنه سقط لا لأنه حلم بهذا السقوط، ولكنه حلم بالسقوط، لأن الهامه انبأه بأن الافراط في الثقة في نفسه سوف يقوده الى كارثة لا محالة. فالحلم كان تنبؤياً من حيث كان نذيراً، ولكنه كان تنبؤياً من وجهة النظر النفسية لا من الناحية الموضوعية.

ثم أننا نجد من ناحية أخرى أن يوسف الذي رأى في منامه ربطات الحصاد التي لأخوته تمنحني لربطته، وهو الحلم الذي تحقق عندما تبوأ مركز الصدارة في مصر، كان حلمه هذا تعبيراً

عن احساسه احساساً شبه شعوري بالطموح الى العظمة، وهو أمر كان مركزه المتخلف به عن غيره في الاسرة يحول بينه وبين التعبير عنه تعبيراً صريحاً، هذا الحلم أيضاً كان تنبؤياً ولكن تحققه لم يأت من الحلم ولا من توقع الحوادث توقعاً موضوعياً، وإنما كان أمراً ترتب على طموحه الكامن.

اما أحلام المرض العضوي التي سبقت الإشارة اليها فانها تضع أمامنا أمثلة واضحة للأحلام التي تبدو لنا أحلاماً تنبؤية، وإن كانت في حقيقتها أستنتاجاً شبه شعوري من احساسات حاضرة.

ومن الحالات المثيرة للدهشة في هذا النوع حالة مريض حلم في مناسبات متعددة أنه أصيب بشلل في ذراعه وفمه أوقفهما عن العمل، ولم تنقض على حلمه هذا شهور قليلة حتى أصيبت فعلاً بالشلل بينما كان يصلح مذياعه وأصبح يعاني شللاً جزئياً. فهل كان حلمه تنبؤياً لتلك الصدمة؟ كلا لقد كان ناشئاً عن أنسداد شرياني سببه زهري وراثي. أنه لا شك قد تعرض في مناسبات سابقة لاصابات خفيفة عابرة أثناء نومه كانت السبب في وقوع الحلم له، ثم لم يلبث أن تعرض آخر الأمر لانقباض شرياني خطير في حالة صحوه وبقي على عجزه زمناً طويلاً حتى شفي تماماً.

إن كافة النظريات التي تناولت ظاهرة الحدس التنبئي في القديم كانت تعجز عجزاً كاملاً عن أن تحدد لنا اي تأثير لدوافع أخرى غير رغبة العقل في أن يتبين شيئاً يفهمه من مشيرات لا معنى لها، ولا تقيم قائم.

كما أننا لا نستطيع القول بأن النتائج التي نتوصل اليها في الحلم تكون بالضرورة في جانب الصواب، فما يتفق مع التفكير السليم القول بأن الاحلام اذا كانت تحاول حل المشكلات، فهي تتغير دائماً مجربة حلاً بعد الآخر، ومن ثم فهي بحاجة بعد ذلك الى أخضاعها لحكم العقل والاستدلال والبرهان المنطقي. ان انيشتاين، على حد قوله، لم يكن يستطيع الاستغناء عن أسلوب الحدس في كشفه العظيمة، ولكن هذا لم يمنعه من أخضاع هذه الكشوف للتجريب والبرهان المنطقي.

ولنضرب على هذا مثلاً أكثر تواضعاً، قد تكون المرأة، التي تعتمد في حبها أو كراهيتها للرجال على أحكامها الحدسية، مخطئة كل الخطأ بسبب شعورها بالتحامل الناشئ عن تجربة سابقة مرت بها وأثارت لديها في حينها انفعالات لا صلة لها بالموقف الحاضر. فلعل رجلاً أدكن الشعر ذا شارب خيب آمالها ذات مرة حتى كرهت هذا الطراز من الرجال، في حين أن

الكثيرين من الرجال الذين تتوفر فيهم هذه الصفات قد يكونون جديرين تماماً بالأعجاب.
هذا الى أن الخطباء، وأهل السياسة منهم خاصة، يعمدون في كثير من الاحيان الى هذه الطريقة قصد تضليل السامعين، ذلك بأنهم حين يرغبون في تأكيد نقطة يحف بها الشك، وتعوزهم بصددتها الحجة المنطقية، نراهم يلجأون الى أسلوب التشبيه بغية التغرير بالناس، وهذا هو فن أفاقي السياسة، وهو لسوء الحظ من يحظى في كثير من الاحيان بالنجاح، وهذا النجاح إنما يرهن على الرأي الذي يقول أن الفرد في الجمهرة يفتقد قدرته على التفكير والنقد، ويتعطل لديه عمل اللحاء، وينفسح المجال امام المناطق الانفعالية دون اللحائية في المخ فتسيطر على الموقف. وكل حجة تبرز تحت هذه الظروف تستند الى دعامة الانفعالات والاستهواء أكثر مما تستند الى العقل والتفكير السليم. حتى اذا أعمل المستمعون تفكيرهم بدأوا (يحسون) أن ثمة شيئاً خاطئاً في الحجة المقدمة لهم، ولكن المنطق وحده هو الذي يستطيع الكشف عن موضع المغالطة والتشويش.

قوة الاستدلال ذاتية الحركة

أول من أستعمل اصطلاح (ذاتية الحركة) في علم النفس هو العالم النفساني المشهور بير جانيه في كتاب معروف بعنوان السيكولوجية الذاتية الحركة.

فهو يرى أن الانسان يتصرف في اليقظة تصرف الآلات، دون وعي، في هذه الاعمال التي نسميها أعمالاً عادية، دون أن نخطئ. فالخادم يصعد السلم ليلاً في الظلام وهو يحمل أدوات الطعام دون أن تقع منه، لأن رجليه قد حفظت المنحنيات والمنعطفات، فليس من الغريب أن ينهض خادم الفيلسوف جسدي يحمل على رأسه صينية مملوءة بالقوارير والزجاجات، ويرتقي درجاً ضيقاً، ويتفادى الاصطدام بأي عتبة في الطريق، حتى يبلغ الغرفة العليا، كل ذلك في الظلام وهو نائم.

وفي رأي لعالم النفس وليم ماكدوغال في كتاب (علم النفس الشاذ) ان ظاهرة الافعال ذاتية الحركة التي تحدث من الانسان في يقظته، وتلك التي تحدث منه في نومه كالكتابة والجولان من جوهر واحد، وهي صور مختلفة للأفعال ذاتية الحركة.

ومن الاشياء التي تحدث للانسان، الكتابة في أثناء النوم، ويقال أن الشاعر الانكليزي كولردج ألف قصيدة من الشعر تسمى (قبلان خان) سنة ١٧٩٧ وهو يقول أنه رأى القصيدة في الحلم، فلما استيقظ دونها، وذلك عقب قراءته وصف قصر قبلان خان حاكم الصين وحفيده جنكيز خان، فيما يرى بعض النقاد أن كولردج كان تحت تأثير المخدر الذي كان يتعاطاه.

لقد كان الرأي إلى عقود قليلة مضت أن النوم هو الوقت الذي يرتاح فيه الدماغ. ولكن العلماء اليوم يعلمون أن دماغ النائم نشط نشاط دماغ المستيقظ، وأنه في أوقات معينة من فترة النوم يكون في قمة النشاط عاملاً على ترتيب المعلومات وأعدادها.

ومن الواضح لنا أن اليد اذا كتبت، وجرت بالقلم على الورق، فإنما تفعل ذلك بناء على

الفكر الذي يملأ الذهن، ويكون قد نضج. وفي بعض الاحيان يكون التفكير عن وعي، وفي بعض الاحيان الاخرى يصدر من غير وعي. فنحن قد نفكر في حل تمرين هندسة ونحن نائمون، ونستيقظ لنجد الحل جاهزاً. وقد نمسك بالقلم ونخطط به على ورقة بيضاء، ونشعر بما نكتب عابثين. وفي بعض الأحيان تتحرك اليد وهي ممسكة بالقلم وتخط رسوماً أو تكتب عبارات ندهش بعد كتابتها. وفي بعض الاحيان يشعر المرء بما يكتب، ولكنه لا يعرف ماذا يكتب بعد ذلك، وكيف يتم القصة، كأن يده هي الحالة التي تسوقه لا دماغه.

ومن الحالات الغريبة أن يقوم الشخص بعمل معين يشعر به، كأن يقرأ في كتاب مثلاً. ويترك يده تكتب بالقلم ما تشاء. وهذا دليل على أنحلال الشخصية، وعلى أن اللا شعور يتحرك. حكى أحد الاطباء النفسانيين أن مريضاً جاء إليه يشكو من وسوسة النظافة، وأنه يغسل يديه باستمرار، فعالجه بطريقة (الكتابة ذاتية الحركة)، أي علمه أن يكتب بيده، ثم سألته عن سبب هذه الوسوسة، وأخذت يده تكتب قصة قديمة عن حياته حين كان في العاشرة من عمره، وكان عنده كلب يحبه حباً جماً. وذات يوم وقع الكلب في مجرور مياه آسنة وكاد أن يغرق. فدعا الغلام صديقاً له أمسكه من رجليه. ومد يديه وأنقذ الكلب من ذلك المكان القذر، بعد أن تلوثت ملابسه وجسمه. فلما عاد ضربه أبوه، وأخافه قائلاً له أنه بهذا العمل قد تعرض لكثير من الامراض. ومنذ ذلك الحين وهو يغسل يديه، ونشأت عنده عادة الوسوسة والنظافة.

في أعداد مجلة أعمال جمعية البحث الروحي التي يتغنى بها الكثير من يؤمنون بتقمص الارواح ومخاطبة الموتى نرى مواضيع الكتابة تتعلق بـ (الكتابة الروحية)، ربما كان هذا القارئ أو ذلك لا يدري ما هي الكتابة الروحية، فعلياً أن نوضح أنها تتكون من أولئك الذين يزعمون أنهم يجلسون إلى منضدة، ويضعون كوباً يحركونه بينهم، وكل واحد منهم يكتب حرفاً أو كلمة، وتخرج من جملة كتابتهم الجمعية أجابات عن أسئلة معينة يعتقدون أن الروح هي التي تملئها. الواقع أنه ضرب من الكتابة ذاتية الحركة تتم بصورة جمعية لا شعورية، ولذلك لا بد أن تكون الجماعة مؤتلفة فيما بينها، أي إذا دخل بينها شخص غير مؤمن بما يفعلون، لا تفلح الجلسة. وإذا فحصت هؤلاء القوم الذين يقال عنهم روحانيين، ويمارسون لعبة المنضدة، رأيت أنهم يمشون في نومهم أو يكتبون، وأنهم من الذين يسهل تنويمهم مغناطيسياً.

يذكر ماك دوغال في كتابه علم النفس الشاذ هذه الحادثة. • وجد رجل في شبابه كان يشتغل سمساراً في البورصة، ويعيش معيشة اجتماعية عادية ويمارس الألعاب الرياضية، وكانت

أذواقه تشبه ما يجري بين أهل طبقته، ولم تكن عنده أي ميول أدبية، ولم يكن يحفل بالشعر الذي كان ينظر إليه على أنه عمل يليق بالنساء لا الرجال. وكان من عادته أن يظل راقداً بين اليقظة والنوم قبل أن ينهض من فراشه في الصباح. فلاحظ أنه وهو في تلك الحالة من اليقظة النائمة تفد على ذهنه أبيات خيل إليه أنه شعر. وراق له أن يدونها على الورق، وتبين أنها مؤتلفة متسلسلة تشبه ما يقرؤه من المنظوم، وعندئذ أرسل بعض هذا الشعر الذي دونه في هذه الحالة اللاشعورية إلى إحدى المجلات التي قبلت أن تنشره. وفي الوقت الذي كان يروى لي فيه هذه الوقائع (والحكاية على لسان ماك دوغال) كان كثير من قصائده التي نظمها في تلك الحالة قد نشر في كثير من المجلات المشهورة، وتناول عليها أجراً. وقد كانت تلك القصائد جيدة السبك رفيعة الأسلوب، تنحو نحو المذهب الرومانسي. ومن غرائب هذا التأليف أن أبيات القصيدة بتمامها تفد على ذهنه ويشعر بها، ولكنها غير مرتبة إذ تكون أبياتها مختلطة، فيرتبها وهو في حالة اليقظة دون أي تغيير آخر.

إن الكثير من العضلات العلمية قد تسنى حلها على هذا النحو، وأن بعض الكشوف العلمية العظيمة قد دانت لأصحابها في أحلامهم، وأن هذه الطريقة يلجأ إليها العلماء قاصدين عندما تواجههم صعوبة ما.

ومن بين الامثلة الكثيرة الشاهدة على ذلك تلك القصة الشائعة التي تقول بأن العالم الألماني (كيكوليه) عثر بطريق الصدفة على فكرة (حلقة البنزين) - تصور للتركيب الذري للبنزين، وهو مادة طيارة لا لون لها وقابلة للإشتعال، تشتق من قار الفحم، وتستخدم كمذيب للمواد الراتنجية - وهي فكرة أحدثت انقلاباً في الكيمياء العضوية.

ويورد (بفردج) في كتابه (فن التحقيق العلمي) على لسانه كيكوليه هذه القصة:

كنت جالساً أكتب مؤلفي في الكيمياء، ولكن الأمور لم تكون تجري حسبما ينبغي.. ولذا درت بمقعدي لأواجه المدفأة وأسلمت نفسي لغفوة خفيفة كنت خلالها بين النائم واليقظان. فرأيت كأن الذرات تتطاير أمام ناظري، لقد كانت تتلوى وتدور حول نفسها كالحيات.. ثم أنظر ما هذا؟ إن أحد تلك الحيات استدارت وقبضت ذيلها.. وسرعان ما دارت الصورة ساحرة أمام عيني.. ثم كأن ومضة من برق أيقظتني من سباتي، فقضيت ما تبقى من ليلتي أفكر في مختلف احتمالات هذا الفرض.. أيها السادة: دعونا نتعلم كيف نحلم.

وفي هذه الحالة، كما هو الشأن في الأحلام، يتعلق الأمر بحل مشكلة معقدة حلاً آلياً عن طريق عمليات تمت في مستوى دون الشعوري. وقد تسنى هذا، كما هو الحال في الأحلام،

باستخدام الرّموز، لا عن طريق الاستدلال المنطقي الذي ثبت في الواقع غير جدارته هنا. وهناك الكثير من الامثلة لكشوف علمية تيسرت بفضل ومضات البصيرة. فمن ذلك أن البروفيسور أوتوليفي، أستاذ علم العقاقير، أستيقظ ذات ليلة وفي رأسه فكرة باهرة عن التوسط الكيميائي واثره في السيالات العصبية. فعمد على التوالي تدوين الفكرة. وفي الصباح كان ذعره بالغاً عندما وجد نفسه عاجزاً عن فك رموزها. ومن حسن الحظ أنه في الليلة التالية صبحا من نومه على ومضة البصيرة نفسها، ولكنه أحتاط هذه المرة فلم يجازف بشيء، ولكن هذه الومضات لا تترك هكذا رهناً للصدف والظروف، وإنما يعمد إليها بعض العلماء قاصدين، حيث يسلمون أنفسهم لحالة أسترخاء، سواء فعلوا ذلك وقت أنشغال عقولهم بالمشكلات التي يبحثونها، أو بعد أن يكونوا قد صرفوها من رؤوسهم، وعندها تنهياً لهم هذه الومضات من هذا الشأن.

ان (بفدرج) يرى أننا في سعينا وراء الافكار المبتكرة الأصيلة، يكون من المجدي لنا أحياناً أن ننبد التفكير الموجه المضبوط وأن نطلق سراح خيالاتنا كي يمرح منطلقاً في أحلام اليقظة. كما يذكر (كانون) طبيب الأمراض العصبية الشهير، أنه كان معتاداً منذ شبابه على أن يستلهم فطنته فيأتيه العون فجأة وعلى غير انتظار، وأنه كثيراً ما كان يذهب للنوم وعقله منشغل بالتفكير في شكل ما، ثم يصحو في صباحه وقد أصبح الحل في متناول يده. ويقول في ذلك (لقد أصبح من المؤلف لدى أن أركن الى العمليات اللاشعورية واثقاً من أنها ستسدى الى خدمة ما) فكان من ثم يستخدم النوم في حل مشكلاته المستعصية.

* * *

يطلق اسم الجولان النومي، أو المشي أثناء النوم على الشخص في حالة نومه المغناطيسي أو الطبيعي، بمعنى أنه يأتي أفعالا وهو نائم، سواء أكانت هذه الأفعال حركات كالمشي أو كلاماً، أي أن النائم يتجول ويتحرك، فاذا استيقظ لا يدري ماذا كان يفعل وهو نائم.

والجولان على صورتين، أما هرب، وأما مجرد حركة في أثناء النوم. وهذه الظاهرة شائعة، وكلنا شاهدها، على الأقل ملاحظة حديث النائم بصوت عال، وبخاصة الصبيان حتى سن الشباب. وأقل من ذلك حدوثا قيام النائم من سريره وتجوله في الدار، ثم عودته الى السرير بعد ذلك. ويبدو أن حديث النائم يكون أصرح منه وهو في حالة اليقظة. وقد روى المشتغلون بهذا الفن النفساني كثيراً من الروايات عن أشخاص كانوا ينهضون من فراشهم، ويأتون كثيراً من الأعمال المحيرة.

إن مانراه من أعمال شكسبير يحمل الكثير من طابع الجولان النومي. فمثلاً في مأساة ماكبث التي صور فيها الليدي ماكبث تطمع في الملك، فتحت زوجها على قتل الملك دنكان، وعلى قتل رفيقه بانكو. ويظهر شبح بانكو في مأدبة عظيمة ولا يراه إلا ماكبث.. أما الليدي ماكبث فيثقل عليها ضميرها، وتمشي في أثناء نومها متجولة، وتغسل يديها من آثار الدماء التي تتوهمها.

ويرى هادفيلد أن الذي يمشي وهو نائم يحلم، فإذا كنا في أحلامنا العادية نتخيل أنفسنا نتصرف بأساليب معينة، فإننا في هذه الحالة نتخذ خطوة عملية فعلية نحو ما يشغلنا. ويفصح تحليل حالات المشي في النوم عن أن الحالم يعالج مشكلة معينة ويحاول أن يجد لها حلاً

مثال على ذلك أن طفلة توعدها أبوها ذات مرة بشر مستطير، وقد احست بأن عليها أن تهرب من هذا الموقف غير المحتمل، ولما كانت مجرد طفلة لا تستطيع الهرب فلم يكن أمامها من سبيل إلا أن تكتب الرغبة التي راودتها. ولذلك نجدها في نومها لا تحلم بالهرب فقط، ولكنها تنهض بالفعل وتهبط الدرج لتفر، وذلك لأن حاجتها إلى هذا الفرار كانت ملحة عاجلة. ثم أنها تجد حائطاً يعترض طريقها فتستيقظ من نومها دون أن تدرك ما وقع منها ولا السبب في أنها وجدت نفسها حيث كانت. ولم يخفف من وقع الموقف أن والدها كان يقف على الدوام بجوارها في هذه الحالات ليعود بها إلى فراشها.

أما ماك دوغال فيروي القصة التالية:

كان جندي يعمل في جبهة القتال ينقل الرسائل من مكان إلى آخر راكباً دراجة بخارية. وذات يوم وجد نفسه بعد عدة ساعات يمشي بدراجته في شوارع مدينة على ساحل البحر تبعد عن جبهة القتال مائتي ميل. فإمتلات نفسه دهشة، وخشى الاتهام بالهرب من الجيش، فسلم نفسه للبوليس الحربي، ولم يستطع أن يفسر كيف أنتقل من الجبهة إلى الميناء البعيد. وبعد أن مكث في عدة مستشفيات، جاء تحت رعايتي. ولم تظهر عليه أي أعراض سوى هذا النسيان الخاص بهذه الفترة القصيرة مع شعور بالإنقباض والكآبة، وهو شيء طبيعي ينشأ من الظروف التي أحاطت بشخص في مثل ماضيه ومركزه ومسؤوليته. ولما لم تفلح معه طريقة الحديث عن اليقظة للتغلب على ذلك النسيان، فقد لجأت إلى التنويم المغناطيسي، فتذكر كيف انفجرت قنبلة على مقربة منه فطرحته أرضاً، ثم نهض، وركب دراجته وتوجه إلى الميناء، مستدلاً بالعلامات الموجودة في الطريق، وبالسؤال، وهكذا اتضح أنه كان مسوقاً بالخوف الذي أتخذ هيئة الرغبة في الابتعاد عن منطقة الخطر.

وهذه قصة أخرى توضح الفرق بين الهرب اللاشعوري في النوم وبين الجولان.

أرسل جندي الى المستشفى عقب أن فقد وعيه في انفجار قنبلة. وكشف عليه الطبيب، فلم يجد به أعراضاً مرضية، وكاد أن يكتب أمراً بعودته الى ميدان القتال، لولاً أن زملاءه في العنبر جاءوا يشكون أنه يتجول وهو نائم. وراقب الطبيب حالته، ووجد أنه ينهض كل ليلة عدة مرات، ويتوجه الى جانب سرير الشاويش الموجود في العنبر، ويظل واقفاً هناك حتى يقاد الى فراشه مرة ثانية، ولم يستطع الجندي تعليل هذه الظاهرة. وأستطاع في أثناء التنويم المغناطيسي أن يعيد وصف الحادثة التي وقعت له، فقد انفجرت قنبلة فقتلت عدة جنود وجرحت البعض الآخر، وجرى صاحبنا الى الشاويش ليبلغه ما وقع، وبينما هو في طريقه اليه انفجرت قنبلة أخرى افقدته وعيه. وكان في الجولان يعيد تمثيل هذا المنظر الذي أنحلت الذاكرة الخاصة به.

وبدأت سيدة متزوجة تسير وهي نائمة في حياتها الراشدة. وحدث لها ذلك في أول مرة عندما كان أبوها مريضاً مرضاً خطيراً، وكان عليها من وقت الى آخر أن تعود في أثناء الليل لتطمئن على راحته. ثم توفي الرجل ولكنها أستمرت في عاداتها حتى أصبحت تسير وهي نائمة. أن مشكلتها تقتصر على كونها مجرد أمتداد لما اعتادته من رعاية الأب المريض، ولكنها كانت تدل على وجود صراع في عقلها. فهي من ناحية لم تكن راغبة في فقدان والدها، ولكنها من ناحية أخرى كانت تعلم بأن وفاته معناها انتهاء متاعب زوجها المالية. ومن ثم كانت بعض دوافعها تحثها على أن ترعاه وهو سقيم، والبعض الآخر يحثها على أن تذهب لترى أنه قد قضى نحبه!

كما كان أحد طلاب الموسيقى ينهض ليلاً وهو نائم، فيكتب (النوتة)، ويصحح كثيراً من الأخطاء، ثم يعود بعد ذلك الى سريره.

والقصص عن الجولان النومي كثيرة منها أن شخصاً نهض من فراشه، وخرج من النافذة، ومشى على كورنيش الدار من الخارج، وتجمع الناس في الشارع يحبسون أنفاسهم خشية وقوعه، وظل النائم يمشي على الكورنيش مغمض العينين، حتى دار حول المنزل، وعاد الى النافذة، ودخل منها، وعاد الى سريره، فلما أستيقظ لم يذكر شيئاً مما حدث.

ويروي الدكتور أحمد فؤاد الاهواني في كتابه النوم والارق قصتين من هذا القبيل.

يقول في القصة الاولى (حدثني أم أن أبتها الصغيرة البالغة من العمر أربع سنوات قد أصابها مس من الجنون، أو الشيطان فهي ترقد الى جوارها، وفجأة أستيقظت البنت وأخذت تضرب أمها بديها، ثم عادت الى نومها وأستغرقت فيه وذهلت الام للمفاجأة، ولم تستطع

تعليل هذه الظاهرة، فالبنات صغيرة السن، فضلاً عن ذهاب وعيها في النوم. قلت للأم: هل ضربت أبتك في أثناء النهار؟ قالت: نعم، انها كثيرة الشقاوة، ولا تسمع الكلام، فقلت للأم: إليك البيان، وهذا هو التفسير لسلوك أبتك. من الطبيعي أن يسعى المرء على رد العدوان عن نفسه، وبخاصة اذا شعر أن العدوان كان ظلماً، ولم تفعل أبتك شيئاً يستحق الضرب، لأن الشقاوة أمر طبيعي في الاطفال، وقد حاولت الطفلة أن ترد عدوانك في حينه ولم تستطع لأنه أقوى منها، وأستمرت رغبتها في الانتقام موجودة في نفسها، وتذكرت الموقف في أثناء النوم، فقامت وأخذت تكيل لك الضربات حتى شفت غليلها، ثم عادت الى رقادها. واذا شئت الا تتكرر هذه الظاهرة، فعليك بالامتناع عن ضرب أبتك بتاتاً، وليس الضرب سبيلاً الى التربية الصحيحة).

أما الحادثة الثانية التي يرويها الدكتور الاهواني فهي (جاءني شخص يصحب ابنه البالغ من العمر إحدى عشرة سنة، وهو طالب في المدارس الابتدائية. أما الأب فرجل رقيق الحال، يشتغل موظفاً بسيطاً في الحكومة، وهو يسكن في حجرتين في الدور الخامس بمنزل في حي العباسية، ذات ليلة، حول الساعة الحادية عشرة مساءً، رأى البقال المجاور للمنزل هذا الصبي يمشي في الطريق، وهو يلبس الجلباب، فنادى عليه فلم يجب النداء، فجرى وراءه حتى أمسك به، وكانت دهشته عظيمة حين وجد الصبي نائماً فأيقظه، وأعادته الى المنزل، وأعتقد الاب أن ابنه قد أصيب بنوبة من نوبات الجنون، وجاء يتلمس مني النصيحة. قلت للأب: أتضرب أبتك: نعم، أنه لا يستذكر دروسه، كما يهرب من المدرسة. وعلمت أن الرجل قد توفت زوجته وهي أم الولد، وتزوج غيرها. وفسرت للرجل علة قيام ابنه ليلاً، وخروجه من البيت، فهذا دليل على سلوك بغير وعي، أو في هيئة هذا الجولان النومي).

إن مشى الأطفال في نومهم ظاهرة يجب أن نحملها محمل الجد حيث أنها تصور على الدوام مشكلة أو صعوبة تواجه الطفل، وهذا هو اللا شعور الذي ينشط فيحرك الانسان في نومه، ويتخذ مرة صورة الأحلام، ومرة أخرى صورة الجولان النومي.

ويبدو أن الانطباعات الحسية التي تنهال على عقولنا، ونتاج عملية ادراكنا، وتراكم خبراتنا المستمر، كل ذلك يجب أن يختزن في الذاكرة بشكل ما اذا كنا نريد أن نتذكرها بسرعة عندما نشعر بحاجة لها. والذاكرة أكثر من مجرد منحني من أكثر مناحي النشاط العقلي الإنساني إثارة، فهي بوصفها ممهدة وضرورية للتفكير السليم والمنطقي يحتاجها الانسان في سلوكه الذكي، وتعتمد عليها قدرته على حل المشكلات أو حتى أدراك وجودها. وبدون

الذاكرة يضطر بنو الانسان الى الانفعال بكل حادثة تعرضهم لها، كلما تكررت كما لو تحدث من قبل. فمثلاً، لو حرم الانسان من ذاكرته وقاد سيارته بفرض أنه يستطيع ذلك، فإن عليه في كل مرة يصل الى تقاطع فيه اشارات مرور مضيئة باللون الاحمر أن يتعلم من جديد ماذا يعمل، كأن يلاحظ سلوك السائقين الآخرين والمشاة الذين يعبرون الشارع ويستنتج من ذلك أن السلوك المناسب هو أن يوقف سيارته، ويتكرر ذلك عند التقاطع التالي. وعلى هذا فان ادراك كل ضوء أحمر في اشارات المرور يكون، في غياب الذاكرة الكاملة، تجربة جديدة كلياً.

وقد أمضى وليم جيمس ذات مرة في محاولة لاكتشاف ما اذا كانت الذاكرة تتحسن بالمران والتدريب، ثمانية أيام متتابة يستظهر مقطوعة من أحد مؤلفات فيكتور هيغو مكونة من ١٥٨ سطرًا، وسجل الوقت الذي أستغرقه ذلك منه، ثم أمضى أكثر من خمسة أسابيع يستظهر شعر ميلتون. وبعد ذلك أعتبر نفسه مستعداً للجزء الهام من التجربة وهو تقرير ما اذا كانت حدة ذاكرته قد زادت نتيجة ما قام به من تدريب للذاكرة، بحيث يمكنه أستظهار مقطوعات من فيكتور هيغو بسرعة أكبر من السابق؟ وكان قد أستظهر في المرة الاولى ١٥٨ سطرًا بمعدل ٥٠ ثانية للسطر الواحد. ولكنه في المرة الثانية قام بأستظهار ١٥٨ سطرًا من مؤلف آخر لفكتور هيغو، فوجد أن عملية الاستظهار، بدلاً من أن تكون أسرع، كانت أبطأ من المرة الأولى بمعدل ٧ ثوان للسطر الواحد. وعلى ذلك أستنتج جيمس أن التمرينات لا تحسن الذاكرة كما تحسن التمرينات الجسدية الاداء الجسماني، وكذلك أستنتج أن البطء في الاستظهار في المرة الثانية كان بسبب الاجهاد أو التعب العقلي.

ظاهرة الطبيعة الفائقة

الطبيعة تمثل لنا لغزاً محيراً، استطاع العلماء في السنوات الماضية ازالة الكثير من اللبس مما كان يعتور وصفها، فيما بقيت أشياء أخرى لم تزل بعيدة عن تفسيرنا.

وإذا تأخرنا عن معرفة (سر) أو (كنه) هذه الطبيعة، فذلك لأن بحوث سبقت أبحاث في هذا العلم أو ذاك، فحصل نوع من التخلخل في معرفة هذا السر أو ذاك. ولنضرب مثلاً على ذلك بالقضاء الخارجي، فإن التركيز على أبحاث القضاء من قبل الاتحاد السوفيتي فتح آفاقاً واسعة لغزو هذا المجهول من تصورنا للكواكب الأخرى، بيد أن جهود العلماء والاموال الطائلة التي صرفت على مثل هذه المشاريع، أعاققت، مثلاً، القضاء على مرض الايدز، أو التسريع في القضاء على النقص في عدة أمور يحتاجها الانسان العادي.. الخ.

ومع ذلك سنورد رأي (ليال واتسون) في أمور الطبيعة الفائقة ونظرتة لها ومن ثم نعقب برأينا.

يقول (واتسون) أن العقبة الكبرى أمام القبول العلمي بالظواهر غير الاعتيادية تعود الى طبيعتها البعيدة عن التناول، والى هذا الطابع الناجم عن الباراسيكولوجي، الأكثر صراحة من كل المقاربات الحالية، وذات السمعة الأقل سوءاً، وهي علم غير ناضج، خال من المبادئ الأساسية، والاكتشافات الثابتة، وغير الجدير أيضاً بتأدية الاختبارات. وبفعل فشل التجارب المختبرية، فإن العلماء يقولون أن الطبيعة الفائقة هي سخافة، ولكن بالنسبة لواتسون وغيره من الأشخاص المنخرطين في الباراسيكولوجي، أي خارج جدران المختبرات، فمن الصعب أنكار حقيقة اختبار الطبيعة الفائقة، حتى ولو كان لا يتبع القاعدة العادية.

إن غير العادي أمر شائع في الكثير من الثقافات، ويعتقد واتسون أن ثمة شيئاً يستحق عناء البحث عنه. وقد شارك جميع الذين حاولوا علمياً تطوير التخابر وأختبر نص الفشل نفسه الذي أختبروه هم باكتشافه الى أي حد تبدو هذه الظواهر غريبة جداً في متناول اليد، وهوفهم

خبيبة أملهم، لكنه يعترف بأن شيئاً لم يحصل من خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة يمكن أن يغير اعتقاده. كما يعتقد واتسون أن الطبيعة الفائقة تحتاج الى دراسة جديدة، وأكثر عناية، وبمنظرة متجددة، وبحث متعدد الثقافات لكل ما هو شبه عادي. ومثل هذه العملية الواسعة تحتاج أيضاً الى تمويل مناسب، وتهدف الى إعادة أحصاء وفهرسة وتصنيف كل الظواهر غير العادية، وعلى مستوى دولي شامل.

ويأسف هذا الكاتب لعدم وجود هذه الامكانيات، وهذا العمل لا يمثل سوى محاولة، شخصية، لطرح معنى لكل ما رآه وسمعه على مدى السنوات الأخيرة، ولإعطائه تحديدات وأوصافاً بأكثر دقة ممكنة، وهو يعتقد بأن هذا الجهد ضروري لأنه ما زال على اقتناع بأن هناك ظواهر تحصل حولنا لا يمكن تكييفها بسهولة مع قوالب معدة في السابق.

ويضيف قائلاً (على الرغم من محاحكات اللجان التي تعمل من أجل إزالة الفضول، فأنا أستمّر في تعقب الاشباح حتى حدود الادراك، وأصر على جذب الانتباه إلى لا معقولية التاريخ الطبيعي، ليس لأن هذه اللامعقولية تعني شيئاً في حد ذاتها، ولكن لأنها يمكن أن تؤدي الى فهم أفضل لغير الاعتيادي بفضل التحليل الجديد بروح أكثر تقبلاً).

ويذكر واتسون (الجمال) مثلاً فيقول: بوصفه حصاناً ترسمه مجموعة، أو حيواناً يملك ميزة خبيثة، ورائحة كريهة، فإن الجمال يتكيف تماماً مع محيطه، بأرجله الكبيرة المسطحة التي تناسب الرمال كما الثلج وبجيوه المعديّة المتنوعة التي يختزن فيها الماء، وبحدباته الزاخرة بمخزونات الطاقة، وبمشفريه القاسيين اللذين يتيحان له أخذ نصيبه من الادخال الاكثر شوكة، وبعينيه المحميتين بأهداب طويلة من الجزيئات التي تحملها الرياح، وهذا المخلوق الضخم هو الافضل تسليحاً في العالم لكي يتعود على الصحاري، ولكن الاكثر غرابة في ملامحه الفريدة هو عنصر قلما يعر أهمية يتمثل في تمتع الجمال بركبتين متميزتين. فحين يلجأ الجمال الى النوم، ما يفعله غالباً، سواء لحماية نفسه من الهواء أو لإظهار نفوره من كل شكل من أشكال العمل، هو أن يبدأ في طي ركبتيه، قائمته الاماميتان تنطويان مثل ورقة مطوية على الطريقة اليابانية، القسم الاعلى من القائمة نحو الخلف، والقسم الاسفل نحو الامام، علماً بأن قوائم الجمال في وقت الراحة تكون تحت جسمه، ومرفوعة نحو الاعلى، بحيث أن الجمال يرتاح على طول كل القسم الداخلي من الساق. ولعل هذا ما يفسر وجود كثافة من الجلد المتصلب على مستوى هذه المفاصل الخاضعة لاحتكاك مستديم. والمثير هو أن هذه الكثافة من الجلد المتصلب ليست مكتسبة، فمواليد الجمال هي أيضاً تتميز بمثل هذه الكثافة.

إن ذلك قاد الى نظرية هامة تطرح عدداً من الافتراضات:

الافتراض الاول هو أن التغيرات لدى الكائنات الحية تنجم عن تبدلات تحصل صدفة في قلب الجهاز الوراثي.

الافتراض الثاني هو أن هذه التغيرات تخضع لضغوط التبدل الطبيعي الذي يزيل ويهمل التحولات السامة.

والافتراض الثالث هو أن هذا الارث من التغيرات النافعة يخضع لقوانين الوراثة.

وبمعنى آخر، فإن جينات الركب عند الجمل، الخاضعة للتأثيرات العادية، تتعرض من وقت لآخر، بصورة احتمالية ونادرة لوهم. إن معظم هذه التغيرات سامة لأنها تميل نحو تدمير التوازن بين الجمل وبيئته وهي تختفي، اذا، قبل أن تنطلق.

وبصورة استثنائية، ومن قبيل الصدفة، يمكن لهذا التغير أو ذاك أن يبدو مفيداً، عن طريق إضافة طبقات مثناة إضافية لمفصل سيء الحماية، ومن طريق إنتاج جمال تملك ميزة الانتخاب ومؤهلة للمقاومة، أفضل من (بنات جنسها) التي تملك ركباً طيبة.

وقد كانت هذه هي نظرية شارل داروين، التي دعمتها في ما بعد قوانين غريغور ماندل الوراثة، والمعروفة الآن تحت أسم نظرية التطور النيو-داروينية. السيناريو سهل ومعقول ومقبول بأنه هو الوحيد الذي نجده في معظم الاحيان في غالبية الكتب، على الرغم من أن أي برهان مباشر لا يدعمه ولا يفسر كل شيء.

إن الجلد المتصلب لركب الجمل هو ذو ميزات وراثية، ويمكن ملاحظتها على ركب الصغار، وقبل أن تجثو هذه على أرض صخرية. واذا كانت سماكة الجلد تحدث بعد الولادة، وتنتج عن الاحتكاكات الدائمة، فانه لا تطرح اي مشكلة، لكنها تبدأ في التكوين لدى الجنين، وبالتحديد في المكان الذي كان (أجداده الجمال) بحاجة الى حماية، وسيكون من الصعب عدم التفكير بأن هذا الجلد المتصلب يمثل جواباً على ضغط يثوي خاص تعرض له قدامى الجمال. ومن المستحيل تصويب هذا الجواب وفق عبارات النيو-داروينية، لكن هذه النظرية ليست الاولى من نوعها، ففي عام ١٨٠٣ أي قبل نصف قرن من صدور كتاب (اصل الأنواع) لداروين، لفت أحد العلماء الطبيعيين الفرنسيين، جون لا مارك، الانتباه الى أن الاجناس تتغير وتتطور. ومع اقتناعه بأن تجربة الاهل ليست ضائعة حتماً ولكنها يمكن أن تؤدي فائدة مباشرة، فإن لا مارك كان يعتقد بأن تغيرات تدريجية مرتبطة بالحاجات الحيوية للجنس، يمكنها أن تنتقل بحكم الوراثة.

ذلك أن (اللاماركية)، أي نظرية أنتقال الاطباع المكتسبة كانت شائعة شعبياً، وداروين نفسه وافق عليها، ولكن عند منعطف القرن، أيقظت هذه النظرية جدلاً مؤثراً من الصعب بعد سنوات عدة، أدراك عنفه، والذين كانوا يعتقدون أن التغيرات تحصل لدى الكائنات الحية جواباً - في قسم منها على الأقل - على الظروف والاختبار كانوا يصطدمون بأولئك الذي كانوا يعتبرون بأن التغيرات هي تغيرات عرضية، وتخضع لضغوط التصنيف في حال حصولها. والذين كانوا يعتقدون بأن هناك بعض الأمور المختلفة نوعياً في ما يخص الكائنات الحية كانوا في صراع مع أولئك الذين يعتقدون أن كل شيء يمكن أن يتراجع الى حدود المسألة الفيزيائية أو الكيميائية. ولكن المجادلات توقفت بشكل حاد عندما أعيد اكتشاف أعمال مندل في حقل علم الوراثة. وقد قدمت هذه الاعمال لألية التصنيف الطبيعي تفسيراً رائعاً دعم النظرية الداروينية، وقد جاء أنتصار الداروينين ليفرض نفسه بقوة في حين أن أفكار لامارك باتت توصف بأنها (جاهلة خرافية) ومحظرة على كل بيولوجي جاد. وقد بقيت كذلك، لكننا نلاحظ في الوقت الحاضر علامات أحياء تحت صورة النيو ماركية.

أما في مواجهة حالات تركيب الجمل، والمشاكل التي تطرحها أمام الداروينية، فيمكننا أن نعود بالذاكرة الى ما قاله لامارك فعلاً في موضوع تأثيرت الاختبار حول التطور، فقد كتب يقول (أن تغييراً في بيئة الحيوانات يقود الى تغير في بنائها وتنظيمها. وهذا يعني بلغة الجمل، أنه عندما تصبح المراعي صحارى وتضطرب الحيوانات للبقاء في هذه الاماكن، تشعر بالحاجة الى حماية نفسها من التطرف المناخي، برداً أو حراً، وأن كل تغير بنيوي يلبي حاجات طريقة الحياة الجديدة - كوسادات الجلد المتصلب مثلاً التي تسمح لها بالنوم بصورة مريحة على الارض الجافة - يمكن أن تكون له فرص أكبر للترسخ، والانتقال بفعل الوراثة.

إن مثل هذه الفكرة لا يمكن أن تكون قد أستوحيت من خلال الجهل والخرافات، بل أنها تبدو مليئة بالصدق، ولا تبدو أنها تتعارض مع النظرية التطورية، وفي معظم الاحيان، تسلط الضوء على وجهة نظر مختلفة، راديكالياً، من طريق أناة المجال لرؤية التطور كعملية تجميعية وحساسة، وليس عرضية صرفاً. وإذا كان البعض مندهشاً بقوة النظرية الداروينية التي نجحت في شرح كيفية حصول عملية التغير، وكيف تأخذ مكانها، وكيف تتعارض الاجناس، فبالامكان الاستنتاج ايضاً بأنها لا تأخذ بعين الاعتبار التطورات التي تظهر، ليس كتعقيدات متنامية فقط، وإنما كتطورات مميزة بشكل مدهش أيضاً. ومن الصعب الاعتقاد بأنه، في وقت قصير نسبياً، يمكن أن يحصل تغير عرضي، كما يمكن أن يؤدي - من دون تأثير للبيئة أو لإختبار الاجيال السابقة - الى تكون الجلد المتصلب في ركب الجمال، وتحديداً في المكان الذي تبدو فيه انها مقيدة.

إذا كانت حالة ركب الجمل تبدو بدون شك، غير ذات أهمية كبرى، في ملحمة الحياة على سطح الكرة الأرضية، فإن طبيعتها تتركنا في حالة حيرة وأرتباك، غير أن هذه الحالة ليست هي الوحيدة، ولكن حيوان الهلون الذي يقف على ركبتيه غالباً، يتميز بجلد متصلب مشابه في موضعه المناسب.

كذلك الحال بالنسبة للنعامة، فهي تتميز أيضاً بكثافات جلدية بصلية في الموضع نفسه الذي تستند إليه عندما تجلس. ولدى الكائن البشري، يكون الجلد الموجود على مستوى سطح القدم أكثر كثافة، حتى قبل أن تطأ هذه القدم الأرض، أي عندما يكون الكائن البشري جنيماً في أحشاء أمه. أن تغييراً عرضياً، مضافاً إلى ضرورة التصنيف الطبيعي الممتد على مسافة زمنية طويلة، لا يبدو أنه تفسير كاف، وأن قسماً كبيراً من التغيرات يمكن أن تكون ناجمة عن الصدفة.

ويذهب البعض إلى أن معظم الظواهر تأتي من طريق الصدفة، ولكن هذا لا يعني أنها تأتي من طريق العرض، فالصدفة تبدو أنها تملك تنظيماً وسبباً خاصين بها. وبعد حياة كرسها للأبحاث الفيزيائية كتب أروين شرودينغر أنه (في قسم كبير من الحوادث والظواهر، التي أدت بانتظام إلى تكون المسلمة السببية، فإن العنصر المشترك للمنطق الملموس هو الصدفة)، وبمعنى آخر فإن الطبيعة خاضعة لقوانين الصدفة.

يبد أن هذه الفكرة كانت تقلق أينشتاين، ولكن بعد ثلاثين عاماً من وفاته بدأنا نرى أنفسنا جزءاً من لعبة واسعة، لعبة تركز إلى قواعد على مستوى كوني. ففي السابق، كان الحظ يعني الصدفة، الكلمة مشتقة من اللغة الفرنسية القديمة وتعني (طريقة رمي الكشاتين) والتي تبدو أنها تنسب، أساساً، إلى لعبة (الكشاتين)، التي تعتبر من أقدم ألعاب الصدفة. ولكن إذا أمعنا النظر في تاريخ الألعاب، يمكننا أن نرى بشكل واضح أن أي لعبة صدفة لم تكن تعتبر، في حد ذاتها، لعبة صدفة مطلقة. كل هذه الألعاب كانت محاطة بشعائر تمثل محاولات للتحكم أو التأثير في المستقبل.

وفي القرن السادس عشر توطنت مبادئ العلم الكلاسيكي وأصول الشك اليوناني بما فيه الكفاية في إيطاليا من أجل التهيئة لعصر النهضة. وهكذا حقق الاستقلال الجديد أنطلاقه. وفي هذا البحر من الأبحاث، بدأ طبعياً جداً أن دائرة لاعبي (بيزا) تعرض مشاكلها لأكبر رجال العلم في ذلك. فغاليليه لم ير ما يعيب في قضاء نهاراته راکعاً على بساط يفكر أمام كشاتيين، ومن هذه التأملات ولدت الصيغ التي أخضعت الحظ، للمرة الأولى، لقوانين اللعبة.

وبعد قرن من الزمن، حوّل عالما الرياضيات الشابان في فرنسا (بليز باسكال) و (بيير فيرما) هذه الصيغ إلى قوانين احتمالية.

• • •

يقول فونتنال: هلا نعلم جيداً - نحن البشر - إلى أي حد يمكن للآخرين أن يكونوا إما دجالين أو مخدوعين؟ ونحن نقول: ربما كان جهل الناس بالعلل العقلية سبباً في أيمانهم بالترياق السحري وما إليه. ففي بداية هذا القرن وقف أعضاء بعثة (شكلتن) على ظهر باخرتهم في منطقة القطب الجنوبي يراقبون غياب الشمس في الأفق. وما كان أشد ذهولهم! فإنه بعد أن توارت الشمس وراء الأفق عادت فظهرت مرة أخرى ثم توارت ثانية. ولم يستطع العلماء الذين رافقوا البعثة يومئذ أن يعللوا تلك الظاهرة الغريبة، ولكن العلم يستطيع تعليلها اليوم فهي أثر من آثار السراب الذي يعرفه الكثيرون.

إن في الطبيعة الغازاً كثيرة يستطيع العلم تعليلها إلا أن فيها ألغازاً أخرى لم يتمكن أحد من حلها حتى الآن. فالعلم يؤكد لنا أن بحر الظلمات الذي لا يتعد كثيراً عن جزائر الكناري والذي لا تزال بعض السفن تخشى الدنو منه، إنما يكتسب اسمه من سحب الغبار الذي تثيره في سمائه رياح الصحراء الكبرى. وكذلك يستطيع العلم أن يعلل لماذا تبدو حافة الشمس العليا أحياناً خضراء زاهية قبيل الغروب، ولماذا تنفجر بعض الآبار العميقة قبل حدوث الزوابع، ولماذا تجمد بعض الأنهار من أسفلها ثم يتدحرج تجملها صعوداً إلى السطح.. ولماذا.. ولماذا.. ولماذا؟

يفسر المبدأ الصحيح مجموعة كاملة من المشكلات دفعة واحدة ويقضي بضربة واحدة على مجموعة كبيرة من المزاعم والأوهام. فقد ظل الناس مدة طويلة بعد اكتشاف دوران الأرض حول الشمس يعتقدون أن مدار الأرض دائري، ثم أوضح كبلر أن الكواكب تدور في مدارات بيضاوية، فتصحح بهذا كثيراً من التفكير العلمي. وعلم الفلك قد يبدو بعيداً عن شؤون الرجل العادي، ولكنه أقدم العلوم ويسترعي الانتباه لضخامة أسرارها. أما الاهتمام العملي لدى الناس بالطبيعة والكيمياء لإستخدامهما في حياة الناس اليومية، وهذان العلمان أمكن نموهما بسبب المكتشفات الضخمة في الأسباب والنتائج التي تفسر ظواهر الفلك.

وإذا استطرنا في ذلك نرى أن الطيران بدأ بدراسة عملية التحليق عند الطيور، والطيار يحلق كالبطائر نتيجة لدراسة مبادئ التوازن في تيارات الهواء، وكانت طيارات الورق ذات أثر كبير في جمع المعلومات.

إن الجناح الآلي للطائرة يعتمد على مجموعة من مبادئ الاحتراق والكهرباء وبناء المحركات، وكذلك تولد مبدأ أشعة أكس عن الدراسة المستفيضة في أطوال الموجات، البرق يعتمد على تطبيق مبدأ الكهرباء المغناطيسية، والهاتف يعتمد على تطبيق آخر للمبدأ ذاته. فالاختراعات هي تطبيقات للمبادئ العلمية، وقد بدأت كلها بملاحظات حسية لتلازم الأسباب وما ينجم عنها.

ويفترض الناس أن أعينهم تنقل صورة دقيقة للعالم الخارجي وترسل عبر الأعصاب إلى الدماغ حيث تتبلور الصورة هناك. وتشبه العملية هذه بما يحدث في آلة التصوير، ولكن التجارب اليومية تظهر أن البصر سهل خداعه. فمثلاً إذا وضعنا عصاً مستقيمة في الماء تبدو للعين وكأنها مكسورة. وبالطبع يصحح ذكاؤنا هذا الانطباع البصري، فنعلم أن أشعة الضوء هي التي كسرت، لا العصا، بسبب مرورها من الهواء القليل الكثافة إلى الماء الأكثر كثافة. ويمكن خداع البصر بسهولة بعدة طرق. مثلاً، إذا أغلقت عينيك وضغطت عليهما بأصبعيك تحس وكأنك ترى ومضة ضوء. وبذا تكون قد خدعت عينيك والعصيين البصريين والدماغ بأن جعلتها (ترى) ضوءاً دون أن يكون هناك ضوء. كما أن الناس لا يرون دوماً بالعيون، إذ يرون رؤى واضحة ومعقدة في الأحلام والهلوسات، عن طريق تبلور الصور في الدماغ دون واسطة العيون والأعصاب.

ومن الملاحظ أننا نعرف ما فيه الكفاية عن أسباب الكهرباء لنسيطر على نتائجها، ولكن قليلين هم الذين يجسرون على محاولة فهم علة التيار الكهربائي. ونحن وإن كنا نعرف أن البوصلة تشير دائماً إلى الشمال لكننا لا نعرف لماذا، ومع ذلك تستخدم السفينة البوصلة بأمان عظيم. وعبور المحيطات بالطائرة يعتمد على بوصة من نوع خاص يعمل بدقة فوق مستوى التيارات الأرضية. ومبادئ الكيمياء قامت عليها مئات من الصناعات ابتداء من دباغة الجلود إلى الطهو، ومن الصباغة إلى صناعة الزجاج، إلى غير ذلك.

إن كل ذلك تم بفعل اجراء التجارب، وهذا معناه جعل علل معينة تنشط لمراقبة ما قد تتمخض عنه من النتائج. وهذه هي البذرة الأولى للمعمل العلمي. وتنفق اليوم الملايين على معامل البحث العلمي لتوسيع معلوماتنا على علاقة العلة بالمعلول، وعلاقة المعلول بالعلة. فنحن نسأل ذلك السؤال العميق: ما هو سبب مرض السكري؟ ومتى حصلنا على معرفة كافية بالسبب، سألنا: وماذا يكون تأثير البنسلين في علاجه؟ هذا التفكير في حدود السبب والنتيجة، أو العلة والمعلول هي لباب الاستدلال كله. ولكن هناك خطراً مستمراً قائماً عند الخلط بين علاقة الزمن وعلاقة السبب.

وعلى ذلك يمكننا القول أن الثلاثية المنطقية أتت من النتيجة والقاعدة والمثل أو الحالة، وهي بهذا الترتيب تجعل من البناء المنطقي تعليلاً للحوادث وتعريف التعليل أو التفسير أنه أستنتاج حالة جزئية من نتيجة وقاعدة. والنتيجة هنا نتيجة حسية وهي بخلاف النتيجة المنطقية أو العقلية التي هي ثمرة الاستدلال.

أن علم القرن العشرين أكثر اتضاعاً من علم القرن التاسع عشر وأرحب منه صدرأ، فإن التقدم العلمي العجيب في القرن الماضي وما أحدثه في حياة الانسان من تحول وأنقلاب لم يعهد لهما مثيل في التاريخ، كان من جرائه أن أصيب العلم بنشوة زادت زهواً بنجاحه وأعتداداً بمقدرته، وذهب العلماء حيناً الى أن العلم المادي قد أحاط بسنن الكون الرئيسية وأن في أستطاعتهم تفسير جميع الظواهر تفسيراً مادياً، وكان قصدهم أن المعرفة العلمية تريد أن تنتهي آخر الامر الى قوانين ذات صياغة رياضية، تقوم عليها الحجة بسلامة الاستدلال المنطقي من جهة، وبصدق التطبيق من جهة أخرى.

ثم أن العلماء قد رأوا كثيراً من النظريات التي ظنوها ثابتة لا تتزعزع، رأوها تنهار وتندك من أساسها بين عشية وضحاها. هذا ما تم في جيل واحد من الناس وفي بضعة عقود من الستين، فلنتصور ما يكون من مصير العلم بعد مائة سنة.. وبعد ألف سنة.. وبعد ذلك.

ان تاريخ التقدم العلمي ليس الا تاريخ الحقائق الجديدة تطرد من أمامها الحقائق القديمة وتحل محلها. فالحقيقة التي يكشفها البشر ليست هي الحقيقة الازلية المطلقة، ويندر ألا يصيبها الزمن بمحوله عاجلاً أم آجلاً، على الرغم مما قد يبذله أنصارها من المقاومة في أول الامر فإن بعض الاوليات المقررة اليوم في أذهان الناشئة كانت يوماً ما مثاراً للجدل بل للفتن والمنازعات، ثم لم تلبث أن أنتصرت على ما سواها، وقد يجيء أجلها بعد حين ويختم عمرها أسوة بما تقدمها.. وهكذا دواليك.

* * *

ان التحول في الرأي العلمي يندر أن يتم بلا مقاومة. ولهذه الظاهرة . التي سماها البعض (نيوفوبي) أي كراهة الجديد تعليل مقبول، وذلك أن علماء كل جيل تستقر في أذهانهم بعض النظريات وتعد لديهم في منزلة الحقائق الثابتة التي يسكنون أليها ويطمئنون. فالانسان لا يطبق حالة الشك التي تنهك فكره بل ينشد راحة ذهنه على الدوام.

فاذا جاء باحث بجديد يترتب عليه زعزعة مأستقر في الازهان كان نصيبه العداة والمقاومة حتى قبل أن تبحث دعواه، لأن كل ما يتطلب جهداً أو يثير ساكناً ينفر منه الانسان

بفطرته، ولا سيما بعد أن يجاوز سناً معينة. فالعقل كالجسم يفقد مرونته مع السنين وتقل قابليته للنمو والتكيف. ومن العلماء من تتصلب آراؤهم فيتعصبون لها بعناد عجيب، وليس التعصب في ميدان البحث العلمي بأقل عماية وشناعة من التعصب الديني.

فقد عومل الفيلسوف جيوردانو برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠) معاملة وحشية من قبل الكنيسة لإيمانه بتعاليم كوبرنيكوس في أن الأرض كوكب من عدة كواكب تدور حول الشمس وقال أن هناك كثيراً من الشموس، يدور حول كل منها عدد من الكرات الأرضية، كما هي الحال في شمسنا وكواكبها السبعة.. وهذه الكرات أيضاً مسكونة بمخلوقات حية! ولكن الكنيسة كانت تؤمن بأن الأرض مركز الكون وأن النجوم والكواكب ليست إلا أجساماً مضيئة خلقت لخدمة الإنسان، الذي خلق على صورة الله ومثاله. وتبعاً لهذا الاعتقاد أعتبرت آراء برونو زندقة والحاد وأحرق الفيلسوف المذكور.

كذلك كان الشأن مع الفيلسوف أيلارد الذي كانت أهم جوانب فلسفته تلك النزعة القوية الجريئة نحو تحرير العقل من ربة العقيدة، وهو الذي قال أن العقيدة لا تستطيع أن تحيا مدعمة قوية بغير علم ومعرفة.

وقد أتهم أيلارد بالخروج على مألوف العقيدة، فأنعقد لمحاكمته مجلس في (سنس) وقضى بأحراق كتابه (الثليث) وأمر به فحبس في دير حتى وافته منيته.

كما أتهم كثيرون من العلماء المخلصين لعلمهم ومنهم قسطنطين الإفريقي وجربرت وألبرتس مجنز وروجر باكون وفنسنت البوفيسي بالسحر وبالارتباط بالشياطين لأن الناس لم يكونوا يصدقون أنهم حصلوا على علمهم بالوسائل الطبيعية.

وإذا تصفحنا تاريخ العلوم وجدنا العلماء من هذا الطراز هم الأكثرية. فأكثر الحقائق التي قاومها الشعب ومن كان يسيره بحجة أنها مخالفة (للعلم) إنما كانت مخالفة لعلمهم هم!!

وهذا كان شأن التخدير الجراحي فقد أنكره الشعب في أول أمره.

وهذا أيضاً كان شأن (الميكروبات) فإن العلماء ظلوا عشرين سنة دون التسليم بوجودها.

وغاليليه سجن لأنه قال أن الأرض تدور.

وأكد العالم لافوازيه الفرنسي - على سعة علمه - أنه يستحيل أن تسقط حجارة من السماء إذ ليس فيها حجارة!

والدورة الدموية لم تثبت صحتها إلا بعد جدال دام أربعين سنة!

وقس على ما تقدم أمثلة عدة، فتاريخ العلوم مملوء بما تلاقيه الحقائق العلمية من صنوف المقاومة قبل أن تستقر ويسلم بها العلماء. بل كثيراً ما كان العلماء انفسهم هم أكاد العقبات في سبيل تقدم العلوم، وسرعان ما كانوا يصمون الشيء الجديد الذي يجاوز علمهم بأنه مناقض للعلم. وشتان بين ما هو (جديد) في العلم وما هو (مناقض) له.

وبالوسع أن نضرب الكثير من الامثلة على التحيز غير العلمي لدى بعض العلماء المعنيين في ذلك الزمان، وما كانوا يبدونه من عدم الاستعداد لفحص المسائل بعناية مادامت لا تتفق مع وجهة نظر العلم على وقتهم، وإن كانت قد هوت الى دروب لم تطرق من قبل. وسأقتبس مثالين قد يكون في الرجوع اليهما ما يدعو الى التسلية الساخرة، ولكنهما يبينان كيف عميت أبصار رواد العلم عن بعض الخطوات التقدمية في الفكر والعمل التي تعتبر في وقتنا هذا من الأمور الدارجة المألوفة، وذلك اعتماداً على كونها في نظرهم (لا يمكن أن تعقل أو تتصور). فقد كتب السير وليم باريت يقول:

(كنت مقيماً ذات مرة في أدنبرة بصحبة الفيزيائي المشهور (تيت)، حين وردت لنا أنباء برقية باختراع الهاتف، فسألت تيت رأيه في هذه الاكتشاف، وكان جوابه: الأمر كله هراء، فإن استكشافنا هذا شأنه مستحيل استحالة مادية).

ويذكر كانن آنسون واعظ كنيسة تمبل بلندن أمثلة أخرى مقتبسة في كتابه (حقيقة العلم الروحي). - (لندن سنة ١٩٤١)

(يروي فلاديمير الفلكي الفرنسي أنه كان حاضراً في أثناء فحص الاكاديمية للحاكي الذي صنعه أديسون، فأمسك أحد العلماء الحاضرين بخناق الأخصائي الذي كان يوضح أداء الجهاز وصاح فيه: أيها الشقي التعس، أننا لن نسلم أنفسنا ليغرر بنا شخص مثلك يتحدث من جوفه).

وللتوضيح فإن من يتحدث من جوفه أسم يطلق على الشخص الذي لديه القدرة على الكلام بطريقة خاصة بحيث يبدو وكأن الالفاظ لاتصدر من حنجرتة كسائر الناس، وإنما من جوفه أو بطنه. وحقيقة الامر أن من نظنه خطأ يتحدث من جوفه إنما ينطق ويصدر الأصوات عن طريق الحنجرة كالعادة، ولكنه يعدل في الصوت، ويخفض مرتبته، ويقلل من حركة الشفتين إلى أقل قدر ممكن، وذلك ليوهم السامعين ويغرر بهم ويخفي مصدر الصوت.

وتعود القصة التي رواها فلاماريون إلى عام ١٨٧٨ ولكن الشخص نفسه، وبعد ذلك ببضعة أشهر، وكان قد فحص الحاكي بعناية، صرح ثانية قائلاً (أنه من المستحيل الاعتراف بأن مجرد المعدن الخسيس يمكن أن يؤدي وظيفة النطق البشري). فالحاكي في رأيه لم يعد أن يكون أيهما صوتياً - بمعنى أنه غير موجود لأنه لا يمكن أن يكون موجوداً، أنه أمر لا يمكن للعقل أن يفعله أو يتصوره ولذا فهو مستحيل الوجود.

ومثل هذا شأن موقف الكثير بأزاء أبحاث التجارب العقلي عن بعد بصفة عامة.

إن ما تطرقنا إليه في فصول الكتاب هو غيظ من فيض مما تحفل به الكتب والمجلات والصحف من مواضيع تعزوها تارة إلى قوى خارقة أو سحرية أو تعللها علمياً. ويبقى لنا القول أن روح البحث قد حطمت جميع القيود والاعلال، وأخذت تخلق في طبقات عليا ومراتب سامية حتى أصبح التعليل الطبيعي للأشياء هو الغالب في كل ميدان، ومع هذا، لا زالت فكرة القوى الخارقة ملحة مستقرة في عقول الناس، ولا زال المنطق العاطفي في التفكير مستمر إلى يومنا هذا. فارادة الاعتقاد أو التفكير بالتمني، ارادة متأثرة بالرغبة في التعزية أو الرضا أو الاثارة أو الطرافة.

المراجع

باللغة العربية

- ١ - أبو غنيمه، د. محمد: نظرة في أعماق الانسان - مؤسسة النوري - دمشق ١٩٥٨
- ٢ - الدباغ، د. فخري: اصول الطب النفساني - دار الطليعة - بيروت ١٩٨٣
- ٣ - الأهواني، أحمد فؤاد: النوم والارق - سلسلة أقرأ دار المعارف بمصر ١٩٥٩
- ٤ - بدوي، عبد الرحمن: مناهج البحث العلمي - دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٣
- ٥ - عبده، سمير: الأحلام: تحليل مائة حالة نفسية - دار الاضواء - بيروت ١٩٨٦
- ٦ - عبده، سمير: التحليل النفسي للأبراج - الطبعة الثانية - دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٨٩
- ٧ - عبده، سمير: الخوارق النفسية - دار الاضواء - بيروت ١٩٨٦
- ٨ - مجلة أكتوبر - القاهرة - نفيسة عابد - سحرُوا أعين الناس وأسترهبوهم - العدد ٤٩٨ - ١١ مايو - أيار ١٩٨٦
- ٩ - روستان، جان: الانسان - ترجمة د. عبد الرحمن مرحبا - منشورات عويدات - بيروت ١٩٦٥
- ١٠ - رسل، برتراند: الفلسفة بنظرة علمية - ترجمة زكي نجيب محمود مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة ١٩٦٠
- ١١ - ريشنباخ، هانز: نشأة الفلسفة العلمية - ترجمة د. فؤاد زكريا - دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٦٨

- ١٢ - فروم، اريك: الدين والتحليل النفسي - ترجمة فؤاد كامل - دار غريب للطباعة - القاهرة ١٩٧٧
- ١٣ - فلوجل، ج.ل: علم النفس في مائة عام - ترجمة لطفي فطيم - دار الطليعة - بيروت ١٩٧٣
- ١٤ - فارب. بيتر: بنو الانسان - ترجمة زهير الكرمي - سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٦٧
- ١٥ - كزنوف، جان: السعادة والحضارة - ترجمة عادل العوا - مطبعة جامعة دمشق ١٩٧٢
- ١٦ - نييرنبرغ، جيرالد وهنري كاليرو: كيف تقرأ شخصاً كأنه كتاب ترجمة أديب خضور - دار الجليل - دمشق ١٩٩٠
- ١٧ - هادفيلد، ج.أ: الحلم والكابوس - ترجمة صلاح الدين محمد لطفي - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة
- ١٨ - يونغ، ك.غ: علم النفس التحليلي - ترجمة نهاد خياطة - دار الحوار - اللاذقية ١٩٨٥
- ١٩ - يونغ، ليلان: أسرار الوجه - ترجمة أندريه كاتب - دار الجليل - دمشق ١٩٨٨

باللغة الانكليزية

- 20 - Abraham, Karl: Dreams and Myths. Garden City Publishing Co. New York 1955
- 21 - Bronowski. j: The Common Sense of Science. A Pelican Books 1960
- 22 - Einstein, Albert: Relativity. Crown Publishers. Inc. New York 1961
- 23 - Freud, Sigmund: Collected Paper. the Hogarth Press, London 1956
- 24 - Freud, Sigmund: A General Introduction to Psychoanalysis. Garden City Publishing Co. New York 1957
- 25 - Hubbard. L. Ron: Dianetics, The Modern Science of Mental Health. Bridge Publication Inc. Los Angeles 1985
- 26 - Hubbard. L. Ron: Dianetics, The Evolution of a Science. Bridge Publication Inc. Los Angeles 1986
- 27 - Hubbard. L. Ron: Scientology, A New Slant on Life. Bridge Inc Los Angeles 1986
- 28 - Hubbard. L. Ron: Introduction to Scientology Ethics. Bridge Publication Inc. Los Angeles 1987
- 29 - Jones, Ernest: Paper on Psychoanalysis. William Ward Co, New york 1950
- 30 - Jung, Carl: Modern Man In Search of A Soul. Brace and Co. New York 1948
- 31 - Jung, Carl: Psychology and Religion. Yale University Press. New Halven 1953
- 32 - Mills, j. s :logic. W.W.Norton & Co, New York 1951

- 33 - Nilsson, M.: History of greek religion. oxford University 1925
- 34 - Plato: The Republic. Translation With Introduction and Notes, by Francis Macdonald Cornford, university Press, New York 1956
- 35 - Russell, Bertrand: The Impact of Science on Society. Unwin Books, London 1976
- 36 - Russell, Bertrand: The Problems of Philosophy. Oxford University Press, London 1976
- 37 - Russell, Bertrand: Unpopular Essays. Simon Schuster. New York 1964
- 38 - Russell, Bertrand: Principles of Social Reconstruction. Unwin Books, London 1950
- 39 - Russell, Bertrand: Mysticism and Logic. Unwin Books, London 1963
- 40 - Russell, Bertrand: Religion and Science. Oxford University Press, London 1978

الفهرس

| | |
|-----|--------------------------------------|
| ٥ | المقدمة |
| ١١ | مدخل الى الاستدلال |
| ١٩ | الاستدلال عن غير طريق الحواس |
| ٣٥ | بين السحر والاستدلال |
| ٥١ | قوة الاستدلال من النظرة الاولى |
| ٦٥ | الرجم بالغيب |
| ٧٧ | الاتفاق العارض |
| ٩١ | حالات الوعي المتغيرة |
| ١٠٣ | الاحلام كقوة للاستدلال |
| ١١٥ | الحدس المتنبئ |
| ١٢٧ | قوة الاستدلال ذاتية الحركة |
| ١٣٥ | ظاهرة الطبيعة الفائقة |
| ١٤٧ | المراجع |

منشورات دار علاء الدين

- ١ . التشريعات البابلية . تأليف عبد الحكيم ذنون.
- ٢ . مذكرات عن الإنقلاب العسكري . م. غورباتشوف.
- ٣ . كيف تكونين جميلة . زويا ميخائيلينكو.
- ٤ . المساج النقطي . زويا ميخائيلينكو.
- ٥ . الطب الشعبي ومجالاته . جارويس.
- ٦ . دليل السائح الروسي . د. ماجد علاء الدين.
- ٧ . قصص قصيرة . ليف تولستوي . ترجمة رسلان علاء الدين.
- ٨ . قفزة . تأليف ليف تولستوي . ترجمة ريماء علاء الدين.
- ٩ . قصة الوقت الضائع . ترجمة رسلان علاء الدين.
- ١٠ . حكاية العملاق العجيب جونج . ترجمة ريماء علاء الدين.
- ١١ . طائر الكرم . مجموعة قصص . تأليف: وهيب سراي الدين.
- ١٢ . أسرار الكون . تأليف مجموعة من العلماء.
- ١٣ . القوة العصبية . تأليف د. بول بريغ.
- ١٤ . العلاج بعصير الخضار والفواكه . تأليف: نورمان ووكر.

- ١٥ . دليل مريض السكر. ترجمة: لجنة الترجمة في دار علاء الدين.
- ١٦ . الطريق إلى الصحة: كيف يتغذى المعمرون.
- ١٧ . صفحات من تاريخ فن الرقص في العالم. إعداد: فائق شعبان.
- ١٨ . الأجسام الطائرة المجهولة. تأليف كوزوفكين وسمينوف.
- ١٩ . علاج الأمراض الجلدية بالأعشاب. تأليف: ب. داتسكوفسكي.
- ٢٠ . حلوى الأطفال: تأليف: مارغريت باول.
- ٢١ . التربية السليمة للطفل: تأليف موريس لين . ترجمة: سميح شيا.
- ٢٢ . دليل الحامل: ترجمة: لجنة الترجمة في دار علاء الدين.
- ٢٣ . تاريخ القانون في العراق: تأليف: عبد الحكيم الذنون.
- ٢٤ . تقليم أشجار الفاكهة: ترجمة وإعداد طه شيخ حسن.
- ٢٥ . طقوس الجنس المقدس . تأليف س. كريم . طبعة ثانية ١٩٩٣ .
- ٢٦ . الديانة الفرعونية . تأليف واليس بدج . طبعة ثانية ١٩٩٣ .
- ٢٧ . الجنس في العالم القديم . بول فريشاور . طبعة ثانية ١٩٩٣ .
- ٢٨ . شريعة حمورابي . مجموعة مؤلفين طبعة ثانية ١٩٩٣ .
- ٢٩ . العرافة وسوسة أم ٩٠٠٠ . مجموعة باحثين.
- ٣٠ . اللؤلؤة النادرة: حكاية شعبية فيتنامية ترجمة: أكرم أبو راس.
- ٣١ . أعشاب الشفاء إعداد د. ماجد علاء الدين . زويا ميخائيلينكو.
- ٣٢ . تحضير الكيك والكاتو والكريما . تأليف: مارغريت باتن
- ٣٣ . سلسلة القسم التعليمية . قصص وديع اسمندر.

SAMIR ABDOH
Reasoning
PSYCHO – ANALYSIS

PUBLISHER ALAEDIN

DAMASCUS:

P. O. Box: 30589

Tel: 427158 - 427353

Tlx: 412545 Fax: 427159

هذا الكتاب

منذ أرسطو والناس يقولون بأن لديهم خمس حواس (البصر والسمع والشم والذوق واللمس) ولكنهم مع ذلك يملكون حواس أخرى منها: حاسة وعي الاطراف، ووعي درجة التوتر العضلي، وحركة أكثر من مائة مفصل، وهذه الحاسة حيوية لجعل الانسان قادراً على الوقوف منتصباً والمشي والامساك بالأشياء والتحرك ضمن حدود البيئة. كذلك هناك حاسة الجاذبية الارضية والتوازن التي تعتمد على خلايا حسية في أعماق الأذن الداخلية.. وبالإضافة لحاسة اللمس توجد في الجلد ثلاث حواس أخرى على الأقل هي: حاسة الألم، وحاسة الحرارة، وحاسة البرودة.

وإذا كان علماء النفس القدماء قد نسبوا قوة الاستدلال إلى مجموعة من الاحساسات، فإن الأمر بالنسبة للمحدثين ليس مقصوراً على مجرد الاحساسات، وإنما يدخل فيه معلومات المرء وخبراته السابقة التي تعطي بدورها معنى الاحساسات التي تعتبر في حد ذاتها لب الاستدلال. فالاستدلال إذن ليس مجرد أنطباع صور الأشياء في الذهن، ولكنه استجابة معينة للإحساسات الراهنة تستخدم فيها الخبرات السابقة، كما تتأثر بإتجاهات الفرد وأسلوبه في الحياة.

وقد نسب الكثير للحواس والاستدلال، من ذلك الحاسة السادسة والاستدلال عن غير طريق الحواس، أو أن تكون قوة الاستدلال من السحر، أو من النظرة الاولى، وبالرجع بالغيب، أو الاتفاق العارض، وحالات الوعي المتغيرة، والاحلام كقوة للإستدلال، والحدس المتنبئ، وقوة الاستدلال ذاتية الحركة، وظاهرة الطبيعة الفائقة..

كل ذلك تناوله المؤلف عن طريق التحليل النفسي بأسلوب شيق وآخاذ.

الناشر



منشورات دار علاء الدين

دمشق - ص . ب : ٣٠٥٩٨

هاتف : ٤٢٧١٥٨ - ٤٢٧٣٥٣